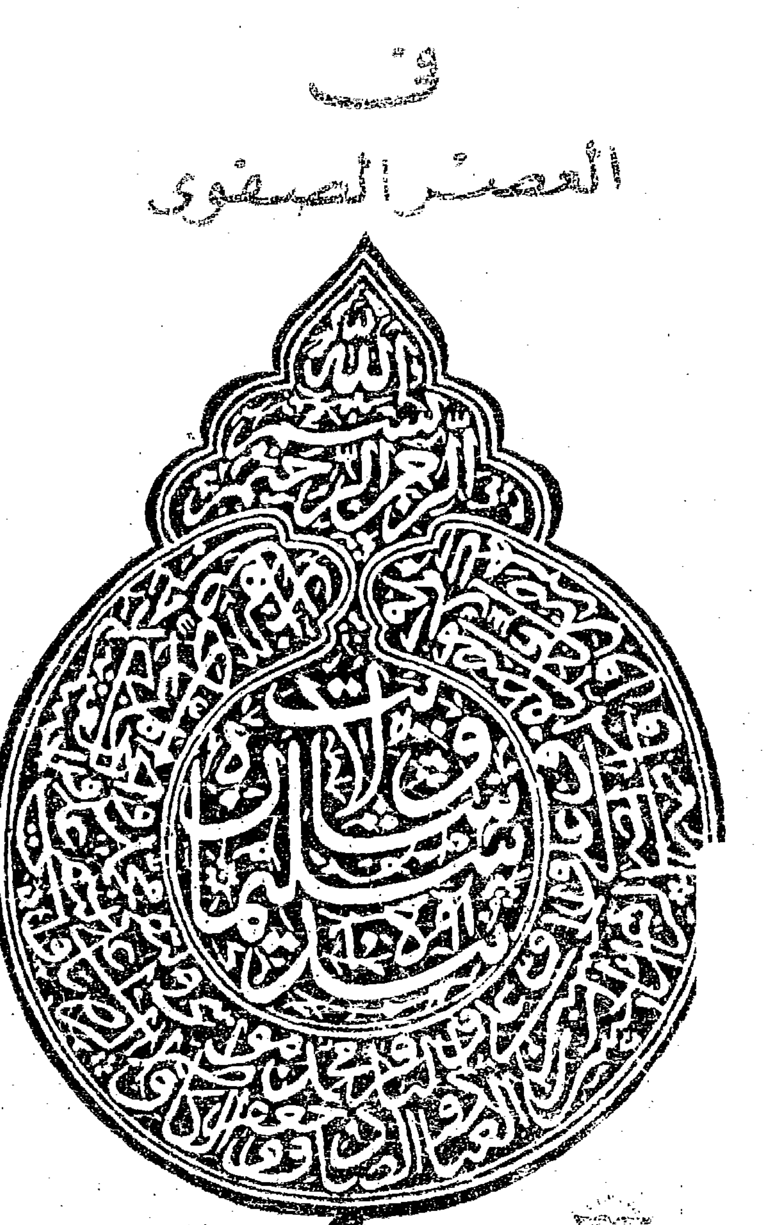
إيران وعلاقاتها الخارجية

في

العصر الصفوي



محمد فتحي يوسف الريس

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت [illegible] - القاهرة

إيران وعلاقاتها الخارجية

في

العصر الصفوي

٩٠٦ - ١١٤٨ هـ / ١٥٠٠ - ١٧٣٦ م

تأليف

نصر الله فلسفي

ترجمة وتقديم

محمد فتحي يوسف الريس

دكتوراه في الآداب من جامعة طهران

١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

هذا الكتاب فى الاصل باللغة الفارسية بعنوان « سياست خارجى ايران در دوره‌ء صفويه » من تاليف الاستاذ نصر الله فلسفى ٠ والمؤلف يعـد من افضل الاساتذه المعاصرين الذين كتبوا عن العصر الصفوى فى ايران وقد اتاح له عمله كمستشار ثقافى لايران فى اسبانيا وايطاليا فرصة الاطلاع على ما تحويه مكتبات هـاتين الدولتين من وثـائق ومخطوطات وكتب استفاد منها فى تاليف هذا الكتاب ٠

وقد قمت بنقله الى اللغة العربية لما وجدته فيه من معلومات هامة تفتقر اليها المكتبة العربية عن هذه الفترة الخطيرة والهـامة فى تاريخ العالم الاسلامى وتصاعد الصراع المذهبى بين الشيعة والسنة بشكل لم يكن ظاهرا او معروفا قبل ظهور الصفويين الذين استعانوا بالاوربيين فى سبيل تحطيم الخلافة الاسلامية العثمانيـة ، فمهدوا وسهلوا للاستعمار الاوربى الاستيلاء على المشرق باسره بل واقتطاع مساحات كبيرة من اراضيهما ٠

وقد رايت ان اكتب مقدمة عن اصل الصفويين وكيفية وصولهم للحكم وما ارتكبه الشاه اسماعيل الصفوى من مذابح وحشية فى سبيل فرض المذهب الشيعى على اهل السنة فى ايران وما حولها ، نظرا لان عصره السياسى لم يرد فى الكتاب كغيره من ملوك الصفوية ، لعدم وجود علاقات بين ايران واوربا فى عهده ٠

وقد يعتب على البعض هذا التصوير الدامى لعصر الشاه اسماعيل الصفوى ، ولكننى اعتقد ان غالبية المؤرخين المعاصرين فى ايران

يذهبون معى هذا المذهب ، وقد يكتب بعضهم بنوع من التلميح خوفا من المتعصبين للمذهب ، ويذهب بعضهم للتصريح احقاقا للحقيقـــة والتاريخ واستشهد هنا بقول الزميل الفاضل الدكتور ابراهيم باستانى باريزى الاستاذ فى جامعة طهران حيث يقول فى كتابه السياســـة والاقتصاد فى العصر الصفوى ، « فى الحقيقة فان مظالم جيش الشاه اسماعيل وسلوكه المنحط تلوث القلم بالعار عند كتابتها ، فانهم بعـد ارتكاب المذابح كانوا يوزعون الزوجات على امراء القزلباشية » ٠

اما بقية العصر الصفوى فقد جاء ذكره بشكل أو اخر فى ثنايا الكتاب مما قد يسهل مهمة القارىء ، ولعل الفرصة تتاح لى لكتابة تاريخ مفصل لهذا العصر ان شاء الله ٠

وقد اضفت للكتاب بعض الحواشى والشروح ، كما اضفت اليه ايضا بعض الخرائط والصور وهو ما ليس فى الكتاب الاصلى ٠

ارجو ان اكون قد اديت خدمة للمكتبة العربية والمهتمين بالتاريخ الحديث ، كما اعتذر عن اى تقصير قد يلمسه القارىء فى هذا الكتاب وبالله التوفيـق ٠

القاهرة فى رمضان ١٤٠٩ — دكتور محمد فتحى يوسف الريس

ابريل ١٩٨٩ — دكتوراه فى الادب الفارسى

من جامعة طهران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الصفويون

اصلهم :

ينسب الصفويون الى الشيخ صفى الدين اسحق الاردبيلى (٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ) وكان شيخا لطريقة صوفية وله زاوية فى مدينة اردبيل (١) • وتجمع كل المصادر المعاصرة له أو اللاحقة به حتى قيام الدولة الصفوية سنة ٩٠٦ هـ على انه كان شافعى المذهب ولم تشر من قريب أو بعيد الى انتسابه لاهل البيت (٢) • ولكن الكتب والمصادر التى دونت فى عهد الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة ، أو تلك التى كتبت بعده ، أضفت عليه واخترعت له نسبا أو صله للامام موسى الكاظم الامام السابع للشيعة الجعفرية أى الى الحسين بن على بن أبى طالب وذلك لكى يصير له ولاسرته وخلفائه من بعده الحق او الشرعية فى اعتلاء العرش وتوارثه ، ويستندوا الى النسب العلوى فى ادعاء الملك والسيطرة على الحكم •

ويعتز الايرانيون بالدولة الصفوية أيما اعتزاز ، ويصورونها على انها الدولة التى حققت حلمهم فى الوحدة والسيادة والقومية ، وانها أول دوله ايرانية تحكم بلادهم بعد استعمار طويل او حكم أجنبى مستمر منذ الفتح العربى لايران ثم تبعه حكم الغزنويين والسلاجقة والمغول والتتار (٣) ، واستثنوا حكم الدويلات الصفارية والسامانية والبويهية التى كان مؤسسوها من أصول ايرانية كما يدعون ويزعمون •

---

(١) تقع فى اقليم اذربيجان الايرانية جنوب غرب بحر قزوين
(٢) زندكانى شاه عباس المقدمة ص ط
(٣) نفس المرجع ص ب وعالم اراى صفوى المقدمة ص ١٧ •

واذا أردنا مناقشة هذا الزعم وتحليل هذا الرأى وجدناه لايخرج عن أحد تفسيرين ٠

أولهمــا ، أننا اذا أخذنا بالقــول أن الصــفويين ينتسـبون الى موسى الكاظم أى الى أهل البيت فاننا بهذا نرجع نسبهم واصلهم الى أعرق القبائل العربية وهى قريش وتصير عروبة الصفويين أمــرا لا شك فيه ولا مراء ، طالت اقامتهم فى ايران أم قصرت ، ويصير حكمهم لايران استمرارا أو عودة لحكم العرب لايران ، وهو استمرار للحكم الاجنبى كما يصورون حكم الغزنويين والسلاجقة وغيرهم من المسلمين الذين وصلوا الى حكم هذه المنطقة ٠

ثانيهما ، اننا اذا قلنا انهم لا ينتسبون الى الامام موسى الكاظم او لا ينتمون اليه والى اهل البيت وهو ما تتجه الدراسات الحديثة الى القول به ، اصبح لزاما علينا أن نبحث عن اصلهم ونسبهم (*) ٠

من الجلى الواضح ان الصفويين لم ينتسبوا الى اهل البيت الا بعد ان وصلوا الى الحكم ، فلم يشر أى كتاب قبل توليهم السلطة الى انتسابهم الى الحسين بن على سوى كتاب صفوة الصفوة لابن البزاز والذى الف فى عهد الشيخ صدر الدين بن صفى الدين ، وقد حدثت فى مخطوطات هذا الكتاب تغييرات كثيرة تجعله عرضة للشك ٠

ويؤيد عدم انتسابهم الى اهل البيت ما كتبه رشيد الدين فضل الله الوزير المشهور لغازان خان المغولى ثم لخليفته أو لجايتو فى رســالته لابنه أحمد حاكم اردبيل حيث يوصيه بالشيخ صفى الدين الاردبيلى ، وليس بها ما يشير الى انتساب صفى الدين الى اهل البيت وان كان

- نفس المرجع المقدمة ص ط وهامش ص ٤ ٠

(*) الف احمد كروى كتابا يثبت فيه عدم انتساب الصفويين لال البيت وللاسف لم يصل لايدينا ٠

يذكر علو منزلته فى الدين والتصوف حيث يقول « جناب قطب فلك الحقيقة سباح بحر الحقيقة ، مساح مضمار الطريقة ، شيخ الاسلام والمسلمين ، برهان الواصلين ، قدوة الاصفياء ، زهرة دوحة الوفاء ، الشيخ صفى الملة والدين ، أدام الله تعالى بركان انفاسه الشريفة ..».

وهذه العناوين والالقاب كانت مما يخاطب به كبار رجال اهل السنه وعلماؤها واقطاب الصوفية وفحولها ولو كان الشيخ صفى الدين من أهل البيت لما أغفل هذا الوزير الفاضل الاشارة الى ذلك والاشادة به ، كما أنه لو كان شيعيا لما نعته بشيخ الاسلام ، ولقال اية الله او حجة الله او غيرها من القاب رجال الدين الشيعة .

ويقول صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول « من المسلم به ـ كما يتضح من كتب التاريخ فى زمن الشاه صفى وأجداد الشاه اسماعيل ـ أن هذه الاسرة منذ عصر الشيخ صفى (٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ) الذى كانت فيه العناصر التركية والفارسية فى اذربيجان مشخصه متمايزة ، كانت من الاسر المحلية الايرانية ، وانه كان يتكلم الاذرية (أى اللغة التركية المحلية فى اذربيجان) كما تعلم التركية والمغولية فى الكتاب»(٥)

واذا كان صاحب كتاب حياة الشاه عباس يرى أنهم من العناصر الايرانية أو الفارسية فان مؤلف عالم اراى صفوى ـ المجهول ـ يذكر أن صفى الدين كان تركيا ، فحين تحدث عن أول لقاء جرى بين صفى الدين الاردبيلى وشيخه الزاهد الجيلانى (٦) ، يقول :

« كان من عادة الشيخ أن يعتكف فى خلوته فى شهر رمضان لا يقابل احدا ، ولكنه فى أحد الاعوام ادرك بعلم هدايته أن صفى الدين

(٥) زندكانى شاه عباس اول جـ ١ ص ط (الهامش) .

(٦) هو الشيخ الزاهد ابراهيم الجيلانى وكان قد تولى الطريقة عن الشيخ جمال الدين عن الشيخ شهاب الدين محمود الامرى والتى تنتهى الى الشيخ جنيد البغدادى الى معروف الكرخى .

وصل الى زاويته ، فخرج الى ابنه جمال الدين على وقال له اذهب الى المكان الفلانى فى الزاوية وستجد شابا تركيا فى مقتبل العمر بهذه الملابس والعلامات (التى ذكرها الشيخ لابنه) وهو قائم يصلى هناك ، وعندما ينتهى من صلاته ويسلم قل له ان أبى الشيخ الزاهد يطلبك»(٧)٠

ثم يكمل قصة هذا اللقاء فيقول « فلما انتهى الشيخ الزاهد من اعتكافه ، رأى المريدون شيخهم يخرج من خلوته وقد وضع يده فى يد شاب تركى » (٨) ٠

ونلاحظ أن مؤلف الكتاب نعت صفى الدين بانه « شاب تركى » ولم يقل سيدا أو شريفا أى من اهل البيت ، كما لم يقل انه فارسى أو من جنس اخر بل قال صراحه أنه « تركى » ٠

ولهذا نرى أن القول بانتساب الصفويين الى أهل البيت ليس صحيحا لان ادعاء هذا النسب بعد وصولهم الى السلطة كان ذريعة لتثبيت ملكهم واضفاء الشرعية على حكمهم حتى لا ينازعهم فيه منازع ، ولكى يظهروا للناس انهم أحق بتولى السلطة من أبناء جنسهم العثمانيين الذين اقاموا لهم دولة فى اسيا الصغرى ثم تلقبوا بالقاب خلافة المسلمين بعد أخذها من خلفاء العباسيين فى مصر (٩) ٠

ونحن لا نرجح أن الصفويين كانوا من العناصر الفارسية التى كانت تعيش فى اذربيجان كما ذهب مؤلف كتاب حياة الشاه عباس ، لانهم لو كانوا كذلك ما حولوا ايران فى عصرهم الى دولة كل ما فيها تركى أو للعناصر التركية حتى ضاع فيها الفرس واصبحوا غرباء فى وطنهم، وهو ما سيتضح من هذه الدراسة ٠

وقد عاد صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول فى موضع اخر فقال « يبدو أن الشاه طهماسب كان أول ملك من الاسرة الصفوية يدعى النسب لاهل البيت اذا أوصل نسب جده الشيخ صفى الدين الاردبيلى

---

(٧) عالم اراى صفوى ص ١١ ٠

(٨) عالم اراى صفوى ص ١٢ ٠

الى الامام موسى الكاظم ، وأطلق على نفسه لقب طهماسب الصفوى الحسينى الموسوى ، تبعه الملوك الذين جاءوا بعده ومنهم الشاه عباس الذى كان يعد نفسه من أولاد على بن أبى طالب ، ولكن يتضح من كتب التواريخ المعاصرة أن هذا النسب لا يقوم على أساس صحيح فقد ثبت من الابحاث الحديثة أن فيروز شاه جد الشيخ صفى الدين السابع جاء من كردستان الى اذربيجان فى حوالى سنة ٥٦٩ هـ ، وأن أجداد الصفوية ايرانيون أصلا » (١٠) ٠

ولعل قوله « ايرانيون أصلا « لا تعنى تحديد جنسهم ، لان المقصود بهذا هو تحديد الموطن لا تعيين الجنس ، فهو يعنى أنهم كانوا يعيشون فى ايران أو يحملون جنسيتها ، وأن المؤلف لو أراد تحديد جنس الصفويين لقال « ان أجداد الصفويين فرس أصلا ، أو من أصل فارسى لان المقابل لتركى هو فارسى وليس ايرانى لان ايران كانت كانت ومازالت موطنا لعدة اجناس من اهمها الفرس والترك والعرب والاكراد وغيرهم وهذا هو الاصطلاح الذى تستعمله ادارات وكتب الاحصاء حاليا فى ايران ٠

ولهذا فنحن نرجح ما ذهب اليه صاحب كتاب عالم اراى صفوى من أن صفى الدين الاردبيلى كان تركيا ، وبالتالى فان أحفاده الذين أقاموا الدولة الصفوية كانوا اتراكا ، ولا صحة لما زعموه من نسب الى اهل البيت ، كما انهم لم يكونوا من الفرس او الجنس الفارسى الذى يعتز بفارسيته وبلغته ، فى حين أننا نرى ملوك الصفويين كانوا يتكلمون التركية بل ان بعضهم نظم الشعر باللغة التركية ، كما كانت التركية لغة بلاطهم وديوانهم ، وما فعلوه بايران وبالفرس لا يقبل فارسى أن يفعله بوطنه ومواطنيه (١١) ٠

---

(٩) يعقوب بن الليث الصفار ص ٢٨ ٠
(١٠) زندكانى شاه عباس ص ٣ ٠
(١١) انظر كتاب « سياست واقتصاد در عصر صفوى » الدكتور ابراهيم باستانى باريزى ٠

وصولهم الى السلطان

مقدمة النفوذ :

كان الشيخ صفى الدين اسحق الاردبيلى رجلا زاهد أشد الزهد حتى انه كان يصوم اسبوعا كاملا لايتناول فيه الا وجبة واحدة من الطعام ، فلما منعه شيخه ـ وحموه فيما بعد ـ الشيخ الزاهد الجيلانى عن هذا ، كان يكتفى بلقمة من الارز فى اليوم ، ولم يكن يأكل اللحوم أو الدسوم (١) ·

ظل صفى الدين يلازم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج الشيخ صفى من فاطمة ابنة شيخه ومرشده · وحين احس الشيخ الزاهد الجيلانى بدنو اجله ، أوصى بأن يحل صفى الدين محله فى رئاسة الطريقة التى كان يتوارثها عن الجنيد البغدادى عن السرى السقطى عن معروف الكرخى (٢) ، وحرم ابنه الذى كان يدعى جمال الدين من تولى هذا المنصب · وهذا انتقلت لصفى الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة ، ومشيخة هذه الطريقة الصوفية التى كان لها كثير من الاتباع والمريدين فى جيلان واذربيجان يقال أن عددهم كان مائة الف مريد ، منهم اثنا عشر الفا فى حضرة الشيخ، وكان له أربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشراف على شئونها (٣) ·

كانت هذه هى الخطوة الاولى على طريق الزعامة الدينية والسلطة الدنيوية التى تولاها الصفويون بعد ذلك وأصبحت وراثة فيهم ·

---

(١) عالم اراى عباسى ص ١٣ ·
(٢) نفس المرجع والصفحة ·
(٣) عالم اراى صفوى المقدمة ص ١١ ·

المال والاتباع :

بعد وفاة الشيخ صفى الدين اسحق ، خلفه ابنه صدر الدين موسى الذى استمر فى رعاية الاتباع والمريدين والعمل على استمرار هذه الطريقة ، فلما توفى بعده ابنه على بن صدر الدين موسى الذى ينسبون اليه – كما ينسبون لبقية ملوك هذه الاسرة تقريبا – الكثير من الكرامات خاصة مع تيمور جوركان « لنك » الذى كان يعتقد فى هذا الشيخ اعتقادا كبيرا ، من ذلك ما يروونه من أن تيمور أثناء عودته منتصرا من حربه ضد ايلدرم (٤) بايزيد السلطان العثمانى قرب أنقوريه (أنقره) (٥) ، مر بأردبيل وطلب من الشيخ على سياه بوش (٦) أن يتمنى أى شىء فطلب منه الشيخ على أن يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه ، فأمر تيمور على الفور باطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا ، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حول أردبيل من مزارع وضياع من حلال ماله وأوقفها على زوايا الصفويين وتكاياهم فى أردبيل ، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهم ·

وكان تيمور أثناء عودته من حروبه فى اسيا الصغرى قد حمل معه ما لا يعد ولا يحصى من الاسرى أغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية هى روملو – شاملو – قاجار – استاجلو – افشار – بيات – ذو القدر – تكلو – ورساق ؛ وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ · فلما التقى تيمور بالشيخ على بن صدر

---

(٤) ايلدرم يعنى الصاعقة ·

(٥) كانت هذه الموقعة فى سهل شوبوق بجوار انقرة يوم الجمعة أول محرم ٨٠٥ هـ (أول اغسطس سنة ١٤٠٤ م) وفى رواية أخرى فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ (٢٠ يوليو ١٤٠٢ م) ·

(٦) سياه بوش يعنى لابس السواد (توفى ٨٣٠ هـ ١٤٢٦ م) ·

(٧) عالم اراى عباسى ص ١٦ وعالم اراى صفوى ص ٢٦ ·

الدين موسى المشهور بعـلى سياه بوش فى زوايته فى أردبيل قـال له الشيخ « ان أغلب هؤلاء الاسرى من خاصتى والمريدين لى مثلك فان أبقيتهم فى ذل الاسر فلن يرضى عنك الله وسوف تطرد من رحابه».

فسأله تيمور وكيف أميز بين هؤلاء لاعرف من هو من مريديك ومن ليس منهم فى هذا العدد الكبير من الاسرى ؟ » .

أجابة الشيخ قائلا « ان كل مريد من اتباعى قد خاط على عمامته قطعة من القماش الاحمر ، فمر رجالك كى يخرجوهم من بين الاسرى ويتركوهم فى زاويتى » .

وقد تم هذا ، وأطلق سراح الاسرى من مريدى الصفوية وأصبح هؤلاء الاسرى من بلاد الروم والشام بعد قرن من الزمان أمراء وملوكا على عرش كسرى وانوشيروان (٨) .

وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومـات الرئاسـة والزعـامة دون مشقة ، اذ انتقلت الى صفى الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون أن يشقى فى تكوينها او يتعب فى انشائها ، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ على أعدادا كبيرة من الاسرى الاتراك اصبحوا من مريدى هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة ـ كما سنرى ـ بل اصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم « القزلباشية » (٩)، وبلغت بعض هذه القبائل من القوه والنفوذ ما جعلها تجلس على عرش ايران بعد زوال الدولة الصفوية نفسها مثل الافشار والزند والقاجر الذين قضى عليهم رضا شاه بهلوى سنة ١٩٢٥ م .

وقد سبق ان ذكرنا ان تيمور منح هذه الاسرة الموره المـالى

---

(٨) سياست واقتصاد ص ١١ و ١٢ .

(٩) قزلباش أى لابس العمامة الحمراء وهى التى أصبحت رمز الصفوية .

الذى كانوا ينفقون منه على دعوتهم وحركتهم ، اذ اوقف أردبيـــل وما حولها عليهم ، كما أعفاهم من خراجها ، بل وجعل كل من يلتجىء الى زاويتهم أو حمايتهم فى أمان حتى ولو كان من أعتى الجنــاة أو أخطر الاشقياء (١٠) ٠

مصاهرة الملوك :

بعد وفاة الشيخ على بن صدر الدين موسى تولى ابنه جنيد زعامة الطائفة وحمل لقب « سلطان » وأخذ فى نشر الدعوة مستغلا الاموال الطائلة والمريدين الذين وهبهم تيمور لابيه فلما علم ميرزا جهانشـــاه السلجوقى ملك ايران انذاك بما بلغته هذه الدعوة من قوة ونفوذ واتجاه للتوسع ، أرسل الى السلطان جنيد رسالة أمره فيها بابعـــاد الناس والمريدين الذين يلتفون حوله أو فى حضرته ، والعيش فى سلام وأمان والا يفكر فى الملك ، والا فان القضاء عليه يصبح أمرا واجبا ٠

رد عليه السلطان جنيد قائلا « نحن لا شأن لنا بالملك ، وانـنـا مشغولون بالعبادة ، وأما قضاء الله فلا راد له » ٠ واستمر السلطان جنيد فى دعوته ، فأرسل اليه ميرزا جهانشاه رسالة ثانية قال له فيها « يبدو أنك لم ترتدع ، وعليك مغادرة مملكتى والا أتيت الى أردبيـل وهدمتها عليك وعلى أتباعك ، وأعملت فيكم السيف » ٠

عندئذ جمع السلطان جنيد أتباعه وغادروا أردبيل الى ديار بكر التى كان يحكمها انذاك حسن بك اق قويون لو (١١) الذى كان من مريديه ٠ وقد استقبله حسن بك أحسن استقبال واستضافه ومن معه من المريدين والاتباع ثلاثة أعوام ، كما زوجه من أخته حليمة سلطان ،

---

(١٠) سياست واقتصاد ص ١٠ وعالم اراى صفوى ص ٢٥
(١١) حسن بك بن على بن قرا عثمان اق قويون لو التركمانى واق قويون لو تعنى أصحاب الخراف البيضاء ٠

وقد أدت هذه المصاهرة الى أن يحمل أبناء جنيد وأحفاده لقب ميرزا أى أمـير ٠

بعد هذه المصاهرة عاد السلطان جنيد ثانية الى مقره فى أردبيل، فلما بلغ خبر عودته الى ميرزا جهان شاه السلجوقى أمر بجمع الجيش والاستعداد لمحاربة السلطان جنيد ، فما كان من السلطان جنيد الا أن جمع رجاله وأتباعه من الصوفية وكانوا نحو عشرين ألفا وتوجه بهم الى شيروان (*) للجهاد ومحاربة الكفار ، وقتل السلطان جنيد فى هذه الحرب وحمل مريدوه نعشه الى أردبيل حيث دفنوه هناك الى جوار جده صفى الدين الاردبيلى ، ثم اجلسوا ابنه حيدر على أريكة الارشاد مكان أبيه ٠

لم يسكت حسن بك اق قويونلو على مقتل صهره فخرج للثأر له ممن دفعه للخروج من موطنه فى أردبيل ، فتوجه الى تبريز وأسر ميرزا جهانشاه السلجوقى ، وضم هذا الجزء من ايران الى ملكه وجلس على العرش فى تبريز مما زاد من شوكه حيدر ميرزا وقوته لان خاله (حسن بك) وهبه أردبيل مرة أخرى كما زوجه من ابنته « عالم شاه بيكم » (١٢) وكان حيدر ميرزا ابن أميرة فصار زوج أميرة أيضا ٠

زواج لـه ما بعده :

كان السلطان حسن بك اق قويونلو متزوجا من مسيحية اسمها « تيودورا » ، أبوها يدعى « كالو جوهانس » وهو شقيق ديفيد كومنينوس امبراطور طرابزون الارمنى آنذاك ، وقد عرفت باسم « دسبينا خاتون » ،

---

(١٢) بيكم للسيدات تعادل لقب بك للرجال وهى تكتب حاليا بالعربية بيجوم واسمها يعنى ملكة العالم ٠

(*) أقليم شيروان يقع غرب بحر قزوين حول مدينة باكو السوفيتية حاليا (انظر الخريطة) ٠

وكانت اختها متزوجة من « كاترينو زينو » سفير دوله البندقية ومبعوثها لدى السلطان يعقوب بن حسن بك اق قويونلو ، وقد انجبت تلك السيدة (تيودورا) بنتا من السلطان حسن كان اسمها المسيحى « مارتا » اما اسمها بعد زواجها من حيدر ميرزا فهو حليمه بيكم اغا واشتهرت باسم « عالم شاه بيكم » ، وقد انجبت من حيدر ميرزا ثلاثة أولادهم على ميرزا ، وابراهيم ميرزا ، واسماعيل ميرزا ٠

وسنرى فيما بعد تأثير هذا الزواج المسيحى على الدين الاسلامى فى ايران واختيار المذهب الشيعى الذى أعلنه الشاه اسماعيل الصفوى منذ اعتلائه عرش ايران ٠ وفى ضوء هذه المصاهرة سنتمكن من تفسير التقارب الشديد الذى حدث بين الصفوية والدول المسيحية سواء روسيا القيصرية أو أوربا وتحالفهم ضد الدولة العثمانية السنية التى أخذت على عاتقها الدفاع عن الاسلام والدول الاسلامية آنذاك ، وأدى هذا التقارب والتحالف الى اضعاف الدولة العثمانية وانهاك قواها فى حروب ضارية مع الصفويين من ناحية الشرق ، ومع الأوربيين من الغرب حتى انهارت الدولة العثمانية واقتطعت اقطارها الاسلامية ليستولى عليها الغرب المسيحى ويقسمها بينه الى مستعمرات ظل يحكمها نحو مائه عام او اكثر بينما ادى انهيار ايران نفسها الى اقتطاع أجزاء كبيرة منها استولى عليها الروس وضموها الى بلادهم ، وضياع بلاد المسلمين فى وسط آسيا مثل أوزيكستان والتركستان وتاجيكستان وقرغيزيا التى استولى عليها الروس ايضا ٠

السلطان حيدر اول قزلباش

بعد أن تولى حيدر ميرزا رئاسة هذه الجماعة الصوفية الكبيرة واخذ فى رعايتها وتقويتها ومد نفوذها رأى أن يميزها عن غيرها من الجماعات الدينية فادعى أن الامام على بن أبى طالب جاءه فى المنام وصنع له عمامة من الصوف الأحمر بها اثنتا عشرة ثنية طولية تشير

الى أئمة الشيعة الاثنى عشر (١٣) ، فكان يطلق على لابسها « قزل باش » أى لابس العمامة الحمراء ، ووهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمائم لكل واحد من أتباعه ومريديه أو طلب منه عملها ولبسها ، وبهذا تميزت هذه الجماعة أو الفرقة الصوفية بهذا الزى المميز ، كما اعلانا عن قيام هذه الجماعة واعتزازها بنفسها وقوتها كجماعة مستقلة. وقد وافق حموه ـ حسن بك أق قوينلو على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامه مميزه للجماعة تميزها عن سائر الناس فلم توفى حسن بك وخلفه ابنه السلطان يعقوب منع الناس من لبس هذه العمائم الحمراء وتوعد من يلبوسنها بأشد العقاب ، ولم يجد حيدر ميرزا ميرزا مفرا من ترك أردبيل والخروج بدعوى الجهاد فى سبيل الله ونشر الاسلام فى ديار الكفار من ناحية والثأر لمقتل أبيه السلطان جنيد الذى قتله ملك شيروان فى الغزوه التى كان قد قام بها على تلك البلاد من ناحية اخرى ، وقد سارع السلطان يعقوب (١٤) ـ شقيق زوجة حيدر ميرزا ـ بابلاغ شيروان شاه بخروج السلطان حيدر اليه ، ولم يكتف بهذا بل أرسل جيشا لمساعدة شيروانشاه فى القضاء على السلطان حيدر لتخوفه منه ومن أطاعه فى الملك • وقد انتهت هذه المعركة بقتل السلطان حيدر ـ كما قتل ابوه من قبل ـ فى الحرب ضد شيروا نشاه •

الصراع من أجل العرش

جرت أحداث كثيرة ومتشابكة بعد قتل حيدر ميرزا فى حربه ضد السلطان خليل ملك شيروان (أرمينيا) واضطربت أوضاع هذه المنطقة

---

(١٣) أئمة الشيعة الجعفرية الاثنى عشرية هم : ١ ـ على بن ابى طالب ٢ ـ الحسن ٣ ـ الحسين ٤ ـ على زين العابدين ٥ ـ محمد الباقر ٦ ـ جعفر الصادق ٧ ـ موسى الكاظم ٨ ـ على الرضا ٩ ـ محمد التقى ١٠ ـ على النقى ١١ ـ حسن العسكرى ١٢ ـ محمد المهدى المنتظر •

(١٤) السلطان يعقوب بن حسن اق قويونلو كان متزوجا من شقيقة ملك شيروان الارمنى كما أن السلطان حيدر كان متزوجا من شقيقة السلطان يعقوب •

من ايران اضطرابا شديدا ، وتوالى جلوس الملوك وعزلهم اوقتلهم ·
فبعد السلطان يعقوب جلس ابنه بايسنقر على العرش ، وبعد عامين
اجلس الامراء عمه مسيح ميرزا بن حسن بك ثم قتل مسيح ميرزا ،
وطالب رستم بك بن مقصود بك بالملك وجلس على عرش الاق قيونلو ،
ولكن وزيرهم وقائدهم « ايبه سلطان » خرج عن طاعتهم وقتل ، وتولى
الملك محمد ميرزا والوند ميرزا ابنا يوسف بن حسن بك · كل هذا
فى سنوات قليلة مما يدل على اختلال الامن وانهيار الاستقرار وانتشار
الفوضى فى كل شئون الحياة تقريبا (١٥) ، واضطراب الاوضاع
الاقتصادية واحوال الناس تبعا لذلك ·

كان السلطان يعقوب بك اق قويونلو قد قبض على اولاد السلطان
حيدر وهم على وابراهيم واسماعيل ونفاهم فى قلعة اصطخر فارس
سنة ٨٩٦ هـ حيث ظلوا بها اربع سنوات ونصف الى ان استدعاهم
السلطان رستم بن مقصود بك ليجهزهم مع اتباعهم لحرب بايسنقر بن
يعقوب (ابن خالهم) الذى كان قد التجأ لخاله وصهره شيرواز شاه
بن خليل ملك ارمينيا ، واستعان به ليسترد ملكه فى ايران · فلما حقق
على ميرزا بن حيدر الصفوى النصر للسلطان رستم انقلب علية وعلى
اخوته واراد قتلهم ، ولكنهم فروا من تبريز الى اردبيل ، فارسل فرقه
من جيشه تتعقبهم وقد استطاعت قتل على ميرزا ، وتمكن ابراهيم
واسماعيل من الهرب مع سبعه من قادتهم والمقربين اليهم والتجاوا
الى حاكم جيلان الذى خبأهم عنده بضع سنين (١٦) ·

كانت الجواسيس تبلغ رستم بك بن مقصود بك بوجودهما عند

---

(١٥) سياست واقتصاد ص ١٩ وللتفصيل يرجع لحبيب السير
ج ٤ ص ٤٣٩ ·

(١٦) كان يلقب كاركيا وورد اسمه « اميره كيا » فى كتاب
عالم اراى صفوى ·

حاكم جيلان فكان يرسل فى طلبهما منه ، ولكن حاكم جيلان كان ينكر وجودهما عنده رغم التهديد والوعيد حتى أوشك على تسليمهما خوفا على حياته وعلى ولايته ٠

ولا بأس من أن نذكر هنا هذه القصة الطريفة التى ترويها كتب التاريخ الصفوى عن كرامات هذه الاسرة وخلاصتها أن الامام على بن أبى طالب جاء الى حاكم جيلان فى النوم وقال له « بعد عشرة أيام اطلب مبعوث رستم بك الذى جاءك للبحث عنهما وقل له لقد أرسل السلطان رستم بك كثيرا من رجاله للبحث عن أولاد السلطان حيدر وقد جابوا الولاية قرية قرية وبيتا بيتا ولم يجدوهما ، واذا لم تصدقنى فاننى مستعد للقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » ثم قال الامام على لحاكم جيلان « عليك أن تربط حبلا بين شجرتين كبيرتين تعلق فيه قفة كبيرة (زنبيلا) وتضع فيها الغلامين (ابراهيم واسماعيل) وعندما يحضر المبعوث ضع يدك على المصحف واقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » (١٧) ونعتقد أن الامام على لا يعلم الناس الكذب أو التحايل ٠

وقد ظل اسماعيل ميرزا لدى حاكم جيلان حتى بلغ الثانية عشرة ثم أراد العوده الى أردبيل ولكن الحاكم طلب منه أن يبقى عامين اخرين حتى يبلغ ، فقبل اسماعيل ميرزا هذا العرض ، ولكن فى ذلك الوقت بلغهم نبأ موت رستم بك ففرحوا كثيرا ، وقال اسماعيل ميرزا « الان حان وقت خروجى » (١٨) ٠ وكان اسماعيل الصفوى عندما التجأ الى حاكم جيلان واختبأ عنده فى السابعة من العمر ومع هذا كانوا يلقبونه

---

(١٧) عالم ارای صفوی ص ٤٤ ٠

(١٨) لا ريب أن غلاما فى الثانية عشرة من عمره لم يكن يتحرك من تلقاء نفسه ، ولكن القواد والمريدين هم الذين كانوا يحركونه ويخططون له وقد نجحوا فى تحقيق مآربهم ٠

بالملك والمرشد الكامل (١٩) ٠

الجلوس على العرش :

غادر اسماعيل بن حيدر الصفوى وأخوه ابراهيم ومرافقوهما الذين يقال أنهم كانوا سبعة من كبار المريدين فى ولاية جيلان وتوجهوا الى أردبيل فاجتمع حولهم أثناء الطريق ثلاثة آلاف من قدامى المريدين دخل بهم مدينة أردبيل وحاصر بيت الحاكم ثم أحضره أمامه ووعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهى « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن عليا ولى الله » ولكن الوالى السنى رفض قبول التشيع فأمر باحضار كمية من الاخشاب والحطب من كل منزل فى المدينة حتى تجمع حطب كثير أضرم فيه النار ثم ألقى فيهـا حاكم مدينة أردبيل ٠ وكانت هذه أول نار تبعتها نيران كثيرة أحرق فيها مخالفيه ٠

بعد هذا أمر بجمع أهل المدينة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع، فمن قالها ضمه الى رجاله ، ومن رفضها ألقاه فى النار مع حـاكم أردبيل ٠ وقد خاف كثير من الاهالى من الحـرق فنطقوا بشـهادة التشيع (٢٠) ، ولهذا ضم الى رجاله الكثير من أهل أردبيل حتى بلغ عددهم نحو أربعة عشر الف رجل ترك نصفهم فى المدينة لحمايتهـا وتوجه فى سبعة الاف رجل الى تبريز العاصمة حيث استطاع دخولها والجلوس على عرش أخواله الاق قويونلو ٠

(١٩) عالم آراى عباسى ص ٢٥ ٠

(٢٠) هذا يدل على أن أهل اردبيل التى شهدت بداية عهدهم ودعوتهم كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة الى أن ادخلهم فى التشيع بالسيف والنار ومن الغريب ان بعض قرى اردبيل مازالت سنية حتى الآن ٠

أولى المذابح :

عندما دارت معركة تبريز قتل من جيش الوند ميرزا حتى الظهر نحو عشرة الاف رجل ، وبقى على قيد الحياة عشرون الفا فقال الشاه اسماعيل لرجاله « كل من يقول منهم على ولى الله ، امنوه على حياته ومن يرفضها فاقتلوه . وقد خشى نحو الفين او ثلاثة على أرواحهم وقبلوا الدخول فى المذهب الشيعى كما استطاع نحو ثلاثة آلف جندى اخر الهرب واللحاق بملكهم الوند ميرزا الذى فر من المعركة (٢١) . وقد قتل من تبقى من جيش الوند ميرزا الذين رفضوا التشيع وكان عددهم نحو أربعة عشر الف رجل قتلوا فى الفترة من الظهر حين انتهت المعركة الى غروب شمس ذلك اليوم ، وبلغ مجموع من قتل فى ذلك اليوم الدامى اربعة وعشرون الف مقاتل من رجال الوند ميرزا لرفضهم قول «على ولى الله» اى قبولهم التشيع الذى يفرضه اسماعيل الصفوى بالنار او بالسيف .

دخل اسماعيل بن حيدر الصفوى مدينة تبريز سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، وجلس على عرش جده لامه حسن بك اق قويونلو الذهبى . ومن الطريف أن العثمانيين ارخوا لقيام هذه الدولة الشيعية بحساب الجمل بكلمتين تنطقان باللغة الفارسية هما « مذهب ناحق » ومعناهما « مذهب الباطل » . ذلك أن مذهب الدولة الصفوية فى نظر العثمانيين كان مذهبا باطلا ، وحروف هذه الجملة بحساب الجمل مجموعها ٩٠٦ (٢٢) . وقد رد الصفويون على العثمانيين فقالوا ان الاتراك لجهلهم باللغة العربية قرأوا هذه الجملة التى ارخوا بها لقيام دولتنا قراءة خاطئة اذ أن قراءتها الصحيحة باللغة العربية هو « مذهبنا حق » وليس باللغة الفارسية كما نطقها العثمانيون .

---

(٢١) عالم أراى صفوى ص٢٥ .

(٢٢) م = ٤٠ ذ = ٧٠٠ هـ = ٥ ب = ٢ ن = ٥٠ ا = ١ ح = ٨ ق = ١٠٠

ولكن كيف استطاع هذا الغلام أن يشق طريقه بهذه السرعة والشجاعة ويجلس على عرش ايران ويغير مذهب شعبها السني الى المذهب الشيعي الاثنى عشري ويجعل منها جزيرة شيعية في وسط بحر من اهل السنة ، ويترك اثرا عميقا رهيبا في الوحدة الاسلامية والحياة السياسية في الشرق الاوسط بل وفي العالم كله منذ مطلع القرن العاشر الهجري (الخامس عشر الميلادي) وحتى هذه الأيام التي دارت فيها معارك داميه بين ايران والعراق نتيجة لمحاولة تصدير ما اطلقوا عليه « الثورة الاسلامية في ايران » والتي تعيد للاذهان عصر اسماعيل الصفوي الدموي

قيام الدولة

عرش من الجماجم على انهار من الدماء

تقرر اغلب المصادر ان عدد جنود اسماعيل الصفوي من القزلباشية او لابسي العمائم الحمراء عندما دخل تبريز عاصمة ايران انذاك بسبعة الاف رجل لايحملون الا ابسط الأسلحة التقليدية من سيوف ورماح ونبال . ولهذا لجأ اسماعيل الصفوي الى ما لجأ اليه جنكيز وهولاكو وتيمور واغلب الثائرين في بداية امرهم من قتل بلا رحمه واحراق بلا شفقة وتخريب بلا هوادة .

ففي سنة ٩٠٦ هـ عندما استولى على شيروان واسر ملكها شيروان شاه ، وضع جسده في قدر كبير ووضعه على النار وطهاه ثم اطعمه للكلاب انتقاما منه لمقتل ابيه السلطان حيدر اثناء هجومه على شيروان (٢٣) .

وفي اول معاركة مع السلطان مراد بن رستم اق قويونلو حاكم العراق العجمي وفارس وكرمان وخوزستان ، عمد الى قتل ثمانية

---

(٢٣) زندكاني شاه عباس ص ١٤

الاف من رجالة مرة واحدة (٢٤) لتذاع عنه هذه القسوة وتشتهر هذه الوحشية فيخشاه الناس ويتجنب الجنود لقاءة أو التصدى له ·

وفى معركة بين قائد الوند ميرزا وقائد اسماعيل الصفوى استطاع قائد القزلباشية أن يقتل ألف رجل من قوات الوند ميرزا قبل أن يقتل هو فى المعركة فتولى قيادة الجيش الصفوى قائد اخر انتقم لقتل قائده بقتل خمسة ألاف رجل من جيش الوند ميرزا (٢٥)

اما فى المعركة التى دارت بين الشاه اسماعيل الصفوى والوند ميرزا آق قويونلو شخصيا فقتل فيها من رجال الوند ميرزا ثمانية عشر الفا ، وفر الوند ميرزا من الميدان فاستولى الشاه اسماعيل على كل امواله وسرادقه وجمع رءوس القتلى لمشاهدتهاواستعراضها(٢٦) بعد كل هذه المذابح بين المسلمين ·

فرض المذهب الشيعى :

جرت مراسم فرض المذهب الشيعى فى مدينة تبريز العاصمة ، وتقول كتب التاريخ ان رجال الشاه اسماعيل الصفوى كانوا قد حذروه من خطورة الاقدام على ذلك الامر ، وقالوا له ان ثلثى سكان مدينة تبريز من أهل السنة ، وأن اعلان المذهب الشيعى قد يؤدى الى قيامهم بالثورة ضده مما قد يعرض ملكه للخطر : ولكن اسماعيل الصفوى قال لهم ان الامام على قد كلفه بهذه المهمة · ثم امر القزلباشية بالتواجد فى المسجد الجامع فى يوم الجمعة الذى حدده لاعلان المذهب رسميا · وذهب الشاه اسماعيل وحمل القزلباشية سلاحهم كاملا ، وصعد اسماعيل الصفوى المنبر وهو شاهر سيفه ، وعندما قرأ الخطبة باسم الامام على وائمة الشيعة ، حدثت همهمة بين المصلين ، فاطبق عليهم

---

(٢٤) عالم ارای صفوی ص ٦٠

(٢٥) عالم ارای صفوی ص ٦١ ·

(٢٦) نفس المرجع ص ٦٤ ·

القزلباشية وقال لهم الشاه اسماعيل « تبرأوا (٢٧) والا فان القتل جزاء من يرفض البرؤ » فتبرأوا جميعا من شدة الخوف •

وخرج قائد التبرائيين يسير امام الشاه اسماعيل الصفوى يحمل فى يده تبرأ (٢٨) وهو يردد عبارات التبرؤ وكل من لا يرددها تعده ويلعن الخلفاء الثلاثة يقطع رأسه فورا •

واذا كان هؤلاء المساكين قد تشيعوا حفاظا على أرواحهم فان اسماعيل الصفوى حين خرج من تبريز لمحاربة الوند ميرزا ، عاد الوند ميرزا من طريق اخر غير الذى خرج منه اسماعيل الصفوى ، وانقض على مدينة تبريز التى تشيعت بحد السيف وانتقم من اهلها فقتل منهم نحو سبعة آلاف لتغيير مذهبهم •

ما السبب فى فرض التشيع ؟

قلنا أن القبائل التركية التى أسرها تيمور فى حملته على اسيا الصغرى ثم تركها فى أردبيل للشيخ على سياه بوش بزعم أنهم من مريديه الذين يتميزون بالعمامة الحمراء كانوا هم القوة الدافعة والمحركة للصفويين طوال حكمهم ، وكانت هذه القبائل ناقمة على بنى عمومتهم من الاتراك العثمانيين الذى وصلوا الى حكم آسيا الصغرى ثم الخلافة الاسلامية ، وكانت تشعر أنها خرجت من بلادها كأسرى لتيمور لنك ويحنون بالعودة اليها ولكن حرمة حزب المسلم ضد المسلم وقتل المسلم للمسلم كانت سائدة فى ايران كما فى غيرها من بلاد

---

(٢٧) التبرؤ والتولى أى التبرؤ من خلافة ابى بكر وعمر وعثمان لانهم تولوها بغير حق فى نظر الشيعة ثم الاقرار بولاية على من بن أبى طالب وبقية أئمة الشيعة الاثنى عشر وقد يغالى بعضهم بلعنهم ومعهم السيدة عائشة لموقفها من حرب الجمل •

(٢٨) التبر أو الطبر فأس يستخدم فى قطع الاشجار ويستخدمه الجزارون فى العراق والسودان فى تقطيع اللحوم وفى مصر يسمى بلطة •

المسلمين وتحد من الحماس للقتال خاصة ضد الاتراك فى آسـيا الصغرى · كما أن فكرة الانضمام للخلافة الاسلامية أو الخضوع للخليفة التركى الذى كان يلقب بامير المؤمنين كانت تجد صدى بين الكثيرين · ولهذا فان مجابهة كل هذه المشاعر الدينية كان لا يمكن مقاومتها الا بتغيير المذهب الشائع فى ايران من التسنن الى التشيع والغلو فى المذهب لاثارة العداء بين المذهبين ودفع الناس الى الحرب بوازع الحفاظ على المذهب ·

ولهذا كان لابد للشاه الذى جلس على عرش ايران وفرض المذهب الشيعى بحد السيف أن يكتسب الصفة الدينية الى جانب الصفة الدنيوية ولهذا رضخ لفكرة « ولاية الفقيه » وطلب من على بن عبد العـال الكركى العاملى كبير علماء الشيعة بجبل عامل بلبنان أن يوطد لـه دعائم السياسة والملك ويجيز جلوسه على كرسى الملك والحكم باسـم الولاية العـامة التى هى من صلاحيات الفقيه (٢٩) · وبهذا أصبح الشاه اسماعيل بصفته الدينية يعلو فوق أى سلطة أخرى فى الدولة ·

من ناحية أخرى فان الفقيه أو الامام عند الشيعة له الحـق فى خمس مكاسب ودخل كل فرد شيعى ولك أن تتصور ضخامة المبالغ التى يحصل عليها مجتهدو الشيعة بسبب منصبهم الدينى وهو يزيد عما تحصله الدولة من ضرائب · وكانت خزائن ملوك الصفوية مكدسة بثروات وأموال تتحدث عنها كتب التاريخ · بسبب جمعهم للخمس الى جانب الضرائب الاخرى ·

عودة للقتل والحرق :

بعد أن استقرت أمور العاصمة تبريز وما حولها توجه الشـاه اسماعيل الصفوى الى مازندران سنة ٩٠٩ هـ فتحصن حاكمها حسين

---

(٢٩) الشيعة والتصحيح ص ٧١ ·

كيا فى قلعة « حبله رود » فقطع اسماعيل الصفوى المـاء عنها حتى استسلم كل من كان بها وامر رجاله فاحرقوهم جميعا رجالا ونسـاء واطفالا وكهولا مع بيوتهم وحصونهم ٠ اما ملكهم حسين كيا (٣٠) فسجنه فى قفص من حديد واخذ فى تعذيبه حتى مات ــ او انتحر كما تذكر الروايات المختلفة ــ فاحتفظ بجثته حتى احرقت بعد ذلك كمـا سنرى ٠

وكان الشاه اسماعيل اثناء حصاره لحسين كيا قد تلقى نبأ عن عصيان محمد كره حاكم اقليم يزد ، فتوجه بجيشه الى هناك وحاصر المدينة ثم دخلها القزلباشية بعد شهرين وقبضوا على محمد كـره وحبسوه فى قفص حديدى وقتلوا بقية رجاله ٠

ولمـا كان التركمان الجغتائيون فى طبس (٣١) قد رفضوا قبول المذهب الشيعى ، فقد اتخذ من الرسالة التي ارسلها اليه اميرهم ذريعة لكى يتوجه بجيشه الى هناك (اوائل شعبان سنة ٩١٠ هـ) « وانطفأت شعلة غضبه من كثيرة ما اراقه من الدماء » حيث قتل فى هذه المذبحة سبعة الاف من الترك الجغتائيين ٠ وذاع خبر هذه المذبحـة فى ارجاء خراسان فعمها الذكر والخوف من بطش الشاه اسمـاعيل وقسوته وعنف القزلباشية واعاد للازهان ما فعله المغول على يدى جنيكز وهولاكـو ٠

ومما ترويه المصادر عن الخوف والفزع الذى استولى على اهل السنة فى ايران انذاك قصة العلامة الدوانى امـام ومدرس المذهب الشافعى فى المسجد العتيق فى شيراز ، اذ ما كاد والى شيراز يبلغه بأمر الشاه اسماعيل بضرورة ترك مذهب اهل السنه واعتناق التشيع

---

(٣٠) هو كيا امير حسين جلاوى ــ عالم ارای صفوی ص ٩٨ ٠

(٣١) تقع على حافة الصحراء الكبرى الايرانية وتسكنها للان بقايا من القبائل العربية ٠

من هذه الحادثة ، ولما تولى ابنه السلطان سليم العرش أرسل سفيرا اخر هو القاضى خليل لكى يسألهم عن الدافع لهذا العمل القبيح وبطلب منهم الكف عن لعن الخلفاء الثلاثة ابى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم (٣٣) ٠

وفى رد الشاه اسماعيل الصفوى على رسالة السلطان سليم العثمانى قال له « ان شاء الله سوف نقطع رأسك التعس بقــوة ذراع فاتح خيبر أمير المؤمنين عليه السلام ونرسله الى ملك البرتغال(٣٤)

وبعد هذا ذهب الشاه اسماعيل الصفوى الى كربلاء لزيادة قبر الامام الحسين ومن هناك احرم لزيادة قبر الامام على فى النجف » (٣٥)

استئناف المذابح واراقة الدماء :

بعد ان انهى الشاه اسماعيل الصفوى الاستيلاء على العراق العربى توجه الى لرستان وأرسل الى ملكه رستم رسالة قال لــه فيها انك ان كنت قد رفضت طاعة السنة لانك شيعى بفطرتك ، فاننى اطلب منك ان تاتى الى كى اراك وحتى تبقى فى ملكك الموروث » فاستشار الملك رجاله فقالوا له ان السلطان العثمانى بجيوشه لم يستطع الانتصار علينا فدعنا نذهب ونقطع الطريق على الشــاه اسماعيل ونضربه بسيوفنا ، حتى اذا لم ننتصر فاننا سنجعله لا يفكر فى غزونا ثانية (٣٦) ٠

وحين نشبت الحرب قتل فى أول معركة ثمانية الاف من الاكراد

---

(٣٣) عالم اراى صفوى ص ٤٧٧

(٣٤) عالم اراى صفوى ص ٤٧٣ ٠

(٣٥) يطوف الشيعة حول قبور الائمة وهم يقرأون أدعية خاصة كالطواف حول الكعبة ويحرمون له ٠

(٣٦) عالم اراى صفوى ص ١٣٠ ٠

اللر ، وقتل من القزلباشيه خمسمائة ماتوا تحت الصخور التى القيت عليهم من قمم الجبال ٠

ونشبت معركة ثانية مع الاكراد اللر هزموا فيها ايضا وفر ملكهم ولكن الشاه اسماعيل صفح عنه لانه اقر بتشيعه ٠

وقد حرض الملك رستم الشاه اسماعيل على حرب السلطان فياض بن محسن ملك الحويزة لانه كان من العلى اللهية (٣٧) ، واتباعه يدعون المشعشعة ٠ وحين علم السلطان فياض بهذا الغزو ارسل جيشا من ثلاثين الفا ثم اعقبه بجيش اخر من عرب البادية تعداده عشرون الفا ، وقتل ما لا يحصى من المشعشعة كما قتل السلطان فياض وخضعت الاهواز للصفويين ٠

فتح اصفهان :

بعد هذا توجه الشاه اسماعيل الى اصفهان وحاصرها لمدة ثلاثة اشهر حتى قلت بها المؤن وكان احد أعيان أصفهان واسمه الرئيس حسين من الشيعة فتآمر مع الشاه اسماعيل وفتح له احد ابواب المدينة فدخلها الصفويون واسروا من كان بها من رجال السلطان مراد اق قويونلط وعرضوا عليهم التشيع فمن قبله اخلى سبيله ومن رفضه قتل على الفور ٠ اما السلطان مراد اق قويونلو فقد التجأ الى أحدى قلاع المدينة٠ وتوسطت خالة الشاه اسماعيل ـ وهى فى نفس الوقت عمة السلطان مراد اق قويونلو ـ بين ابن اختها وابن اخيها ٠ فاشترط الشاه اسماعيل ان يعلن السلطان مراد تشيعه ولكن السلطان مراد قال لها كيف العن الخلفاء الثلاثة ؟ هل من اجل ملعقة من دمى العن هؤلاء الصحابة الكبار ؟ وقرر السلطان مراد الهرب من القلعة والتوجه الى شيراز لجمع جيش جديد ٠

(٣٧) العلى اللهيه جماعة يألهون على بن أبى طالب وما زالت لهم بقايا فى العراق وسوريا ولبنان ٠

ومن الطريف أن ننقل ما جاء فى كتاب الشيعة والتصحيح حيث يقول « ان سكان اصفهان كانوا من الخوارج ، وعندما وصلهم أمر الشاه بقبول التشيع أو قطع الرقاب طلبوا منه أن يمهلهم أربعين يوما ليكثروا فيها من سب الامام على ثم يدخلوا بعدها فى المذهب الجديد . فامهلهم الشاه كما ارادوا وهكذا انضمت اصفهان الى المدن الشيعية الاخرى » (٣٨) .

ويقول صاحب كتاب حبيب السير « ذات يوم اشتعل غضب الشاه اسماعيل الصفوى وهو فى اصفهان فأمر أن يجمعوا حطبا كثيرا فى ميدان المدينة ويضرموا فيه النار ، ثم أمر فالقوا فيها محمد كره حاكم يزد واتباعه مع جثه حسين كيا ملك مازندران التى كان يحملها معه، وجماعة أخرى من العصاة ، تم احراقهم فى حضور سفير للسلطان بايزيد العثمانى أعطوه رمادهم للذكرى (٣٩) .

مذابح الحيوانات بعد مذابح البشر :

بعد أن استقرت أمور اصفهان خرج الشاه اسماعيل الصفوى للصيد فى منطقة قريبة منها اسمها « لنجان والنجان » ومعه قواده وحاشيته ، وبلغ عدد الحيوانات التى اصطادوها فى أول يوم ستة وعشرون الف حيوان . وفى اليوم الثانى سبعة وخمسون ألف حيوان عبارة عن خمسة وأربعين الف غزال واثنى عشر ألف حمار وحشى وفى اليوم الثالث قتلوا ستة عشر الف حيوان . وفى المرة الرابعة قتلوا خمسة عشر الف حيوان ثم كفوا عن الصيد فى هذه المنطقة بعد أن افنوا ما كان بها من حيوانات (٤٠) .

---

(٣٨) الشيعة والتصحيح ص ٧١ .
(٣٩) حبيب السير حـ ٤ ص ٣٧٨ وروضة الصفا حـ ٨ ص ١٧ .
(٤٠) حبيب السير حـ٤ ص ٥٢٢ .

ومعارك الطلاب :

كان السلطان سليم العثمانى قبل توليه العرش قد حرض أبناء ذى القدر على استعادة البلاد التى استولى عليها الصفويون منهم فى ديار بكر . فجمعوا جيشا كبيرا وتوجهوا الى قلعة « قرا أحمد » فلما علم الوالى الصفوى خرج لملاقاتهم · وحين اصطف الجيشان أطلق جيش ذى القدر كلابهم على الجيش الصفوى وكانت من نوع أوربى مدرب ، فاطلق الصفويون كلابهم وكانت من أصل محلى من ديار بكر ، ودارت معركة شرسة بين نحو عشرة الاف كلب انتهت بفوز كلاب الصفويين وهروب كلاب القدرية من الميدان (٤١) ·

بعد انتهاء معركة الكلاب دارت معركة البشر واستطاع الصفويون ــ مثل كلابهم ــ الحاق الهزيمة بجيش ذى القدر الذى فر والتجأ الى قلعة « درنا » ·

وعاد ابناء علاء الدولة ذى القدر لحرب الصفويين مرة أخرى ودارت بعض المعارك بين الجانبين كانت اخرها تلك التى قتل فيها محمد بك بن علاء الدولة اخر الابناء السبعة لعلاء الدولة الذين قتلوا جميعا فى حروب ضد الصفويين فى محاولات للابقاء على ملكهم ، وقتل معه نحو أربعة عشر الف جندى واستولى الصفويون على عتادهم ومعسكرهم بما فيه ·

الحرب فى الجبهة الشرقية مع الاوزبك :

كان السلطان حسين ميرزا بايقرا ــ وهو من أحفاد تيمور ــ يتولى ملك خراسان ومرو الشاهجان وخوارزم وطخارستان وزابلستان وقندهار وكابل وبدخشان وكانت علاقته طيبة بالشاه اسماعيل الصفوى الذى كان ينظر للسلطان حسين نظرة احترام لكبر سنه ولانه من سلالة

---

(٤١) اراى صفوى ص ١٤٠ ·

ملوك التيموريين . فلما توفى السلطان حسين حدث نزاع بين ابنائه وخاصة بين بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا وكبك ميرزا واستطاع محمد خان الشيبانى ــ الذى اشتهر بشاهى بك خان ــ والذى ارتقى من درجة الخدم (٤٢) الى مرتبة الامارة أن يستغل هذا الخلاف بين الأخوة ويستولى على ملكهم ــ الذى كان يمتد من اقصى التركستان الى حدود العراق العجمى ــ وبهذا انتقل حكمه من التيموريين الى الازبـــك .

بدأ الخلاف يدب بين محمد خان الشيبانى المشهور بشاهى بك وبين الشاه اسماعيل الصفوى وكان من أسباب هذا الخلاف الرسـالة التى بعث بها الى الشاه اسماعيل وجاء بها « ليكن معلوما للامير اسماعيل أننا ــ بالسعادة والاقبال ــ ننوى زيارة مكة المكرمة . فمر رجالك لكى يصلحوا الجسور المهدمة التى قد تكون فى طريقنا . وانا لا أطمع فى العراق الخراب أو اذربيجان ، ولقد أمرنا أن تقوم حكومتكم باعداد المؤن والولائم فى كل مكان ننزل به . وكلما احسنتم الخدمة تلتم رضنا وسوف نخلع عليكم الخلع الفاخرة ولا يجب عليكم التهاون فى هذا الامر » (٤٣) .

فلما وصلت هذه الرسالة الى الشاه اسماعيل كتب على ظهرها بيتا من الشعر معناه كل شخص ليس عبدا مخلصا للملك ابى تراب(٤٤)

لو أخذ الف مدينة ومكة فلا قيمة له ولا حساب وخلع على الرسول واعـاده (٤٥) .

---

(٤٢) كان خادما للسلطان احمد ميرزا بن السلطان أبى سعيد للاقچوركان والى ما وراء النهر ــ عالم اراى عباس ص ٣٦٠ .
(٤٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤٤) يقصد بالملك ابى تراب الامام على بن أبى طالب .
(٤٥) عالم اراى صفوى ص ٢٩٠ .

موعدنا في مشهد المقدسة :

وقد أخذت الرسائل تتبادل بينهما ، فمحمد خان الشيبانى يتشدد فى طلب اصلاح الطرق والجسور فى طريقة الى مكه واسماعيل الصفوى يلاينه حتى تحين له فرصة لوقف هذه الاهانات حتى أخبره أحد سفرائه أن محمد خان كان قد أرسل جيشا لغزو بلاد الغور من أربعين الفا من الاوزبك ولكن لم ينجح منهم الا أربعة الاف • وعندئذ بعث الشاه اسماعيل برسالة الى شاهى بك قال له فيها « اننى انوى الطواف بالمرقد المنير لحضرة امام الانس والجن (٤٦) ان شاء الله تعالى وموعدنا فى مدينة مشهد المقدسة » •

وفى سنة ٩١٠ هـ أصدر الشاه اسماعيل أوامره بتعبئة الجيش وتوجه الى خراسان فلما اقترب من مدينة مشهد ترك شاهى بك مدينة هراة وذهب الى مرو الشاهجان • وعندما رأى الشاه اسماعيل فيه مرقد الامام على الرضا ترجل عن حصانة وترجل كل جيشه وسار المسافة الباقية الى المدينة ـ وكانت حوالى عشرين كيلو مترا على قدميه • ولما كان الاوزبك قد حملوا معهم كل نفائس المشهد والمسجد من سجاد فاخر وقناديل وثريات ذهبية فقد امر الشاه اسماعيل باعادة فرشهما بأفخر السجاد ، وكلف الصاغة بعمل القناديل والثريات الذهبية أثناء الليل لكى يتمكن من زيارة مشهد الامام على الرضا وهو على حال لائقة بمقامه (٤٧) •

من معجزات الامام :

بعد أن استراح الشاه اسماعيل وجيشه لمدة ثلاثة ايام فى مدينة مشهد إراد أن يواصل سيره فى تعقب الاوزبك فقال له قواده « لقد

---

(٤٦) يقصد بامام الانس والجن والامام على بن موسى الرضا المدفون بجوار الخليفة العباسى هارون الرشيد فى مشهد عاصمة اقليم خراسان وهو الامام الثامن عند الشيعه الجعفرية •

(٤٧) عالم اراى صفوى ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ •

جئنا من اذربيجان مسرعين مما اضعف الخيل وأرهق الجند فلو أسترحت في المدينة بعض الوقت كان أفضل » فقال لهم الشاه اسماعيل « لقد ذكرتم ما رايتم أنه الحق والمصلحة ، ولكنني عبد لسيدي الذي لا أشرب جرعة ماء دون اذنه ، وكل ما فعلته للأن كان باذن منه وأمر وسابرهن لكم على هذا ٠ وما علينا الا أن نكتب رسالة اليه نطلب فيها الاذن لهذه الحرب ، ونضعها فوق مرقد الامام على الرضا ـ عليه السلام ـ ونغلق باب الروضة بالقفل وتتولون انتم حراستها حتى اليوم التالي لتتأكدوا أن أحدا لن يدخلها » ٠

وقد فعلوا ما اقترحه الشاه ٠ وفي الصباح عندما ذهب الشاه ومعه الامراء والقواد وجدوا مكتوبا على ظهر هذه العريضة بالحبر الاخضر « نأذن لكم فاذهبوا فان الفتح والنصر لكم » (٤٨) عندئذ سجد القادة واخذوا في البكاء وقالوا للشاه اسماعيل « لقد تبنا وليس لنا الحق بعد هذا في مناقشة ما يقوله المرشد الكامل أو يأمر به » (٤٩)

حينما علم شاهي بيك بدخول الشاه اسماعيل الصفوي مدينة مشهد ترك حامية في مدينة هراة وتوجه الى مرو انتظارا لوصول الامدادات اليه من بلاد ما وراء النهر ، ولكن الشاه اسماعيل ارسل بعض قواته في اثر شاهي بيك فتصدت لها قوات الأوزبك ولكنها قتلت ولم يتبق منها الا نحو سبعمائة جندي من أصل ثلاثة الاف اوزبكي وفي معركة ثانية قتل نحو ستة الاف وفر الباقون ٠

وارسل الشاه اسماعيل رسالة الى شاهي بك المتحصن في قلعة مرو يقول له فيها « اين ذلك الغرور حين كنت تأمرني باصلاح الجسور في طريقك الى الحج واقامة الولائم في كل مكان تنزل به ؟ ان الملوك

---

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٩١ ٠

(٤٩) المصدر السابق ص ٢٩٣ ٠

لا يتراجعون عن كلامهم لان ذلك عار كبير ، فأخرج من القلعة والا أمرت فتيانى الشجعان أن يهدموا القلعة ويجعلوها اثرا بعد عين (٥٠)٠

ودارت معركة قرب القلعة قتل فيها نحو ستة الاف من الاوزبك وفر الباقون ناحية التركستان ٠

الحرب خدعة :

رأى الشاه اسماعيل أن يستدرج عدوه خارج القلعة بالتظاهر بالانسحاب وفك الحصار وارسل رسالة الى شاهى بك جاء بها « لقد وعدتنا باللقاء فى خراسان ولم تف بوعدك بينما وفيت بوعدى وجئت الى خراسان وقد اضطررت للعودة وعندما تستعد للقتال فنحن حاضرون » ٠

كاس شراب من جمجمة شاهى بك :

حينما شاهد شاهى بك انسحاب الصفوية وفك الحصار عن القلعة أغراه الطمع فى مهاجمة مؤخرة اعدائه للانتقام منهم ، وبهذا وقع فى الفخ الذى نصبوه له ٠

فلم يكد يبتعد عن القلعة حتى احاط به القزلباشية ودارت معركة عنيفة واضطر شاهى بك للفرار ولكن سوء حظه أوقعه فى مستنقع موحل غرق فيه واستطاع أحد القزلباشية اخراج جثته وحملها للشاه اسماعيل الذى أمر بتقطيعها الى قطع صغيرة وأرسل قطعة منها الى كل أمير من الامراء الذين كانوا يحتمون بشاهى بك أو يؤيدونه لتحذيرهم من نفس المصير ٠ اما رأسه فقد أمر بسلخ جلده وحشاه بالقش وأرسله للسلطان بايزيد العثمانى حامى السنة والاتراك الذين ينتمى اليهم شاهى بك ٠ أما طاسة جمجمته فقد أمر بطلائها بالذهب وجعلها قدحا

---

(٥٠) عالم أراى صفوى ص ٢٩٨ ٠

يشرب منه الخمر (٥١) ٠

مذبحة قرشى وقططها وكلابها :

بعد هذه الهزيمة تعهد الأوزبك للصفويين بألا يتجاوز نهر جيحون غربا ، ولكنهم بعد أن استردوا قوتهم رأوا أن يستعيدوا البلاد التى استولى عليها الشاه اسماعيل ، ولهذا عبروا نهر جيحون فاختار الشاه اسماعيل أحد قواده وكان اسمه ٠ نجم الثانى (٥٢) لمواجهة الأوزبك فجمع نجم الثانى جيوش الصفوية فى خراسان وعبر نهر جيحون دون أمر من الشاه اسماعيل ولكن استنادا لما له من منزلة عنده واستولى على قلعة مدينة اسمها قرشى وأمر بالقتل العام فيها فقتلوا أمير الأوزبك واسمه شيخم ميرزا مع خمسة عشرا الف جندى ، وقد رفض نجم الثانى العفو عن بعض الاهالى الجغنائيين تشفع لهم خليفه محمد بابر ميرزا وبهذا بدأت العداوة بينهما ٠ كما أن الأمير محمد يوسف الصدر تشفع لبعض السادات من أهل البيت فلم يقبل شفاعته أيضا ، وقتل عددا كبيرا منهم كانوا يحتمون فى مسجد القلعة ، بل وذهب نجم الثانى بنفسه الى المسجد للاشراف على قتلهم وكانوا نحو خمسة الاف ٠ ولما انتهى من قتلهم أمر بقتل القطط والكلاب فى المدينة ، ثم سوى بيوتها بالارض وبعد هذا قال ـ لقدا استراح قلبى قليلا اذ انتقمت من هؤلاء الأوزبك للمذابح التى ارتكبها جنكيز وتيمور فى ايران » (٥٣) ٠

وقد فات نجم الثانى ان جنكيز وجماعته كانوا غير مسلمين ، اما

---

(٥١) عالم أراى عباس ص ٣٨ ـ وتاريخ هذه الحادثة بحساب الجمل هو « فتح شاه دين بناه » ـ أى فتح الشاه حامى الدين ـ وتعادل بالارقام ٩١٦ ٠

(٥٢) هو الرئيس يار أحمد خوزانى حامل ختم الشاه اسماعيل وقد لقبه بلقب نجم الثانى بعد قتل حامل ختمه نجم زرجر الرشتى تقديرا له واحياء لاسمه ـ عالم اراى صفوى ص ٣٠٥ ٠

(٥٣) عالم اراى صفوى ص ٢٧٢ وعالم اراى عباس ص ٤٠ ٠

هو فقد قتل نحو عشرين الف مسلم منهم نحو خمسة الف قيل انهم كانوا ينتسبون لأهل البيت رغم شفاعة بعض قواده لهم ٠

وذكر مؤلف تاريخ عالم اراى عباس أن ما فعله نجم الثانى كان وبالا عليه ، اذ انه بعد فراغه من مذبحة قلعة قرشى حاصر قلعة اخرى اسمها غجدوان وطال حصاره لها أربعة اشهر جعلت مؤنه تأخذ فى النقصان فلما علم امراء الاوزبك بحالة توجهوا اليه فى جيش مجهز، وفى الثلاثين من رمضان سنة ٩١٨ هـ هاجموا جيش الصفوية وقتلوا قائد مقدمته كما انسحب محمد بابر ميرزا لغضبه من قتل الجغتائيين فى قلعة قرشى وتراخى قادة القزلباشية فى الدفاع عن نجم الثـــانى لقسوته وظلمه حتى قتل فى هذه المعركة وعادواهم الى خراسان (٥٤) ٠

---

(٥٤) عالم اراى عباس ص ٤١ ٠

بداية النهاية

معركة جالدران : (١)

بعد عزل السلطان بايزيد العثمانى وتولى ابنه السلطان سـليم مقاليد الحكم فى استانبول أعلن أخوه أحمد والى اماسية العصيان وقرأ الخطبه لنفسه ، ولكن الوزراء والقواد استدعوه بالحيلة والخديعة الى استانبول حيث قتل ، وارسلوا جيشا لاحضار ابنه مراد الذى طلب المساعدة من الصفويين ٠ ولم يجد مراد امامه الا التوجه الى الشاه اسماعيل الصفوى الذى كان انذاك فى اصفهان ، ولـما علم بمقدمة أمر باستقباله استقبالا حافلا خارج المدينة ٠ وحين وصل الى بـاب حديقة قصر « نقش جهان » استقبله الشاه بنفسه وأجلسه بجواره وقال له « اطمئن فسأنتقم لابيك من عمك السلطان سليم وسأقضى عليه واجعل كل بلاد الروم (الدولة العثمانية) لك » ٠ فشكرة الامير وقال له انه التجأ اليه لحسن اعتقاده فى الصفويين وليشرف رأسه بلبس تاج الائمة الاثنى عشر ، فخلع الشاه اسماعيل التاج من على رأسه وألبسه للامير وقال له « امامنا نحو شهر ونصف الى أن يحل فصل الربيع وانذاك سنتوجه الى تبريز لجمع الجيش ، واذا حضر السلطان سليم وفر علينا الجهد والا فستكون معركتنا على شاطىء اسكودر » (٢) ٠

بعد هذا خرج الشاه اسماعيل للصيد واصطحب معه الامير مراد

---

(١) تكتب بالجيم المثلثة الفارسية والتى تنطق كأنها chch بالانجليزية وهو سهل قرب مدينة خوى قرب تبريز عاصمة أقليم اذربيجان فى غرب ايران ويكتبها الذين يترجمون عن المراجع الاوربية تشالديران أو شالديران بالياء وهو خطأ ويحسن كتابتها تشالدران ٠

(٢) عالم اراى صفوى ص ٤٧٠ ٠

فلما رجعوا لمخيمهم ظهرت أعراض المرض على الامير مراد وتوفى بعد ستة أيام ٠

حين علم السلطان سليم أن ابن اخيه التجأ للشاه اسماعيل الصفوى لاستعدائه عليه أخذ فى الاعداد للحرب وأرسل مبعوثا للشاه اسماعيل يحمل رسالة جاء فيها : « ليكن معلوما للشاه اسماعيل أنك أرسلت عدة مرات الى أبينا المخرف فخدعته واخفته ، فمرة أرسلت له رأس شاهى بك ، ومرة قطعة من علم جنكيز خان ، ولهذا السبب خلعناه ٠ وقد صممت على الانتقام للماضى وكنت أنوى التوجـه اليه فى العام الماضى ولكن ثارت مشكلة أخى الذى التجأ ابنه اليك ٠ وعلى اية حال يجب عليك أن تقيده وتجعل الاغلال فى عنقه وترسله الينا ٠ وعليك ايضا أن تكف يدك عن ديار بكر ، وتخرج اعوانك منها حتى ينتهى ما بيننا وبينك من عداوة وحرب وتحل محلها المودة والصداقة واذا فعلت غير هذا فعليك الاستعداد للحرب (٣٠) ٠

حينما وصل الرسول الى اصفهان وقدم الرسالة للشاه اسماعيل كتب له ردا جاء فيه :

« قرأت رسالتك الركيكة التى ذكرت فيها عدم تعقل أبيك وسـوء تدبيره ، وارسالنا رأس شاهى بك وقطعة من علم جنكيز اليه ٠ ولقد كان أبوك بعيد النظر يعلم أن كل من يخالفنا نسويه بالارض ٠ وطالما أن أهواء الغرور قد سيطرت على عقلك ، فان شاء الله سنقطع رأسك التعس هذا بقوة ذراع فاتح خيبر ــ امير المؤمنين عليه السلام ــ ونرسله الى ملك البرتغال ٠ وقد ذكرت أن ولاية ديار بكر التى ورثناها يجب أن أسلمها لاتباعك ٠ وهذه الولاية لم تكن لابيك اذ أنها كانت من أملاك علاء الدولة ذى القدر أخذها من أولاد حسن أق قوينلو واستولى عليها

---

(٣) عالم اراى صفوى ص ٤٧٢ ٠

رجالى بحد السيف من علاء الدوله الذى كان أجدادك واباؤك يدفعون له الخراج والجزية . وليس لك أن تدعى المطالبة بولاية حسن أق قويونلو .

اما فيما يتعلق بالسلطان مراد فقد التجأ الى بلاط كان ومازال ملجأ لملوك العالم ونزل ضيفا علينا ، ولا يمكن لمضيف أن يخرج ضيفه من بيته . ولما كنت تريد المجىء الينا فقد نلتقى والسلام » (٤) .

حينما نزل السلطان سليم خارج مدينة ارزبخان أرسل رسولا اخر للشاه اسماعيل يقول له « لقد سبق أن أرسلنا لك نخبرك بقدومنا لحربك ، ونحن الان نعسكر فى ارزبخان ، فاذا كنت تفكر فى شىء فافعله ، وان كنت تفكر فى اللهو والراحة فابعث الينا ابن أخى معززا، فان لم يقبل بالحسنى فقيده بالسلاسل والاغلال وارسله الينا . وعليك أيضا أن تكف يدك عن البلاد التى ورثناها حتى تستمر بيننا الصداقة القديمة على حالها ، والا فموعدنا للحرب سيكون فى تبريز . فاختر ما تشاء واخبر رسولنا به وأعده الينا فنحن فى انتظار ردك » (٥) .

وصل السفير الى همدان وسلم الرسالة للشاه اسماعيل . وفى نفس الوقت جاءه نعى الامير مراد أثناء نقله من اصفهان الى همدان، وكذلك جاءه نعى طفل كان لمراد عمره عشر سنوات سقط من على الحصان وتوفى فى ساعته مما أحزن الشاه اسماعيل وجعله يقول « أى ذريعة أعطاها هذا الزمان الغدار للسلطان سليم ؟ .

ثم استدعى السفير وقال له « اذهب وأبلغ دعاءنا للقيصر (السلطان سليم) وقل له ان الزمن لم يمهل ذلك الامير . واعتقد أنك أرسلت أحد جواسيسك فتنكر فى صورة صديق للامير ثم دس له السم ، وكأنك لم تكتف أن تكون يوم القيامة قاتل أبيه ، فهل

---

(٤) عالم اراى صفوى ص ٤٧٣ .
(٥) نفس المرجع ص ٤٧٥ .

كان يجب أن تحمل وزر ابن أخيك أيضا ؟ . على أية حال لقد أحسنت بمجيئك ، وان شاء الله ساجلب على رأسك ما تتحدث به الاجيال بعد ذلك . واذا كنت تريد ديار بكر ، فلم اخذها من أبيك لاننى أخذتها من علاء الدولة ذى القدر بحد السيف وكان قد استولى عليها من حسن شاه التركمانى . ولما كان قد خطر لك ادعاء املاكه فعلى أية حال موعدنا أرضروم . وقد أحسنت بأن أبلغتنا بقدومك » (٦) . ثم قال للسفير « عد فانك ما تكاد تقابل القيصر حتى اكون قد لحقت بك » .

خرج الشاه اسماعيل من همدان متوجها الى تبريز ومعه نحو اثنى عشر ألف مقاتل هم الذين كانوا يلازمونه بصفة دائمة ، وحين وصل الى تبريز أمر فكتبوا الى كل المدن لاستدعاء الجيش واللحاق به . ولكن جاءه الجواسيس وأخبروه أن السلطان سليم وصل الى ارض روم ، ونصحه بعض الامراء بالانتظار حتى يصل بقية الجيش ولكنه ترك تبريز وتوجه الى سهل جالدران (تشالدران) فى أول رجب سنة ٩٢٠ هـ ونزل بجيشه هناك وقال هنا سيكون لقاؤنا مع القيصر ، وكان عدد جنوده قد وصل الى نحو ثمانية عشر الف مقاتل .

فى صباح يوم الاربعاء الثانى من شهر رجب سنة ٩٢٠ هـ اصطف الجيشان ويذكر الايرانيون أن الشاه اسماعيل كان قد طلب من السلطان سليم الا يستخدم المدفعية فى هذه المعركة لان الايرانيين لم يكونوا قد أدخلوا الاسلحة النارية فى جيشهم حتى ذلك الوقت وقد وعدهم السلطان سليم بهذا . فلما دارت المعركة ضغط الصفويون على الاتراك واجبروهم على التقهقر فى بعض المواقع . فطلب الصدر الاعظم من السلطان سليم أن يأمر باطلاق المدفعية فقال له السلطان لقد أقسمت على عدم اطلاقها . فقال الصدر الاعظم » انت اقسمت ولكننى لم أقسم . ثم امر باطلاق المدفعية على جيش الصفويين . ويقولون أنه فى أول

---

(٦) عالم ارى صفوى ص ٤٧٦ .

دفعة من نيران المدفعية التركية قتل عشرون الف عثماني وسبعة الاف قزلباش وذلك لاختلاط الجيشين فى القتال بالسيوف والرماح ·

وقد قتل أغلب قادة القزلباشية فى هذه المعركة ومنهم خان محمد خان استاجلو زوج اخت الشاه اسماعيل ، وسيد محمد كمونه الذى كان قد سهل للشاه اسماعيل دخول بغداد ، وساروبيره استاجلو رئيس الحرس الخاص وغيرهم · ولهذا تفرق جيش القزلباشية ووقع كثير منهم فى الاسر · وظل الشاه اسماعيل يعدو فى ميدان المعركة بفرسه يحاول جمع شتات جيشه واستطاع انقاذ بعضهم من حصار العثمانين ومنهم قائده وشقيق زوجته دورمش خان استاجلو ومعه نحو أربعمائة أو خمسمائة مقاتل وقال له « عد الى تبريز لاننى احاول انقاذ من أتمكن من انقاذهم لان « الحضرات » (٧) لم يجيئوا لمساعدتنا هذه المرة ومن المؤكد اننى لن استطيع أن افعل شيئا » (٨) ·

وكان الاتراك قد اسروا أحد قواد القزلباشية وهو السلطان على ميرزا أفشار وقد ادعى أنه هو الشاه اسماعيل الصفوى وتختلف الروايات فى هذا فتقول بعضها أن الفرسان العثمانيين تعقبوا الشاه اسماعيل وكادوا يقتلونه بحرابهم فصاح فيهم هذا القائد قائلا « اننى انا الشاه اسماعيل وانتم انما تتعقبون احد اتباعى وتظنونه الشاه » فخلوا الشاه اسماعيل وتعقبوا على ميرزا افشار وأسروه ، وبهذه الحيلة انقذ الشاه من الوقوع فى ايدى العثمانيين وافتداه بنفسه ، وبعد ان حملوه للسلطان سليم تبين لهم انه أحد قواده فقتلوه هناك(٩) ·

---

(٧) يقصد بالحضرات الامام على بن أبى طالب اذ كان يدعى أنه يحارب معه فى معاركه مما يدفع القزلباشية للاستبسال فى القتال وكانوا يقولون « حامى أوزى در » وهى بالتركية ومعناها « جاء الحامى » ·

(٨) عالم ارای صفوى ص ٤٩٤ ·

(٩) عالم ارای عباس ص ٤٣ ·

وقد سيطر العثمانيون على المعركة واستطاعوا الوصول الى معسكر الصفوية وحملوا كل ما كان به من سلاح وعتاد ودواب ٠ وهربت زوجة الشاه اسماعيل رهى تاجلوبيجم استاجلو ووضعت قناعا على وجهها واخذت تقاتل كالرجال ، وقد التقى بها الشاه اسماعيل اثناء محاولاته اليائسة لانقاذ بعض جنوده المحاصرين وطلب منهـا أن تعود الى تبريز ، وعندما عاد الى تبريز وسأل عنها لم يستدل عليها أحد اذ أنها كانت قد أصيبت ببعض الجراح وضلت الطريق فى الصحراء الى أن عثروا عليها بعد ثلاثة أيام ٠ وقد عنفها الشـاه اسماعيل وهددها بالقتل ان لم تقسم على عدم الاشتراك فى القتال بعد ذلـك ٠

عـودة اليائس :

حين يئس الشاه اسماعيل من المعركة عاد بمفرده متوجها الى مدينة « « درجزين » فى الطريق الى تبريز ، واثناء سيره على غـير هدى دخل فرسه فى مستنقع موحل وكان كلما حاول الخـروج منـه ازداد غوصا فيه حتى كاد يهلك ٠ وقد مر على مقربة منه خليل خان ذو القـدر والى اقليم فارس فارا من المعركة فناداه الشاه اسـماعيل لينقذه ولكن خليل خان تغافل عنه وانطلق فى طريقه ٠ وبعد فتره رأى الشاه شخصا اخر عرف من ملابسه أنه من القزلباشية فناداه ٠ وحين اقترب تبين أنه سائسه الخاص فطلب منه أن يلقى اليه بوهقه (١٠) الذى تناوله الشاه اسماعيل وربطه فى وسطه ثم سـحبه السـائس بحصانه ، فلما خرج الشاه من الوحل ركب حصان سائسه وانطلق وقد استطاع السائس أن ينقذ فرس الشاه من الوحل ثم لحق بالشاه فى درجزين ، وقد كافأه الشاه على هذا بأن منحه ولاية داراب جرد ٠ أما خليل فان فقد أرسل اليه أمرا بأن يقتل نفسه ففعل

---

(١٠) الوهق حبل فى اخره أنشوطة وهو الذى نشاهده حاليا فى افلام رعاه البقر ويستخدمونه فى الامساك بالخيول أو الابقار واحيانا الافراد وكان يستخدم فى الحروب ايضا ٠

كان خبر هذه الهزيمة قد وصل الى العاصمة تبريز فلما دخلها الشاه اسماعيل اثناء الليل اجتمع عليه من كان قد سبقه اليها من القواد والجنود وكانوا نحو سبعة الاف جندى ٠

دخل السلطان سليم مدينة تبريز عاصمة الصفويين ولكن المدينة كانت شبه خالية من المؤن والاغذية ، ولهذا انتشر بها القحط والغلاء فلما رأى السلطان سليم هذا أمر باخلاء المدينة من الجنود حتى يخفف من وطأة القحط ٠ فلما ابتعد السلطان سليم عن المدينة نحو عشرة كيلو مترات عاد اليها الشاه اسماعيل الصفوى ويقال أنه كان متبقيا بها نحو خمسة وأربعين ألف تركى عثمانى انقض عليهم الاهالى وقطعوا رءوس أغلبهم وحملوها على الرماح وخرجوا يستقبلون بها الشاه اسماعيل الصفوى ٠ كما دارت بعد ذلك بعض المعارك بين الجانبين اثناء انسحاب العثمانين الى بلادهم قتل فيها عشرات الآلاف من الجانبين ٠

عودة الاوزبك :

كانت هزيمة الشاه اسماعيل الصفوى قد ذاعت فى كل انحاء ايران وبلاد ما وراء النهر فتجمع الاوزبك بقيادة عبيد خان وتقدموا الى هراة فاستولوا عليها ثم دخلوا مشهد التى اخلاها القزلباشية وواصلوا تقدمهم الى نيسابور وسبزوار ٠ وظل الاوزبك فى خراسان عامين كان فيهما الشاه اسماعيل الصفوى مشغولا بالمحافظة على المناطق الغربية لبلاده خوفا من العثمانين ٠ ولكن عندما علم بوفاة السلطان سليم وتولى ابن سليمان القانونى السلطة وانصرافه عن ايران جمع جيشه وتوجه من قزوين الى خراسان ليخلصها من أيدى الاوزبك الذين اخلوها له وعادوا الى ما وراء النهر ودخل الصفويون مشهد وهرات دون قتال (١١) ٠

---

(١١) عالم آراى صفوى ص ٥٧٥ ــ ٥٧٧

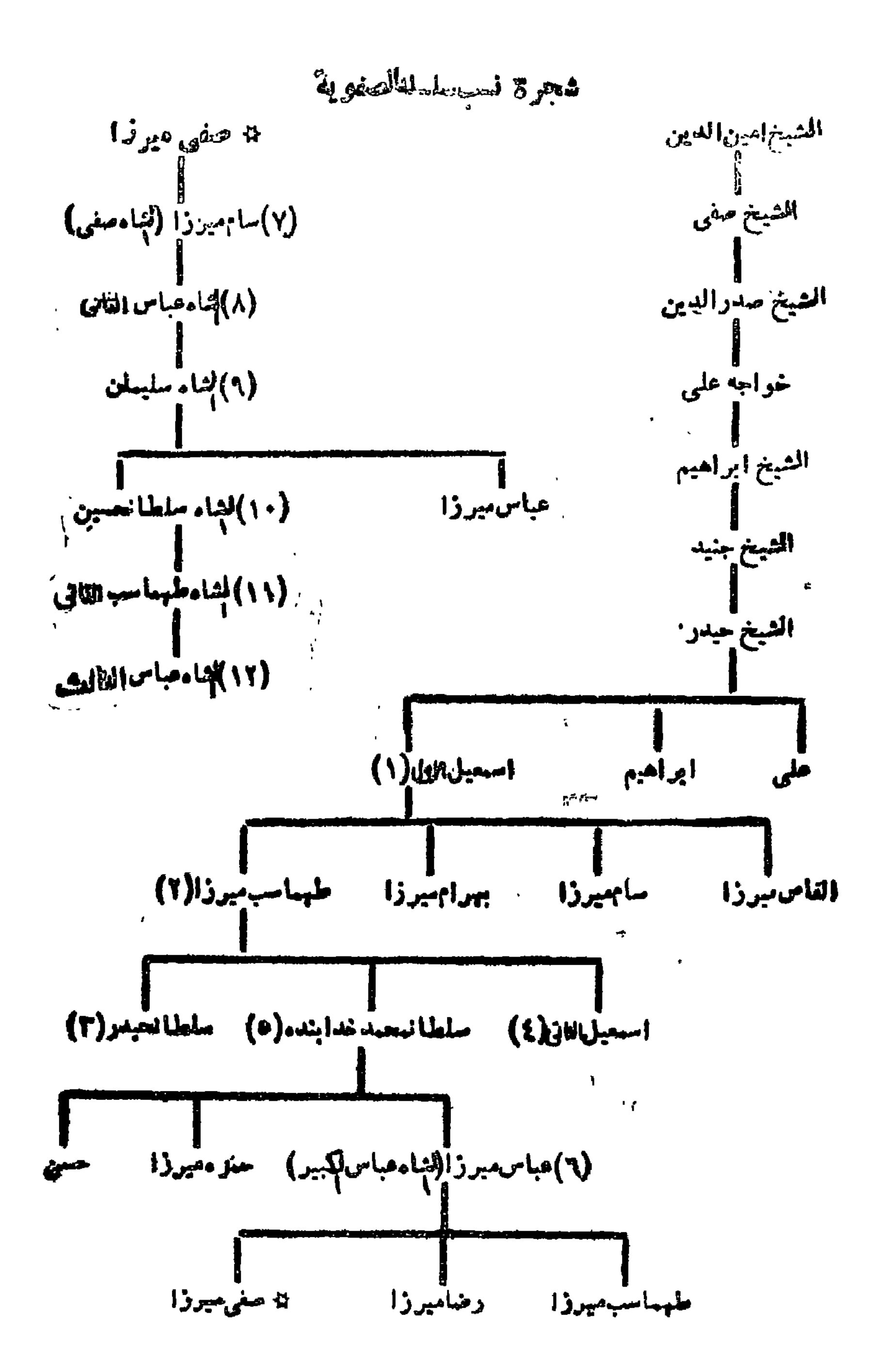
وكان ملوك الكوج قد انتهزوا فرصة انشغال اسماعيل الصفوى وارادوا التقدم لاختلال أردبيل وقزوين العاصمة فارسل لهم الشاة اسماعيل أحد قواده واسمه ديو (١٢) سلطان فخاض عدة حروب ضدهم واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنهم ومنها شيروان وتفليس انهكت كل هذه الحروب وخاصة هزيمة جالدران صحة الشاة اسماعيل الصفوى ويقال هذه أنه اصيب بنوع من الانطوائية والحزن ادت فى النهاية الى اصابته بالسل وتوفى فى عنفوان شبابه سنة ٩٣٠هـ وكان انذاك فى الثامنة والثلاثين من عمره وأرخوا يوم وفاته بحساب الجمل فى اشعار منها هذا البيب الذى ترجمته ٠

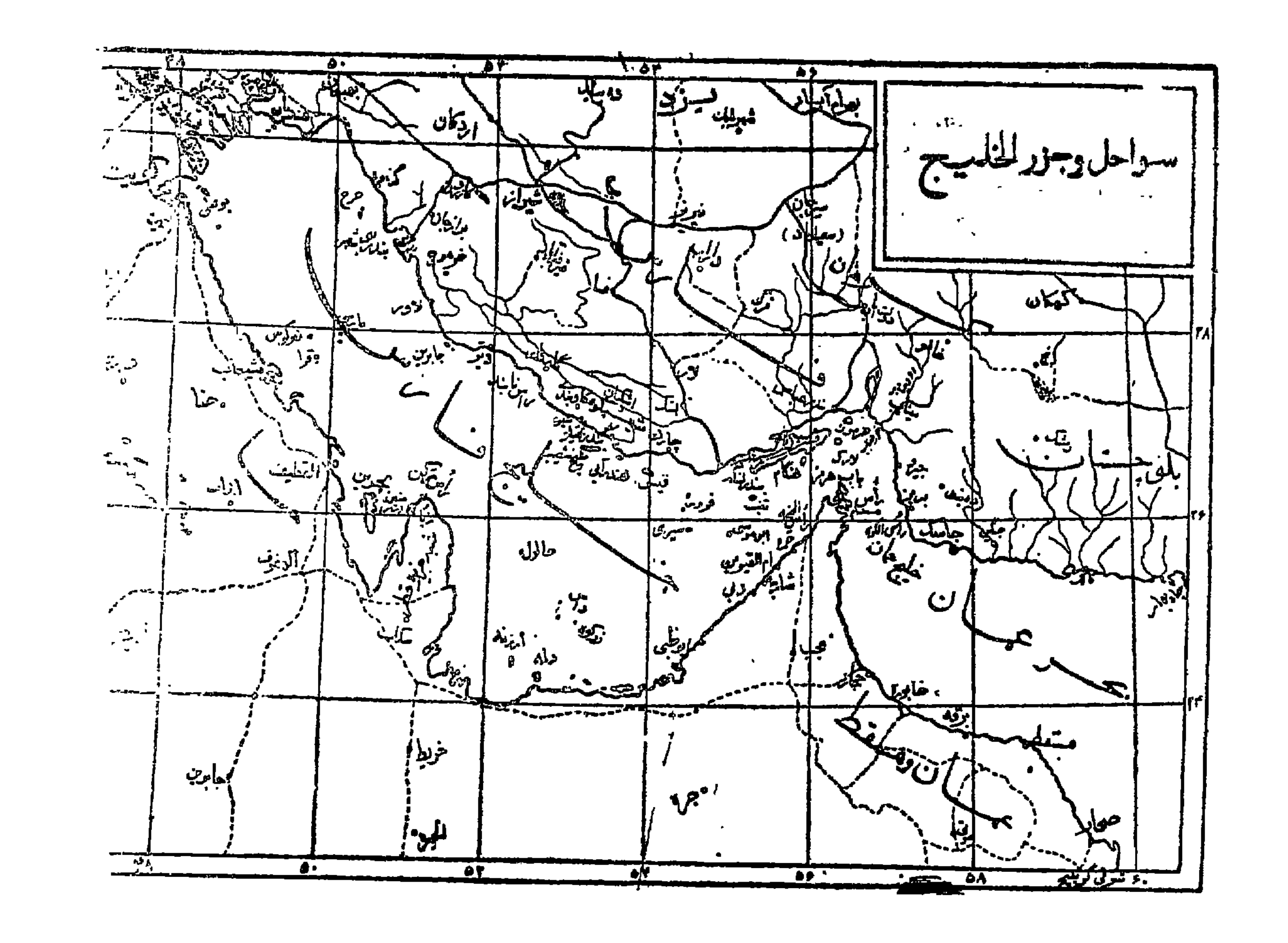
كانوا يصيحون يوم وفاته شاه وشاه وشاه

وقد جعلت هـذه الكلمـات تاريخ وفـاته

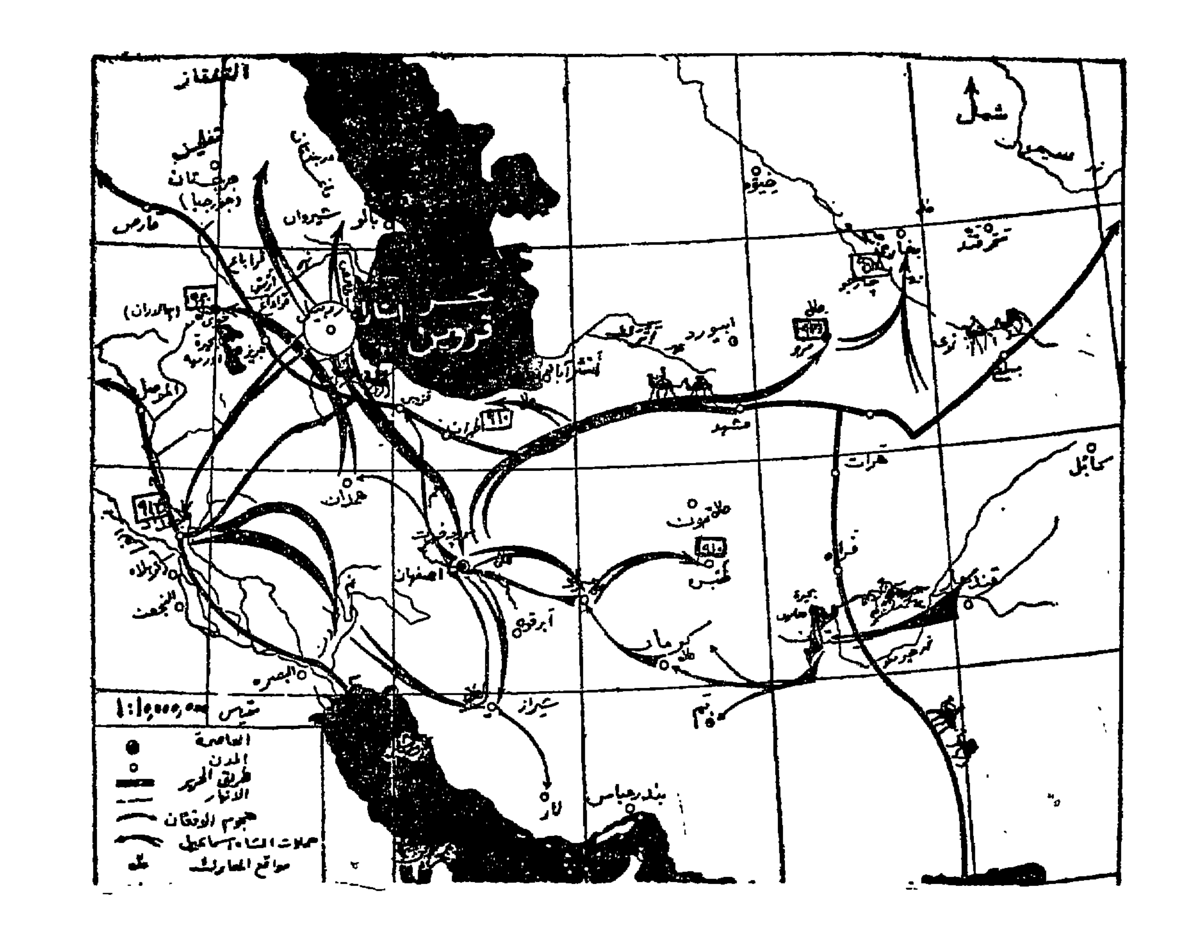
وهكذا انتهت حياة الشاه اسماعيل الصفوى الذى اسس دولته على أساس مذهبى متطرف ومتشدد لكى يستغل الوازع الدينى والعاطفة المذهبية حتى يحارب المسلم أخاه المسلم وقد قتل على يديه مئات الألوف من المسلمين دون ذنب أو جريرة الا عدم دخولهم فى مذهبة وان كانت هذه الدولة قد ادت الى وحدة ايران او قوتها بعض الوقت الا انها ادت الى فرقة المسلمين واحداث صدع فى الاسلام ادى الى انحطاط المسلمين وفناء قوتهم فوقعوا فريسة سهلة للاستعمار الأوربى والروسى مما لازلنا نعانى آثاره حتى اليوم ٠

(١٢) تنطق « ديف » ومعناها الشيطان وهى devil


شجرة نسب سلالة الصفوية
الشيخ امين الدين
الشيخ صفي
الشيخ صدر الدين
خواجه علي
الشيخ ابراهيم
الشيخ جنيد
الشيخ حيدر
علي
ابراهيم
اسمعيل الاول (١)
القاص ميرزا
سام ميرزا
بهرام ميرزا
طهماسب ميرزا (٢)
اسمعيل الثاني (٤)
سلطان محمد خدابنده (٥)
سلطان حيدر (٣)
(٦) عباس ميرزا (الشاه عباس الكبير)
حمزه ميرزا
حسن
طهماسب ميرزا
رضا ميرزا
☆ صفي ميرزا
☆ صفي ميرزا
(٧) سام ميرزا (الشاه صفي)
(٨) الشاه عباس الثاني
(٩) الشاه سليمان
عباس ميرزا
(١٠) الشاه سلطان حسين
(١١) الشاه طهماسب الثاني
(١٢) الشاه عباس الثالث



سواحل وجزر الخليج
يزد
اردكان
كرمان
بلوجستان
خليج عمان
عمان
خريط


القفقاز
شمال
تفليس
باكو
شيروان
بحر قزوين
تبريز
الموصل
همدان
اصفهان
النجف
البصرة
شيراز
لار
بندرعباس
أبرقو
كرمان
طبس
مشهد
ابيورد
مرو
بخارى
سمرقند
خيوه
سيحون
بلخ
هراة
فراه
قندهار
كابل
العاصمة
المدن
طريق الحرير
الأنهار
حملات الشاه إسماعيل
مواقع المعارك

علاقات ايران مع البرتغال واسبانيا

تبتدىء علاقة ايران مع حكومة البرتغال فى العصر الصفوى منذ عهد الشاه اسماعيل الاول فبعد أن أطاح السلطان العثمانى محمد الفاتح فى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م) بامبراطورية الروم الشرقية وسقط ميناء القسطنطينية فى أيدى الاتراك ، أغلق طريق التجارة بين أوربا وآسيا بسبب استيلاء الاتراك وسيطرتهم على شرق البحر الابيض وآسيا الصغرى والشام ولهذا اضطر التجار البندقيون والبرتغاليون الذين كان لهذ اهتمام شديد ببضائع الدول الاسيوية وخاصة الهند ، للبحث عن طريق آخر يوصلهم الى تلك البلاد ·

وقد اتجه تجار البندقية الى طريق الاسكندرية والبحر الاحمر، ولكن طمع المماليك فى مصر وسوء معاملتهم ، الى جانب مشاكل أخرى منع استمرارهم فى استخدام هذا الطريق · وفى هذه الاثناء اتجه بعض التجار والبحارة البرتغاليين لاكتشاف طريق الهند عبر جنوب افريقيا ، واستطاع اولهم واسمه بارثلمى ديان (١) ، الالتفاف حول طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧م) ودخل المحيط الهندى ، ولكنه لم يستطع الوصول الى الهند فعاد ثانية الى البرتغال· وبعد اثنى عشر عاما أى فى ٩٠٤ هـ (٩٨ ـ ١٤٩٩م) استطاع القائد البحرى البرتغالى فاسكودى جاما الوصول الى الهند عن نفس الطريق والعودة فى العام التالى الى البرتغال ·

وقد أدت رحلة دى جاما الى انشاء مستعمرات برتغالية فى

---

(١) Barthelemy Diay .

الهند وأغلب مناطق آسيا ، والى زيادة مكانتها الدولية حتى أن ملوك البرتغال اخذوا يطلقون على انفسهم انذاك لقب « سادة الملاحة والغزو والتجارة مع الهند والحبشة والبلادر العربية ويران » وعاد فاسكو دى جاما الى الهند مرة ثانية سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢م) ووسع منطقة استعمار البرتغال على السواحل الغربية للهند ٠

قبل أن يصل البرتغاليون الى المحيط الهندى وبحار جنوب اسيا كانت تجارة هذه المناطق فى أيدى العرب المصريين والعمانيين واليمنيين، ولكن حينما وصل البرتغاليون الى الهند جعلوا تجارة الشرق قاصرة عليهم وحدهم وكفوا أيدى العرب عن المحيط الهندى وبحر عمان والخليج (الفارسى) ٠ وفى سنة ١٥٠٥م عين شخص اسمه فرانشيسكو دى الميدا (٢) نائبا لملك البرتغال فى الهند بعد فاسكو دى جاما ، وقد بقى فى منصبه حتى سنة ١٥٠٩م وفى هذه الفترة استطاع أن يثبت اقدام دولته ونفوذها فى الهند وذلك نتيجة للحروب البحرية التى خاضها ضد المصريين والسودانيين وضد الحكام المحليين الهنود وشرع فى تأسيس شركة تجارية على السواحل الغربية للهند ٠

وفى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦م) ارسلت حكومة البرتغال أحد بحارتها واسمه « تريستان داكونيا » (٣) مع ١٦ سفينة و ١٣٠٠ مقاتل ، كما ارسلت معه أحد بحارتها المشهورين واسمه « الفونسو دى البوكيرك (٤) » ليعاونه ٠ وبعد مدة من التخبط والضياع استطاعت هذه السفن أن تصل الى موزمبيق ، ولكن بسبب الاختلافات التى وقعت بين القائدين على خط سير الرحلة واتجاهها وهدفها ، ترك دا كونيا جزءا كبيرا من السفن الى البوكيرك وجعله قائدا للبحارة وأصدر

---

(٢) Francisco de Olmeda
(٣) Tristan de Cunha
(٤) aerhonso de Olbuquerque

اليه أمرا باسم ملك البرتغال كى يستولى على ميناء عدن وسواحل البحر الاحمر ويغلق طريق التجارة فى وجه المسلمين عن هذا الطريق كما كان البوكيرك يحمل أمرا سريا بان يعزل فرانشيسكو دى الميدا بعد ٣ سنوات ويصبح هو نائب الملك وحاكم الهند من بعده ٠

ولكن عندما وجد البوكيرك أن قواته غير كافية للاستيلاء على عدن قرر أن يستولى على جزيرة هرمز الواقعة على مدخل الخليج العربى وبهذا يضع يده على كل طرق التجارة بالخليج ٠

كانت جزيرة هرمز حتى حوالى القرن الثامن الهجرى تسمى «جرون » وكان يوجد ميناء اسمه « هرموز (٥) » على مقربة من ميناء ميناب الحالى على ساحل البحر عند (مضيق هرموز) وكان يعد الميناء التجارى لمناطق كرمان وسيستان ولم تكن به أهمية كبيرة فى التجارة العامة آنذاك ٠

وذكر الرحالة والجغرافيون المسلمون مثل المقدسى والشريف الادريسى والاصطخرى أن مدينة هرموز القديمة من آثار أردشير بابكان، وعدوها مركزا لتجارة كرمان ومعاملاتها وقالوا انه الى جانب الغلال والارز والعنب والنيلة التى كانت تمثل المحاصيل الرئيسية لكرمان والتى تصدر من هذا الميناء فقد كانت تصدر منه أيضا الخيول الكريمة الى الهند ٠

---

(٥) جاء اسم هذا الميناء فى كل الكتب القديمة هرموز أو هرموج بالواو ويبدو أن المقطع الاول من هذه الكلمه هو هور أو خور ، التى تعنى ميناء أو مرسى فى أكثر اسماء سواحل بحر عمان والخليج مثل خور موسى وخور فكان وخور ببيان وغيره ،

كما أنها قد تعنى الخليج أو المستنقع مستعمله بكثره فى العراق بهذا المعنى أما كلمة موز فهى تحريف أو لهجة فى كلمة موج وعلى هذا فالاسم يعنى ميناء الموج ويلاحظ أن اسم موزه اسم شائع للبنات فى الخليج وهو يعنى موجه تأثرا بالبحر ٠

وكتب ماركو بولو التاجر البندقى فى رحلته وصفا لهرموز وأحوالها الاجتماعية والتجارية ، ومدح الخيول الايرانية الممتازة التى كانت تصدر من ميناء هرموز الى الهند كما وصفها الجغرافيون الاسلاميون أيضا ٠

ومنذ أواخر القرن الخامس الهجرى كان يحكم ميناء هرموز سلسلة من الامراء العرب ليس لدينا علم كامل عن مؤسسهم أو أول من حكم منهم ، وكل ما نعلمه أن الأمير الثانى عشر لهذه السلسلة وهو ركن الدين محمود وصل الى الامارة سنة ٦٤٤هـ ٠ وكان أمراء هرموز يتبعون أتابكة فارس ثم القراختائيين فى كرمان ويدفعون لهم الخراج وبعد ذلك أطاعوا حكام المغول فى فارس والشيخ أبا اسحق اينجو وآل مظفر (٦) ٠ وفى سنة ٧٩٩ قبلوا الدخول فى طاعة الامير تيمور لنك ومع أنهم كانوا مستقلين فى الظاهر ويحكمون جـــزر البحرين وبلاد عمان الا أنهم كانوا دائما يدفعون الخراج لامراء فارس وكرمان ٠

وفى نحو عام ٧٠١هـ انتقل الامير بهاء الدين ابن الامين الخامس عشر لهرموز من ذلك الميناء الى جزيرة جرون مع جميع الاهـــالى وذلك بسبب هجوم المغول الجقتائيين (٦٩٩ ـ ٧٠٠ هـ) وغيروا اسم تلك الجزيرة الى هرمز ذكرى لوطنهم القديم وأسسوا هناك مدينة جديدة ٠

وقد كتب الرحالة المسلمون والاوربيون كثيرا عن مدينة هرمز الجديدة ومن بينهم أحد الرحالة الاوربيين واسمه « فرير أوردوريك (٧)

---

(٦) آل مظفر حكموا شيراز وجنوب ايران ٧١٨ ـ ٧٩٥ هـ ، وأبو اسحق اينجو حكم شيراز فى منتصف القرن الثامن وينتسب الى ابى عبد الله الانصارى (المترجم) ٠

(٧) Frayer Odoric

وقد عاش فى النصف الاول من القرن الثامن الهجرى وزار هذه المدينة يقول « لمدينة هرمز سور وقلعة حصينة والجزيرة التى تقع فيها هذه المدينة تبعد خمسة أميال عن ساحل ايران ويوجد فى هذه الجزيرة بضائع قيمة مختلفة » ٠

وجاء بعده ابن بطوطة الرحالة المعروف الذى زار المدينتين القديمة والجديدة فى أواسط القرن الثامن فقال « وهرمز مدينة على ساحل البحر ، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ، وهرمز الجديدة جزيرة مدينتها تسمى جرون وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهى مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وبهذه المدينة سكنى السلطان، وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ، والماء فى هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر » (٨) ٠

ووصف الرحالة الاوربيون الذين زاروا جزيرة هرمز فى القرن العاشر الهجرى هذه الجزيرة بالجمال ورواج التجارة وكتب أحدهم يقول « أحيانا كان يجتمع فى مرساها اكثر من ثلثمائة سفينة من الدول المختلفة ، ويقيم فى هذه المدينة أربعمائة تاجر بصفة دائمة واكثر تجارة هرمز هى اللؤلؤ والحرير والاحجار الكريمة والتوابل (٩) » ٠

وكتب آخر يقول « جزيرة هرمز اكثر جفافا من كل جزن العالم ولا يوجد فى أرضها غير الملح ويأتون باغذية اهلها وما يحتاجونه من ايران ويشاهد فى هذه المدينة تجار كثيرون من مختلف الامم يعملون فى تجارة التوابل والاقمشة الحريرية والسجاه الايرانى

---

(٨) مهذب رحله ابن بطوطه ص ٢١٥ ٠

(٩) رحلة لودفيج وارتمان Ludovig Wartheman
الذى زار الجزيره عام ٩٠٩ أى قبل حمله البرتغاليين ٠

ويحضرون الى جزيرة هرمز لالىء كثيرة من البحرين ، وترسل الخيول الايرانية الاصلية المصدرة الى الهند الى هذه الجزيرة أولا (٢٠) » ٠

وقد اشتهرت جزيرة هرمز فى ذلك الوقت فى أوربا بالجمال والثروة والعظمة حتى مدحها لويز فان دى كاموئنز (١١) الشاعر الوطنى البرتغالى المشهور فى منظومته لوسياد فقال « ايران هذه الدولة العظيمة ذات المفاخر ورجالها الابطال الشجعان الذين يتباهون بقوة سواعدهم الحديدية الضاربة بالسيف وكذلك جزيرة جرون أعجوبة العصر التى أصبحت فى الشهرة والجاه مكان المدينة القديمة لاتبعدهما عن ذكراك » ٠

وكانوا يقولون فى الشرق على سبيل المثل « اذا كانت الدنيا خاتما فان هرمز هى فصه » وظلت مدينة هرمز الجديدة نحو مائتى عام ذات أهمية واعتبار وقوة وحينما استقر أمراء هرموز القديمة فى جزيرة جرون أخذوا يبسطون نفوذهم شيئا فشيئا على جزر كيش (قيس) والبحرين وحدود البصره (١٢) ٠

---

(١٠) رالف فيتش Ralph Fitch الرحالة والتاجر الانجليزى الذى جاء الى جزيرة هرمز حوالى ٩٨٦ هـ (يرجع الى كتاب الخليج الفارسى تأليف سير ارنولد ويلسن طبع ١٩٢٨) ٠

(١١) لويز فان دى كاموئنز Luiz Van de Camoens من شعراء البرتغال المشهورين ويعدونه مثل هوميروس اليونانى وفرجيل الرومانى ولد ١٥٢٥ م (٩٣١هـ) وتوفى ١٥٨٠ (٩٨٨ هـ) وعاش حياته فى الهند والصين ومنظومته لوسياد Lusiades من أشهر الاعمال الادبية الاوربية ٠

(١٢) كتب الامير الحادى والعشرون لجزيرة هرمز والمدعو نورانشاه بن قطب الدين تهمتن كتابا فى تاريخ ايران وتاريخ امراء هرمز وحكومته وأسرته بالنثر والشعر الفارسى ويظهر أنه كان يسمى « شاهنامه » وقد نقل أحد الرحالة البرتغاليين وهو بدرو تكسييرا Pedro Texreira والمولود ١٥٧٠ م (٩٧٧ هـ) مختصرا من هذا

=

حملة الفونسو دى البوكيرك على جزيرة هرمز :

سبق أن ذكرنا أن الفونسو دى البوكيرك توجه الى الخليج فى عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧م) مع ست سفن للاستيلاء على هرمز ، فاستولى فى طريقه على مدينة مسقط على الساحل العمانى والتى كانت مدينة كبيرة كثيرة السكان وتدفع الخراج لامير هرمز ، كما استولى على بعض موانى عمان واشعل فيها النار ثم ألقى مراسيه فى مواجهة مدينة هرمز الجديدة ، وحينما رأى مرافقوا البوكيرك عظمة مدينة هرمز وسفنها الحربية وجيشها المجهز الذى استعد على الساحل شعروا بالخوف وترددوا فيما هم مقدمون عليه ٠

فى ذلك الوقت كان امير هرمز غلاما عمره ١٢ عاما اسمه سيف الدين ، وكان أحد رجاله يسمى العطار وكان قديرا شجاعا يتولى حكم الجزيرة كنائب للأمير ، وحينما علم هذا الرجل بحمله البوكيرك جمع على الساحل أربعمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة مع الفين وخمسمائة مقاتل كما استأجر من الدول المجاورة مثل ايران والجزيرة العربية كثيرا من الرجال المحاربين وجهز جيشا من ٣٠ الف رجل مسلح كان من بينهم أربعة آلاف نابل ماهر (١٣) ٠

ابتداء البوكيرك فطالب من امير هرمز ان يخضع لملك البرتغال ويدفع له الخراج ، فلم يقبل العطار طلبه ومع كثرة جند العطار وقله

=

الكتاب فى وصف رحلته الذى طبع سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) فى مدينة انفرس البلجيكية وترجم وطبع فى باريس سنة ١٦٨١ م ولكن هذا الموجز لا يفيد كثيرا فى تاريخ هرمز ولكن يعلم منه ان الامير الثانى عشر لهرمز كان يسمى ركن الدين محمود وحكم لمدة ٣٥ عاما ، ويبدو أن امارته كانت معاصره لرحلة ماركوبولو حوالى عام ١٢٩٢م (٦٩١ هـ) وزار تكسبيرا هرمز مرتين الاولى من ١٥٩٣ الى ١٥٩٧ والثانية عام ١٦٠٣ م ٠

(١٣) نابل أى الذى يستعمل النبال والسهام ٠

قوات البوكيرك الا انه أصدر امرا بالقتال وقد انتصر فى حربه وذلك بسبب استخدامه للمدافع والبنادق والأسلحة النارية ، وبهذا أصبح أمير هرمز تابعا لحكومة البرتغال ، وأخذ منه خمسة آلاف أشرفى ـ وهو العملة المستعملة فى الخليج آنذاك ـ كغرامة حربية . كما تقرر أن يدفع كل عام مبلغ ١٥ الف أشرفى كخراج لحكومة البرتغال ، وعقد مع أمير هرمز اتفاقية بألا يأخذ عن البضائع والتجارة البرتغالية اية جمارك أكثر من مبلغ معين كما تف تجارة هرمز من دفع الجمارك فى البرتغال ، ومنع أية سفينة محلية من الاشتغال بالتجارة فى الخليج دون تصريح من المسئولين البرتغالين كما تقرر أن يقيم قلاعا فى الجزر القريبة مثل قشم (طويلة) ونابند وغيرها كما اختير موقع قلعة موررونا فى جزيرة هرمز حيث أقيمت هذه القلعة الحصينة فى اكتوبر ١٥٠٧م (جمادى الثانى ٩١٣هـ) ، كما أسست شركة تجارية كبيرة فى مدينة هرمز وأرسل اليها مقدار كبير من البضائع وأمر البوكيرك بخفض الأسعار تفيضا كبيرا استمالة لأهل الجزيرة .

بعد فترة وجيزة من هذه الأحداث طالب الشاه اسماعيل الأول ملك ايران بالخراج السنوى المعتاد من أمير هرمز ، فاضطر الأمير للاستعانة بالبوكيرك الذى أرسل الى شاه ايران يقول « لقد استولينا على هرمز بقوتنا وقدرتنا وهى مملوكة لجلالة دون ايمانويل ملك البرتغال (١٤) وليس لأمير هرمز حق دفع الخراج لملك غيره والا فاننى سأخلعه من امارة الجزيرة ونجلس مكانه شخصا لايخشى ملك ايران » ـ ثم أعطى لمبعوث أمير هرمز بعض طلقات المدافع والبنادق والبارود وقال له « قل لأميرك أن يرسلها الى الشاه اسماعيل بدل الخراج لأن ملك البرتغال أمرنا الا نجيب الأعداء الا بمثل هذه الاشياء ، وبعد

---

(١٤) Dom Manoel (Don Emwanuel) المعروف بالسعيد والذى ملك من ١٤٩٥ الى ١٥٢١م (٩٠١ ـ ٩٢٨هـ) .

أن أنتهى من قلعة هرمز فسوف أهجم على سواحل الخليج الفارسية ونستولى على كل موانيها وبلدانها الساحلية التى تخضع الآن للشاه اسماعيل ونضمها لاسم ملك البرتغال (١٥) ٠

وفى عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) أضطر البوكيرك لترك جزيرة هرمز وذلك بسبب الخلافات الشديدة التى ظهرت بين الملاحين وكبار ضباط البحرية البرتغاليين وعاد الى الهند وانصرف عن متابعة فتوحاته فى الخليج ٠ وحينما عزل الميدا فى عام ٩١٥هـ (١٥٠٩م) من منصب نائب الملك فى الهند جلس البركيرك مكانه ٠

ولقد اضطر ألبوكيرك لعدم مغادرة الهند لمدة ٣ سنوات وذلك بسبب الضطرابات التى حدثت فى جوا مركز المستعمرات البرتغالية فى الهند ٠ وفى عام ٩١٨هـ توجه للاستيلاء على ميناء عدن ومدينة مكة ولكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه واكتفى بالحصول على الخراج من جزيرة هرمز ٠

وفى العام التالى وصل أمر من ملك البرتغال لكى يقوم بالاستيلاء على عدن وباب المندب ويفتح البحر الاحمر فى وجه السفن البرتغالية وقد ذهب البوكيرك هذه المرة فى عشرين سفينة كبيرة وألفين وخمسمائة من الهنود الى ميناء عدن ولكنه لم يتمكن من تحقيق شىء وعاد يائسا للهنـــد ٠

بعد عودة البوكيرك الى الهند جاءه سفير من قبل الشاه اسماعيل الأول الصفوى وعقد معه معاهدة صداقة (١٦) ٠ وفى نفس العام

---

(١٥) مذكرات الفونسو دى البوكيرك ، نقلا عن كتاب الخليج الفارسى بالانجليزية تأليف السير ارنولد ويلسون ٠

(١٦) لايوجد فى المرجع الاوربية اسم لهذا السفير ولا تفصيلات عن هذه المعاهدة كما أن المصادر الايرانية ليس فيها اشارات الى مثل هذه المعاهدة ٠

أرسل البوكيرك ابن اخيه مع بعض السفن لاخضاع عرب عدن الذين كانوا قد اعتدوا على المستعمرات البرتغالية ، وبعد أن استولى هذا القائد على بعض سفن العرب التجارية ذهب فى ربيع الاول سنة ٩١٩هـ (١٥١٢م) الى جزيرة هرمز لتحصيل خراجها ولكن توران شاه أمير الجزيرة امتنع عن دفع الخراج له لانه كان قد دخل فى حماية الشاه اسماعيل الأول فاضطر للعودة للهند ٠

بعد عودة هذه الحملة صمم الفونسو دى البوكيرك على الذهاب بنفسه الى جزيرة هرمز لتثبيت دعائم السيطرة البرتغالية عليها ، ولهذا اتجه فى شهر محرم سنة ٩٢١هـ (فبراير ١٥١٥م) مع ٢٦ سفينة و٢٢٠٠ جندى الى الخليج « وفى الطريق بلغه انه حدث انقلاب فى الجزيرة وأن الوالى الايرانى على مسقط واسمه الرئيس احمد قد استولى على الجزيرة وسجن أمير هرمز ، ولهذا أسرع فى الوصول الى الجزيرة وأخذ فى اطلاق النار على المدينة فاضطر الرئيس احمد من الخوف الى اطلاق سراح توران شاه أمير هرمز وتصالح مع قائد الاسطول البرتغالى ، واستطاع الجنود البرتغاليون الاستيلاء على قلعة المدينة بسهولة ورفعوا العلم البرتغالى فوق قصر أمير هرمز ٠

بعد هذه الأحداث بفترة قصيرة جاء سفير آخر من قبل الشاه اسماعيل الأول الصفوى الى البوكيرك ، وعقدت اتفاقية بين الدولتين بالشروط التالية :

١ – تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الايرانية فى اخماد الانقلابات التى تحدث على سواحل بلوشستان ومكران ٠

٢ – تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الايرانية فى غزوها للبحرين والقطيف ٠

٣ – تتحد الحكومتان الايرانية والبرتغالية فى حربهما ضد الأتراك العثمانيين بالاضافة الى هذا فقد تغاضى الشاه اسماعيل

الصفوى عن جزيرة هرمز ووافق على أن يكون أمير هرمز بعد ذلك تابعا لملك البرتغال ويدفع له الخراج ولا تتدخل ايران فى أمـــور تلك الجزيرة ٠

فى هذا العام اختار البوكيرك ابن أخيه برف لقيادة القوات البرتغالية فى هرمز وعاد هو الى الهند وبعد وصوله الى ميناء جوا توفى فى ١٥ ديسمبر ١٥١٥م (ذى القعدة ٩٢١هـ) ٠

أحوال جزيرة هرمز من وفاة **البوكيرك حتى عصر** الشاه الصفوى عباس الأول ٠

منذ وفاة الفونسو دى البوكيرك وحتى عصر الشاه عباس الاول اى الى أواخر القرن العاشر الهجرى كان لحكومة البرتغال نفوذ قوى فى الخليج ، وكانت سفنهم تحتكر التجارة مع اكثر موانى جنوب ايران وسواحل الجزيرة العربية حتى البصرة عن طريق هرمز التى كانت مركزا لتجارتهم فى أنحاء الخليج ٠ وكان نفوذهم يزداد يوما بعد يوم فى هذه الفترة على سواحل ايران ولكن مراكز التجارة فى بحر عمان والخليج مثل مسقط وهرمز والبحرين كانت تتلاشى وتضمحل نتيجة لظلمهم وطمعهم ٠

بعد وفاة البوكيرك تولى نيابة الملك رجل اسمه لوبو سواريز (١٧) وفى أثناء فترة حكمه استولى مساعدوه على جمرك جزيرة هرمز بأمر من « دى مانول » ملك البرتغال (٩٢٩هـ ــ ١٥٢٢م) ٠ وقد حدثت اضطرابات شديدة بسبب ظلمهم فى جزيرة هرمز والبحرين وسواحل مسقط وبعض مناطق الخليج الاخرى قتل فيها بعض حراس القلاع البرتغاليين ــ وفى وسط هذه الاحداث تجرأ أمير هرمز وحاصر القلعة البرتغالية فى الجزيرة ولكن وصلت الى حراس القلعة مساعدات من

---

(١٧) Lopo Soarez

سقط ولهذا أضرم الامير النار فى المدينة لخوفه من الانتقام وهرب الى جزيرة قشم حيث قتل هناك وتولى ابنه الامير محمد شاه الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره الامر من بعده ٠

بعد ذلك عقد نائب الملك الجديد فى الهند وكان اسمه « دوم دورات دى منزيس » معاهدة مع الامير الجديد على شاطىء نهر ميناب واعترف أمير هرمز مرة أخرى بسيطرة ملك البرتغال على هذه الجزيرة وباقى ممتلكاته (رمضان ٩٢٩ هـ ـ يوليو ١٥٢٣ م) ٠

كانت هذه الاحداث مقارنة لوفاة الشاه اسماعيل الاول الصفوى وتولية ابنه طهماسب (*) الاول ، ولم تتخذ فى عهد هذا الملك (طهماسب) أية اجراءات من قبل ايران للاستيلاء على جزر هرمز وقشم والقضاء على نفوذ البرتغاليين فيها وفى باقى موانى جنوب ايران لانه انشغل طيلة حكمه بالحرب فى الولايات الغربية ضد عدوه العثمانى القوى السلطان سليمان القانونى ، أو كان مشغولا برد هجمات الازبك التركمان على خراسان ولم تتح له الفرصة ليتوجه للسواحل الجنوبية ٠

ومن ناحية أخرى فان القوات البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى وبحر عمان والخليج آنذاك لم يكن لها نظير أو منافس ، وكانت هذه الدولة تستولى على كل مراكز التجارة الهامة فى الهند وسواحل بحر عمان والخليج بواسطة اسطلها البحرى وكان استرداد جزر وموانى ايران الجنوبية ممكنا فى وقت من الاوقات لو أن حكومة ايران اهتمت باعداد سفنها الحربية وقواتها البحرية أو استعانت بحكومة يمكن أن تتساوى مع البرتغال قوة فى البحر ، ولم يتخذ أى من هذين الاجراءين فى عصر الشاه طهماسب الاول ومن بعده أيضا ٠ وظل البرتغاليون دون رقيب أو منافس حتى جاءت السفن الهولندية والانجليزية الى المحيط الهندى وبحار جنوب ايران ٠ وكان العثمانيون فقط يعكرون عليهم حريتهم التجارية من وقت الى آخر ٠

(*) تولى ٩٣٠ هـ ٠

وبعد معاهدة ميناب قام منزيس نائب الملك فى الهند باعادة أمير هرمز الى الجزيرة وعاد هو محملا بغنائم كثيرة الى الهند ، ولكن حين عودته علم أن دوم فاسكو دى جاما (١٨) عين مكانه نائبا للملك ، وبعد فاسكو دى جاما عين شخص اسمه لوبو فاز (١٩) ثم تولى هذا المنصب نانو دا كونيا (٢٠) الذى جاء الى سواحل الخليج وجزيرة هرمز فى ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) ليطلع على أحوال المستعمرات البرتغالية

وفى العام التالى ايضا جاء الى هرمز أحد القواد البرتغاليين واسمه تافاريز دى صوصا (٢١) وكان قد عين عاملا على نواحى البصرة ، وكان ملك البرتغال قد كلف هذا القائد بمساعدة حـــاكم البصرة فى حربه ضد أمير الجزيرة (٢٢) ولكن حين امتنع أمير البصرة عن تسليم سبع سفن كان قد استولى عليها الى القائد البرتغالى، كما لم يمنع تجارة العثمانيين فى ميناء البصرة فقد أحرق دى صوصا جزءا من ممتلكات هذا الامير ثم ذهب الى هرمز ، ويجب أن تعد هذه الحادثة أول حمله برتغالية للجزء العلوى من الخليج ، فى ذلك العام أيضا أرسل نائب الملك فى الهند سفنا الى جزيرة البحرين حيث كانت قد قامت ثورة ضد أمير هرمز ولكن السفن البرتغالية هزمت وعادت للهند ،

وفى عام ٩٤٩ هـ (١٥٤٢م) لم يستطع أمير هرمز دفع الخراج لنائب الملك فى الهند كما لم يستطع أيضا دفع مبلغ خمسمائة الف

---

(١٨) Dom Vasco de Gama

(١٩) Lopo Vaz

(٢٠) Nuno de Cunha

(٢١) Tavarez de Sausa

(٢٢) يبدو أن المقصود هو امير جزيرة الخضر أو عبدان من جزر مصب شط العرب ،

دوكات (حوالى ١٢٠٫٠٠٠ دولار) كانت قد أقرضت له ، ولهذا فان مارتيم دى الفونسو (٢٣) نائب الملك فى الهند تغاضى عن المبالغ القديمة واتفقوا على أن يجمع البرتغاليون دخل جمارك جزيرة هرمز، ولما كانت مستحقات حكومة البرتغال تحصل منذ ذلك الوقت من دخل الجمارك فان الخراج المستحق لها لم يتأخر دفعه او تحصيله بعد ذلك ·

وقد ابتدأت الحرب بين الاتراك العثمانيين والحكومة البرتغالية فى الخليج منذ عام ٩٥٧ هـ (١٥٥٠م) لانه فى تلك السنة سلم عرب القطيف قلعتهم هناك الى الاتراك كما أخرجوا أمير البصرة من مقر امارته ، فاضطر أمير البصرة الى طلب المساعدة من الفونسو دى نورونيا (٢٤) نائب الملك الجديد فى الهند فى مقابل موافقته على اقامة البرتغاليين لقلعة فى ميناء البصرة ، وقد أرسل نائب الملك ١٩ سفينة وألف ومائتى مقاتل بقيادة انطونيو دى نورونيا لمساعدة أمراء القطيف والبصرة ، وبعد أن دمر نورونيا قلعة القطيف توجه الى البصرة ولكن أحد باشاوات الاتراك خدعه وأعاده الى هرمز ولم يستطع استرداد البصرة ·

وفى نفس هذه السنة ارسلت الحكومة العثمانية أحد قوادها واسمه بير بك على رأس ١٦ ألف جندى وبضعة سفن الى الخليج وانتصر بير بك على السفن البرتغالية التى ارسلت لمحاربته انتصارا ساحقا واستولى على ميناء مسقط بعد أن حاصره ١٨ يوما ، كما أسر القائد البرتغالى ، ومن هناك ذهب الى جزيرة هرمز وهو يحمل كثيرا من الغنائم الحربية وهاجمها ، ولما لم يستطع فتح قلعتها البرتغالية نهب المدينة وذهب الى جزيرة قشم ومنها عاد للاراضى العثمانية محملا بغنائم وافرة ولكنه قتل فى القسطنطينية عام ٩٥٩هـ

---

(٢٣) Martim de Alfonso

(٢٤) Alfanso de Noronha

بعد حملة بير بث ارسلت الحكومة العثمانية قائد آخر اسمه مراد بك مع ١٥ سفينة حربية الى الخليج ودارت حروب شديدة بين السفن العثمانية والسفن البرتغالية على السواحل الايرانية وبعد عام واحد تمكن البرتغاليون من القضاء على السفن التركية التى كان يتولى قيادتها قائد اسمه على شلبى ، وبعد هذا استردوا سلطتهم المطلقة على سواحل الخليج ٠

وقد أعاد العثمانيون الهجوم عدة مرات على جزر البحرين وميناء مسقط وبعض موانى الجزيرة العربية الاخرى التى كانت خاضعة للبرتغاليين ولكن هذه الحملات لم تكلل بالنجاح وفى هذه الاثناء اندلعت الحرب بين والى لار وأمير هرمز واستطاع أمير هرمز أن ينتصر على والى لار بمساعدة البرتغاليين واستولى على قلعة شميل التى كانت تحت سيطرته ٠

كانت العلاقات البرتغالية الايرانية فى عهد الشاه طهماسب الاول (٩٣٠ ــ ٩٨٤ هـ) فى ظاهرها ودية وليس فى أيدينا تفصيلات كاملة عنها ولكن ما نعلمه هو أن دون سباستيان ملك البرتغال (١٥٥٧ ــ ١٥٧٨ م) أرسل السفراء الى بلاط الشاه طهماسب الاول مرتين الاولى سنة ٩٥٨ هـ (١٥٥١م) والثانية سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) عن طريق جزيرة هرمز وكانوا محملين بالهدايا والتحف ٠ وقد وصل سفير الملك سباستيان ــ الذى كان من عظماء البرتغال ــ فى كثير من الابهة والعظمة الى ايران حتى أن معاونيه ــ غير المرافقين والخدم ــ كانوا خمسين شخصا ، ولكن الشاه طهماسب استقبل هذا السفير ببرود لان المسئولين البرتغاليين فى جزيرة هرمز كانوا يسيئون للمسلمين هناك ولم يسمحوا لهم باقامة مسجد ، ولم يأذن لهذا السفير ومرافقيه بالعودة حتى وفاته سنة ٩٨٤ هـ ، ولم يسمح لهم بالعودة الا فى عهد ابنه الشاه محمد خدا بنده ٠

وفي سنة ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) أى فى السنة الرابعة من ملك محمد خدابنده خضعت البرتغـال لاسـبانيا وظلت تابعـة لهـا الى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠م) أى الى العام الثالث من حكم الشاه صفى .

بعد أن استولى فيليب الثانى ملك اسبانيا الذى كان شـديد التعصب للمذهب الكاثوليكى على البرتغال رأى أن يرسل سفيرا الى ايران لثلاثة اسباب :

الاول ـ ان يمنح شاه ايران لاتباع المذهب الكاثوليكى حرية دينية فى كل ايران .

الثانى ـ ألا يكف يده عن عداوة وقتال العثمانيين .

الثالث ـ أن يمنح الرعايا الاسبان امتيازات تجارية .

ولهذا أرسل الى دوم مسكارينيا دى سانتا كروز (٢٥) نائبه فى الهند أمراً لكى يرسل رجلاً لائقا كسفير الى البلاط الايرانى ، ولكن نظرا لان الاوضاع المالية لنائب الملك فى اللند آنذاك لم تكن تسمح بارسال سـفير عظيم وتحمل نفقـاته البـاهظة ، لهذا رأى المجلس الاستشارى لنائب الملك ان يرسل قسيسا اسمه الاب سيمون مورالس(٢٦) كان يعرف الفارسية ويتحدث بها ، وقد استقبل الشاه محمد هـذا المبعوث بالترحاب وأمره أن يدرس علوم الرياضة والفلك لابنه الاكبر حمزه ميرزا . وقد تغاضى الشاه محمد خدابنده عن المفـاوضات الودية والصلح مع الاتراك بناء على طلب هذا القسيس . ولكى يوطد أوامر الصداقة بين ايران واسبانيا فقد أرسل الشاه محمد خدا بنده سفيرا من ايران مع القسيس الاسبانى أثناء عودته وقد توجه السفير الإسبانى وسفير ايران الى أوربا على ظهر سفينة اسمها « رحلة سعيدة » ولكن هذه السفينة ـ على غير ما يتوقع من اسمها ـ تعرضت لعاصفة على الساحل الشرقى لافريقيا ، وحملت جميع مسافريها الى العالم الاخر .

---

(٢٥) Dom Mascarenha de Sonta Cruz
(٢٦) Pere Simon Morales

العلاقات الايرانية الاسبانية في عهد الشاه عباس الكبير

اتسعت العلاقات الايرانية مع الدول الاوربية فى عهد الشاه عباس الاول وجاء كثير من السفراء من قبل ملوك أوربا ، أو سافروا من ايران الى أوربا لعقد معهدات سياسية ضد الاتراك العثمانيين أو معاهدات تجارية بين دولهم وايران ٠

ففى سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩م) جاء الى ايران قسيسان برتغاليان أحدهما من جماعة الفرنسيسكان (١) واسمه الفونسو كورديرو (٢) والثانى من جماعة الدومينيكان (٣) واسمه نيكولاو دى ميلو (٤) وذلك عن طريق جزيرة هرمز وقابلا الشاه عباس فى مدينة اصفهان وقدم نيكولاو دى ميلو نفسه على أنه أسقف هرمز والمندوب الخاص لبابا روما وملك أسبانيا وقد قابل الشاه عباس هذين القسيسين بكثير من المحبة والعطف ومنح نيكولاو دى ميلو صليبا من الذهب مكللا بالماس والفيروز والياقوت واستفسر منه عن الدين المسيحى والمركز الدينى للبابا ٠ وقد كتب جورج مانورينج أحد مرافقى الاخوين شيرلى عن هذين القسيسين فقال « جاء قسيس من جماعة الفرنسيسكان الى اسفهان وقال للسير أنتونى اننى كمسيحى أرجوك أنا ورفيقى من

---

(١) الفرنسيسكان أو الاخوة الدينيون الصغار Les freres Mineurs احدى الفرق الكاثوليكية التى أسسها القديس فرانسوا دى اسيس Saint francois d' Assise عام ١٢٠٨م (٦٠٤هـ) من رجال الدين المعروفين بهدف التبشير للمسيحية ٠

(٢) Alfonso Cordero

(٣) فرقة الدومينيكان أو الاخوة المبشرين Les freres prècheurs احدى الفرق الكاثوليكية التى أسسها القديس دومينيك سنة ١٢١٥م (٦١١ هـ) ٠

(٤) Micolao di Melo

جماعة الدومينيكان وأسقف هرمز أن تحصل لنا من الشاه عباس على اذن بأن نسافر ونتجول فى مملكته بملابسنا الدينية ولا يتعرض لنا أحد ، فقبل السير أنتونى رجاءه ، وحصل له على أمر من الشاه عباس كما أراد ، وفى اليوم التالى رافق القسيس لمقابلة الشاه وقد استقبلهما الشاه عباس بحفاوة بالغة تكريما للسير انتونى شيرلى وسأل نيكولاو دى ميلو قائلا « من اين جئت واى الدول شاهدت ؟ » .

اجاب القسيس « ان البابا أرسلنى نائبا عنه الى دول المشرق »

فقال الشاه عباس « ماذا تعنى كلمة البابا ؟ رغم أنه كان يعرف تماما معناها ولكنه تعمد أن يظهر على غير علم .

فأجابه القسيس « أن البابا هو خليفة المسيح فى هذا العالم وهو يغفر ذنوب الناس » فقال الشاه « على هذا يجب أن يكون البابا عجوزا جدا لانه يعيش منذ ايام المسيح حتى الان ويخلفه .

فأجاب القسيس « ليس هكذا ، فقد تعاقب كثير من البابوات منذ زمن عيسى .

فقال الشاه « على هذا يجب أن يكون الباباوات من البشر مثلنا وولدوا فى ايطاليا أو فى مدينة روما » .

فرد القسيس « نعم هو هذا » فسأله الملك « الم يتكلموا اطلاقا مع الله أو عيسى ؟ » فأجابه «لا» .

فقال الشاه « اذن كيف يغفرون ذنوب الناس ؟ اننى لا أعتقد أن شخصا يمكنه غفران ذنوب الناس من دون الله ، اما فيما يتعلق بعيسى عليه السلام فاننى أعترف انه رسول كريم ولا شك انه هو الاخر يمكنه غفران ذنوب الناس وقرأت فى الكتب انه كانت له فى هذا الشأن معجزات عظيمة ، وانه بغير أب اذ أن أمه حملته من نفس أحد الملائكة ، كما أننى أعرف قصة صلبه ولهذا فاننى أكره اليهود » .

وبعد اسبوعين اى فى منتصف ذى الحجه عام ١٠٠٧ هـ سمح لهما بالعودة الى بلدهما مع السير انتونى شيرلى الانجليزى ـ الذى سنتحدث عنه فيما بعد ـ وحسين على بك بيات احد قواده المعروفين واللذين بعثهما الى الدول الاوربية ومن بينها اسبانيا لعقد معاهدات سياسية ضد الاتراك العثمانيين ٠

سفارة السير انتونى شيرلى الى البلاط الاسبانى

بعد ان قضى الشاه عباس على وجود الاوزبك فى خراسان عام ١٠٠٧ هـ واطمأن على هذه الناحية عاد الى اصفهان وقرر أن يدخل فى حرب مع العثمانيين لكى يسترد الاقاليم (٥) التى اضطر فى بداية ملكه للتنازل عنها لتلك الدولة ، وبعد أن اعانة الاخوان شيرلى ورفاقهما على تنظيم الجيش وصنع المدفعية والبنادق والاسلحة الاوربية الحديثة رأى ان يتحد مع الملوك المسيحيين فى أوربا ضد الدولة العثمانية ٠ وفى ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ ـ كما سبقت الاشارة الى هذا ـ أمر أحد قواده القزلباشية وهو حسين على بك بيات أن يسافر الى أوربا كمبعوث لـه ، وطلب من السير انتونى شيرلى أن يكون دليلا لسفيره ويرافقه فى سفره الى أوربا ٠ وكان الشاه عباس يرمى الى هدفين من وراء ارسال السفير :

أولها ـ ان يتحد مع ملوك أوربا ضد الدولة العثمانية ٠

وثانيهما ـ ان يعقد معهم معاهدات لبيع حرير ايران الذى كان يحتكره شخصيا ٠

ومن البديهى أن الشاه عباس كان مهتما بالهدف الاول وهو استرداد الاقاليم التى فقدتها ايران ٠ أما اقتراح الموضوع الثانى فكان فى الحقيقة لاغواء الحكام الاوربين وجلب موافقتهم على الهدف الاول لان اسعار الحرير الايرانى فى موانى الخليج كانت أرخص كثيرا

منها فى الموانى العثمانية على شاطىء البحر المتوسط ، ولما كان للحرير سوق رائجة فى أوربا فقد كانت الدول الاوربية ترغب فى أن تختص هى بتجارته ٠

كان قيصر روسيا ايفان الرابع (المرعب) (٥) ، والملكة اليزابيث ملكة بريطانيا قد ارسلا السفير أنتونى جينكينسان (٦) لفتح باب التجارة بين ايران وأوربا عن طريق روسيا فى عصر الشاه الاول جاء بعض السفراء من روسيا لهذا الغرض ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن هدفهم قد تحقق تحققا كاملا ، وكانت التجارة الايرانية ترسل الى أوربا عن طريق الاراضى العثمانية أى من تبريز الى طرابزون على البحر الاسود أو من بغداد الى حلب ، ومنذ أن استولى البرتغاليون على جزيرة هرمز افتتح الطريق البحرى عن طريق الخليج ، ولكن رجال الحكومة البرتغالية كانوا يريدون أن يصبح شراء البضائع الايرانية وتجارتها عن طريق الخليج فى أيديهم وحدهم ، ولهذا لم يسمحوا لاى ايرانى قط أن يرسل الحرير أو اية بضائع ايرانية الى الهند أو أوربا عن طريق الخليج مباشرة وعن غير طريقهم حتى أن شاه ايران نفسه لم يستطع أن يصدر حرير جيلان الذى كان يحتكره شخصيا عن طريق الخليج ، ولهذا كان الطريق الوحيد لتصدير التجـــارة الايرانية الى أوربا هو طريق التجارة الزومى أى الاراضى العثمانية، وكان التجار الايرانيون يضطرون لدفع مبلغ كبيرة جدا لرجـــال الحكومة العثمانية كرسوم جمركية ورسوم مرور ٠

والى جانب أن هذه الطرق العثمانية كانت اثناء فترات الصداقة بين الدولتين مملوءة بالاخطار بسبب قطاع الطرق فانها أثناء الحروب

---

(٥) ٩٣٦ ـ ٩٩٢ هـ (١٥٢٩ ـ ١٥٨٤م) Jvan IV,le terrible

(٦) Anthony Jenkinsan

كانت تغلق تماما ولا يبقى طريق للتجارة بين ايران واوربا ٠

لهذه الاسباب رأى الشاه عباس أن ارسال سفير الى بلاط ملوك أوربا أمر ضرورى ـ وكما سبق أن ذكرنا ـ كلف حسين على بك بيات والسير أنتونى شيرلى بهذه السفارة ، ومع أن السير أنتونى شيرلى كان فى الظاهر دليلا لحسين على بك الا أنه فى الواقع كان قرينا ومساويا للسفير القزلباشى ، وقد أعطى الشاه عباس للسير انتونى خطابات اعتماد خاصة تقدمه الى ملوك الفرنج ـ أى البابا وامبراطور المانيا وملكة انجلترا وملوك اسكتلندا واسبانيا وفرنسا وبولندا وحكومة جمهورية البندقية ـ على أنه مبعوثه الخاص ، وفى أحد خطابات الاعتماد هذه كتب :

« أيها الملوك الذين تتبعون دين عيسى ، اعلموا أن سبب الصداقة بينى وبينكم هو هذا الرجل (يقصد سير أنتونى شيرلى) ولا شك أننا كنا نريد صداقتكم قبل هذا ولكنه هو الذى أرشدنا الى طريق الصداقة ورفع حواجز الغربة ، وقد جاء هذا الرجل الينا برضاه ، وبناء على ما رآه وارتضاه أرسلنا معه أحد رجال بلاطنا اليكم ونحن نعده فى ايران مثل أخ عزيز ونأكل معه فى طبق واحد ونشرب من كأس واحدة ، وعلى هذا فعندما يصل اليكم فيجب أن تنظروا اليه على أنه مندوبنا الخاص وتقوموا بما يقول أو يطلب ٠٠٠٠ وعندما يعبر البحر (بحر قزوين) ويضع قدمه على أرض الملك الموسكوى (الروسى) العظيم الذى نتحد معه ونعده كأخ لنا ، فيجب على حكام تلك الدولة جميعا أن يسيروا معه حتى يوصلوه الى موسكو (٦) » ٠

---

(٦) كتب شارل شيفر فى مقدمته على كتاب رحلة رفايل دو مانس يقول « ان الملك عباس كان يريد من انتونى شيرلى أن يذهب فقط الى انجلترا ولكن شيرلى رأى أنه من الافيد أن يتحد مع كل الملوك المسيحين

وعلى هذا يمكن القول أن السفير الحقيقى للشاه عباس كان هو السير أنتونى شيرلى كما كان يعتقد هو نفسه ٠

وكانت جميع رسائل الشاه عباس الى ملوك وحكام أوربا تشتمل تقريبا على النقط والشروط والموضوعات التالية :

١ ـ يفتح شاه ايران باب الصداقة والاتحاد بسبب اهتمامه بالدول المسيحية ورعاياها ، وكذلك لكراهيته للعدو المشترك لهما وهو الاتراك العثمانيين ٠

٢ ـ يرغب فى الاطمئنان على أنه اذا دخل فى حرب مع هذا العدو المشترك لهما فان عبء الحرب كله لن يترك على عاتقه ٠

٣ ـ طلب من امبراطور المانيا وبابا روما وسائر حكام أوربا اذا كانوا قد عقدوا أية معاهدات صداقة ومودة مع الاتراك العثمانيين أن يلغوها واذا لم يستطيعوا مساعدة شاه ايران ضد السلطان العثمانى بكل قواتهم رعاية لمصالحهم ، فلا أقل من أن يساعدوه فى الخفاء طالما كان فى حرب السلطان العثمانى ، وعليهم الا يتعاونوا أو يساعدوا العدو بشكل من الاشكال ٠

٤ ـ لمح لحكام أوربا أنه لما كانت جماعة من التجار الفرنج (الاوربيين) قد عقدت اتفاقيات خاصة مع الحكومة العثمانية وأنهم يرسلون لها مختلف المهمات العسكرية من مدافع وبنادق وسفن وغيرها سواء عن الطريق البرى أو عن الطريق البحرى ، لهذا فان عليهم أن يلغوا هذه الاتفاقيات بأسرع ما يمكن ٠

٥ ـ نصح حكام أوربا بأن الحرب والعداوة بينهم إن تثمر الا تقوية الامبراطورية العثمانية ومن الافضل أن يقبلوا نصحيته الاخوية الخالصة ، وأن يسارعوا لعقد معاهدات صداقة ومودة وان يتحدوا حتى لا يفنوا قواتهم التى يجب أن تستخدم فى هزيمة العدو المشترك ولا يدمروها بلا سبب ٠

٦ ـ يتعهد الشاه عباس بأن يعد فورا ٦٠ الف مقاتل مجهزين بالبنادق وأى عدد من الفرسان والمشاة التى يراها الحلفاء لازمة للحرب فى حالة ما اذا اتحدت الدول المسيحية معه ضد السلطان العثمانى ٠

٧ ـ يعتقد شاه ايران ان الحرب الدفاعية ليس وراءها الا ضياع الوقت والمـال وقتل الرجال الابرياء وتعريض الكرامة والحيثية للخطر وأن الدول التى تأخذ بهذا المبدأ تعترف بعجزها ٠

٨ ـ بناء على ما سبق فانهم ان رأوا القضاء على الامبراطورية العثمانية واجبا فعليهم أن يهجموا فورا على ممتلكات تلك الدولة من الشرق والغرب وخاصة من ناحية بلغاريا ٠

٩ ـ تعهد شاه ايران فى حالة ما اذا قام امبراطور المانيا وملك اسبانيا وبقية حكام أوربا بمحاربة السلطان العثمانى ـ بالهجوم على الاراضى العثمانية فورا من ناحية الشرق وفى هذه الحالة فانه يتوقع أن يرسل الامبراطور وبقية حـكام أوربا سفراء مفوضين تفويضا تاما الى ايران تتخذ أية اجـراءات عسكرية برأيهم ومشروتهم ٠

١٠ ـ اقترح الشاه عباس عقد معاهدات بين ايران والدول الاوربية شريطة الا تقدم أية دولة من الحلفاء على أى عمل يكون مخالفا للسياسة العامة دون مشورة وموافقه الاخرين ٠

١١ ـ يعتقد شاه ايران أنه اذا اتحدت ايران مع الحـكام المسيحيين لاوربا ضد الدولة العثمانية وهبوا لحربها فانه لا يحـق لاية دولة من الحلفاء أن تنسحب من الحرب أو تدخل فى صلح مع العـدو دون استشارة وموافقة بقية حلفائها ٠

١٢ ـ تعهد أن يفتح كل ايران أمام اتباع الدين المسيحى من كل مذهب وفرقة ويسمح لهم بالذهاب حيث يشاءون ويقيموا فى أى مكان ويشيدوا الكنائس والمنازل ويزاولوا طقوسهم الدينية بحرية تامة ودون أية موانع اذا اتحدت معه أوربا ضد العثمانيين ٠

١٣ ـ وفى النهاية طلب شاه ايران من كل ملوك الفرنجة (أوربا) أن يرسلوا الى ايران سفراء يحملون الشروط والخطط المقترحة التى يرونها كما فعل هو (٧) ٠

وقد ترك حسين على بك بيات وأنتونى شيرلى اصفهان متوجهين الى أوربا يوم الخميس ١٥ ذى الحجة عام ١٠٠٧ هـ (٩ يونيو ١٥٩٩م) مع مرافقيهما ٠ وكان المرافقون لهما فى السفر هم أربعة من حرس الفرسان الايرانيين (٨) و١٤ مرافقا ايرانيا ورجل دين وخمسة من المترجمين وكان المرافقون لسير أنتونى شيرلى ١٥ شخصا من الانجليز وخلفهم قافلة من ٣٢ جملا تحمل الهدايا التى كان الشاه قد اختارها لملوك الفرنج ، ورافق الشاه عباس هذه البعثة حتى ضاحية من ضواحى اصفهان وهناك أعطى ختمه الذهبى الى السير أنتونى وقال له « يا أخى ، اننى اقبل أى شىء توقعه بهذا الختم حتى ولو كان يساوى سلطنتى كلها » ثم قبل وجهة وأخذ يد أخيه روبرت شيرلى ووعده بأن يعامله كأخ له أثناء غيابه « انتونى » ٠

بعد شهر وصل السير أنتونى شيرلى وحسين على بك ومرافقوهم الى ساحل بحر مازندران « قزوين » عن طريق كاشان وقم وساوه وقزوين وجيلان ومن هناك ركبوا سفينة متوجهين الى روسيا

استغرق عبور بحر الخزر « قزوين » شهرين لان السفينة واجهت عواصف شديدة ، وبعد تحمل الكثير من المشاق والمخاطر وصلوا الى ميناء هشتر خان ، وكان الشاه عباس قد أرسل شخصا الى هذا

---

(٧) تاريخ القسس الكرمليين فى ايران طبع لندن جـ١

(٨) كان من بين هؤلاء الحرس على قلى بك ابن اخى حسين بك بيات سفير الشاه والثانى أروج بك الذى كان السكرتير الاول للبعثة ٠

الميناء قبل وصولهم بشهر لكى يخطر حكام روسيا بوصول هذا الوفد ويعد ما يلزم لراحتهم ، وقد وصل هذا الشخص الى هشتر خان قبل وصول انتونى شيرلى ومرافقيه بيوم واحد فقط ٠

نزلت هذه البعثه الايرانية فى ضيافه بوريس جودونوف (١) قيصر روسيا منذ وصولها هشتر خان حتى بلغت موسكو بعد شهرين ونصف ، ولم تطب الاقامة لسير أنتونى فى موسكو لان قيصر روسيا عد حسين على بك وحده سفيرا للشاه عباس بل انه قدم المبعوث الاخر الذى ارسل قبل هذه الجماعة الى هشترخان ورافقهم الى موسكو على السير أنتونى شيرلى ، كما أن القيصر لم يسمح لشيرلى ورفاقه الانجليز برؤية التجار الانجليز الذين كانوا فى موسكو آنذاك أو الحديث معهم ، كما أن شيرلى تضايق من تصرفات القيصر فلم يذهب مع البعثة الايرانية حين سمح لهم القيصر بلقائه وبهذا ازداد سوء ظن القيصر تجاهه وأخذ يتربص للايقاع به ، كما امر أن تؤخذ جميع الرسائل التى كان الشاه عباس قد كتبها لملوك اوربا وأعطاها لشيرلى وقرأوها ، كما اطلقوا سراح القسيس الدومينيكانى نيكولاو دى ميلو والذى كان شيرلى قد ألقى القبض عليه أثناء الرحلة وسجنه بتهمة خيانة شاه ايران ونصروه على شيرلى ٠

وقد ذكر بارى أحد سكرتيرى شيرلى الانجليزى سبب هذا الخلاف فقال :

« حدث نزاع بين القسيسين البرتغاليين اللذان كانا يسافران برفقتنا فأخبر أحدهما وهو الفونسو كورديرو الذى كان من جماعه الفرنسيسكان السير انتونى أن القسيس الاخر وهو نيكولاو دى ميلو الدومينيكانى قضى أغلب وقته فى الهند فى اللهو ووصل به الامر الى أن ملك اسبانيا علم بسيرته فأمر باعادته ٠ كذلك فان الهدايا

---

(٨) Boris Goudonoff

التى قدمها نيكولا للشاه عباس كان أحد أصدقاء الشاه قد أرسلها مع رسلة ولكن القسيس تعرف على حامل الهدايا وخدعه بمبلغ قليل من المال وأخذ منه الهدايا والرسالة ثم ألقى الرسالة فى الطريق وقدم الهدايا للشاه باسمه هو . وقد غضب السير أنتونى لسماع هذه القصة ، وأمر أن يلقى القبض على القسيس » .

ثم أضاف « أمر القيصر باطلاق سراح القسيس من قيد شيرلى وأمر بتشكيل مجلس للتحقيق فى سلوك شيرلى مع القس ، وقد أطلق القس لسانه فى سب السير أنتونى أثناء المجلس مما أثار غضبه حتى أن شيرلى صفعه صفعة قوية مما أدى الى اضطراب المجلس ، وبعد هذه الحادثة زاد رجال القصر من احترامهم للسير أنتونى شيرلى » .

بعد اقامة ستة أشهر فى موسكو تحرك الوفد وكان ذلك يوم عيد الفصح عام ١٦٠٠م (أواخر ١٠٠٨هـ) متوجها الى المانيا ، ولكن لما كانت الأحمال التى يحملونها من الهدايا ثقيلة فقد قيل لهم أن يسافروا عن طريق المحيط المتجمد الشمالى ، ولهذا فانهم بعد أن تركوا ساحل نهر الفولجا أخذوا طريق الشمال وبعد ستة أسابيع وصلوا الى ميناء أرخنجلسك أحد موانى شمال روسيا ، وامتدت اقامة البعثة نحو شهر فى هذا الميناء لاعداد المؤونة واحتياجات الرحلة ، ثم أبحروا على ظهر احدى السفن متوجهين الى المانيا وبعد شهر ونصف واجهوا خلاله عواصف شديدة وصلوا الى ميناء اشتود (Stode) فى مصب نهر الألب عن طريق رأس الشمال وسواحل النرويج ومن ذلك الميناء أرسل السير أنتونى سكرتيره بارى الى انجلترا مع بعض الرسائل وذهب شيرلى مع السفير الايرانى وبقية البعثة الى ايمدن .

وقد استقبلهم دوق اولدنبورج (من دوقيات المانيا) بحفاوة وترحاب .

ومن ايمدن توجهت البعثة الى براغ عاصمة دولة بوهيميا مارة بمدن كاسل ونيمار وهال ، (٩) وقد وصلت براغ فى خريف سنة ١٠٠٩هـ (١٦٠٠م) وكان رودلف الثانى امبراطور المانيا فى ذلك الوقت الوقت فى بوهيميا وحين علم بوصول سفراء شاه ايران أرسل ثلاث عشرة عربة تجرها الجياد مع جماعة من قواد وعظماء البلاط وخمسة الاف جندى لاستقبالها وقد أنزل الامبراطور أعضاء البعثة ضيوفا عليه منذ وصولهم مع كثير من مظاهر الاجلال والاحترام ٠

قبل امبراطور المانيا اقتراحات السير انتونى شيرلى بخصوص الاتحاد مع الشـــاه عباس ضد الاتـــراك العثمانيين ببعض التحفظات وحاول كثيرا منعه من الذهاب الى بقية ملوك أوربا والاكتفاء بارسال رسائل الشاه مع مبعوثين خاصين ولكن شيرلى لم يتقبل هذا الرأى واستأذن فى الربيع التالى من امبراطور المانيا وتوجه الى ايطاليا ، وعند مغادرة البعثة لالمانيا اعطى الامبراطور ٥٠ قطعة من الاوانى الفضية المختلفة الى انتونى شيرلى ومنحه الفى دوقية (١٠) المانية لنفقات سفره كما منح كل واحد من مرافقيه كأسا فضية ومائتى دوقيـــة ٠

ذهب انتونى شيرلى ومرافقوه من براغ الى نورن نبرج احدى مدن دوقية بايرن حيث استقبلوا هناك بالحفاوة والتكريم ونزلوا أربعة أيام ضيوفا على حاكم المدينة ، وعند رحيلهم منح الدوق كأسين من الذهب واحدة لشيرلى والأخرى لحسين على بك بيات ، ومن هنـــاك توجهوا الى ميونيخ حيث استقبلهم ويلهيلم الثانى المعروف بالزاهـد دوق بايرن والذى كان قد اعتزل حديثا من منصبه ـ استقبالا ملكيا ٠

---

(٩) Emden, Oldenlurg, Prag, Weimar, Halle

(١٠) كان دوقيه كانت تعادل نحو ٢٠ قرشا او اكثر قليلا ٠

بعد ذلك قصدت البعثة الى ايطاليا ونزلت فى مدينة مانتوفا احدى مدن الشمال ، وقد سبق أن ذكرنا أن الشاه عباس كتب رسالة الى دوق البندقية (فينيسيا) مما دفع شيرلى وبيات للذهاب الى تلك المدينة لتسليم الرسالة ، وكان شيرلى قبل وصوله الى ايطاليا قد أرسل شخصا اسمه مايكل انج سراى (١١) الى الدوق ليخبره بقدوم سفراء ايران اليه ، كما أرسل رسولا اخر من مدينة مانتوفا للغرض نفسه ، ولكن دوق البندقية (فينيسيا) رد عليه بأن سفيرا للدولة العثمانية وصل الى فينيسيا وأن الدولتين فى سبيلهما للصلح ، ولهذا فهو يعتذر عن مقابلة السفير الايرانى لانه من الممكن أن يؤدى وصول سفير الشاه عباس الى تعكير صفو العلاقات بين فينيسيا والحكومة العثمانية مرة أخـرى ٠

لهذا اضطر شيرلى ومرافقوه للذهاب الى روما عن طريق فلورنسا وقد استقبلهم الدوق فردیناند دى ميديتشى (١٢) دوق ولاية توسكانا بكثير من الترحاب فى مدينة بيزا وأصطحبهم لمشاهدة ميناء ليفورنو الذى يجرى انشاؤه بناء على أوامره (١٣) ٠

بعد هذا ذهبوا من بيزا الى سيينا ومن هناك توجهوا الى روما مع كاردينال كان قد جاء من قبل البابا كليمنت الثامن لاستقبالهم ٠

وفى روما حدث خلاف بين شيرلى وحسين على بك ولهذا قابلهما البابا كلا على أنفراد وحينما استقبل البابا أنتونى شيرلى شرح لـه السفير أهداف الشاه عباس من انشاء اتحاد ضد الاتراك العثمانيين ووعده أن يمنح شاه ايران للمبشرين والقسس الكاثوليك حرية كاملة فى

---

(١١) Michel ange Cerray

(١٢) Ferdinand de Medici

(١٣) كتب اروج بك أو دون جوان الايرانى أن خمسة الاف عبد كانوا يعملون فى انشاء الميناء ٠

كل أنحاء ايران ، كما طمأن البابا على أنه من الممكن للمبشرين الكاثوليك فى يوم من الايام أن يدخلوا كل أهل جورجيا فى المذهب الكاثوليكى ٠

وقد ظل السير انتونى شيرلى فى روما حتى محرم سنة ١٠١٠هـ (١٦٠١ م) حين ذهب من مقر البابا مع اثنين من رجاله الى انكونا ومنها الى فينيسيا ٠ وهناك رأيان فى سبب سفره السرى هذا هما :

١ - كتب البعض أنه لما كان أحد رفاقه الانجليز قد سرق الرسائل التى كان الشاه عباس قد كتبها الى ملوك أوربا وحملها الى استانبول وسلمها للصدر الاعظم العثمانى فان السير أنتونى شيرلى رأى نفسه فى خطر وأن عليه أن يلجأ لحكومة فينيسيا ٠

٢ - اما أروج بك أو دون جوان الايرانى فقد ذكر فى كتابه أنه حدث خلاف شديد بين سير أنتونى شيرلى وحسين على بك بيات فى مدينة سيينا الايطالية أمام الكاردينال الذى جاء لاستقبالهم من قبل البابا لانه حين طلب حسين على بك الهدايا التى كان الشاه عباس قد ارسلها الى البابا ، اتضح أن سير أنتونى شيرلى باع جزءا منها الى التجار الانجليز فى موسكو وادعى أنه أرسلها مباشرة الى ايطاليا فى سفينة انجليزية وهذا هو الذى أدى الى هروبه حين انكشف أمره(١٤)

(١٤) كتب أحد الانجليز المرافقين لسير انتونى شيرلى لم يعرف اسمه فى مذكراته عن الرحلة حول الخلاف بين شيرلى وحسين على بك يقول « تشاجر السفير الايرانى وشيرلى فى روما حول أهمية مركز كل منهما وأغلظ شيرلى القول للسفير الايرانى وطلب منه أن يطيع أوامره فحزن السفير الايرانى مما سمعه وانفصل عنه غاضبا وعاد الى ايران وحين وصلها وذهب لمقابلة الشاه عباس وشرح له تفصيلات رحلته فى حضور روبرت شيرلى اخو انتونى شيرلى واطلق لسانه فى سب سير أنتونى والصق به كثيرا من التهم ولكن روبرت دافع عن أخيه ويرهن على اكاذيب السفير ولهذا امر الشاه عباس فقطعوا يدى السفير ولسانه أمام روبرت ٠٠ » ٠

وقد ظل حسين على بك بيات شهرين فى روما بعد هروب سير أنتونى شيرلى ثم توجه الى أسبانيا وعندما ودعه البابا أهدى لــه سلسلة من الذهب وألفى دوقه ، كما منح كل واحد من حرسه سلسلة ذهبية وبردة عيسوية ، كما أمر أحد كبار القسس من برشلونة وكان اسمه فرانتشيسكو جواسك أن يرافق السفير الايرانى الى اسبانيا وأن يوفر له ولمرافقيه كل ما يلزمهم ٠

ذهب حسين على بك ومرافقوه من روما الى ميناء جنوا ومن هناك ركبوا سفينتين الى ميناء سافونا ووصلوا اسبانيا عن طـريق جنوب فرنسا وجبال البرنيز ، ثم ذهبوا الى برشلونه حيث استقبلهم فى الميناء دوق فريا نائب الملك فى مقاطعة كتالونيا ومن هناك ذهبوا الى بلد الوليد مقر الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا ٠

استقبل ملك اسبانيا حسين على بك استقبالا عظيما واستضافه فى بلاطه لمدة شهرين وبعد هذا صمم سفير ايران على العوده الى وطنه وارجاء مهمته فى خمس دول أخرى وهى انجلترا واسكتلندا وفرنسا وبولندا وفينيسيا الى وقت آخر ، ولكى يتجنب السفر بالطريق البرى الطويل فقد آثر أن يعود الى ايران عن طريق البحر حول جنوب افريقيا ورأس الرجاء الصالح ٠

وقد ودع ملك اسبانيا حسين على بك يوم سفره بكثير من التكريم والى جانب الهدايا الكثيرة التى أرسلها معه للشاه عباس فقد منحه سلسلة من الذهب تقدر قيمتها انذاك بنحو ٦٥٠ دولارا مع أحد عشر ألف دوقة نقـدا لنفقات سفره كما كان السفير ومرافقوه ضيوفا عليه حتى ميناء ليشبونه حيث كانت هناك سفينة اسبانية مكلفة بتوصيلهم

=

ولكن هذا القول بعيد عن الحقيقة لانه كما سنذكر فان حسين على بك بيات ذهب الى أسبانيا بعد هروب شيرلى وأدى مهمته فى تلك الدولة ايضا ٠

الى الخليج (١٥) ٠

ذهب السفير الايرانى مع مرافقيه من بلد الوليد الى مدريد ومنها الى توليدو (طليطلة) ثم ليشبونة ، ولكن فى مريدا على بعد مرحلتين من ليشبونه حدثت حادثه مؤسفة٠فكما ذكرنا من قبل كان يرافق البعثة الايرانية منذ مغادرتها لاصفهان أحد رجال الدين لكى يشرف على الشئون الدينية للبعثة ، ولكن هذا المسكين قتل فى مريدا بطعنة سكين من أحد المتعصبين الاسبان ، وقد تضايق حسين على بك من هذه الحادثة وأرسل اروج بك الى بلد الوليد لكى يطالب الحكومة الاسبانية بديته ٠

وقد وقعت أحداث أخرى مؤسفة بعد هذا زادت من حزن حسين على بك بيات وأسفه ، اذ أنه قبل أن يغادر اسبانيا ترك ثلاثة من أعضاء البعثة الدين الاسلامى ودخلوا فى المذهب الكاثوليكى وكان أحد هؤلاء الثلاثة هو على قلى بك ابن أخى السفير الذى ضايق عمه جدا وأحزنه بقبوله للدين المسيحى ، وعند تعميده قبل فيليب الثالث ملك أسبانيا أن يكون أباه الروحى وعندما دخل فى المذهب الكاثوليكى لقبه باسمه فأصبح يسمى دون فيليب ٠ أما الثانى فكان سكرتيرا أول فى البعثة وهو أروج بك (١٦) الذى قبلت ملكة أسبانيا

---

١٥ ــ حصل حسين على بك ومرافقوه اثناء سفرهم على مبالغ كبيرة بالاضافة الى كئوس من الذهب والفضه والاشياء القيمة الكثيره الاخرى يصل مجموعها الى ٢١٦٠٠ دوقه (أى أكثر من سبعة الاف جنيه استرلينى) اذ اعطاه قيصر روسيا ٣٨٠٠ وامبراطور المانيا ٤٨٠٠ والبابا ٢٠٠٠ وملك اسبانيا ١١٠٠٠ ٠

(١٦) بعد أن دخل أروج بك فى الدين المسيحى سمى « دون جوان الايرانى » كان قد ولد عام ٩٦٧ هـ وعند سفره لاوربا كان فى حوالى الاربعين من عمره ٠ كان أبوه سلطان على بك من قواد القزلباشية المعروفين من قبيلة بيات الكردية لكنه قتل سنة ٩٩٣ هـ فى الحرب بين العثمانيين والصفويين فى عصر الملك محمد خدا بنده ، وكان هذا القائد رئيسا لكتيبة خاصة وبعد مقتله عين ابنه أروج بك لقيادتها ٠ وقد قتل دون جوان يوم ٤ محرم ١٠١٣ هـ (١٥ مايو ١٦٠٥ م) على

أن تكون أمه المتبناه اثناء تعميده ، وقد عرف بعد ذلك باسم دون جوان الايرانى • اما الثالث فاسمه بنياد بك وكان من اعضاء البعثة وقد لقبوه بعد دخوله فى المذهب الكاثوليكى باسم دون دييجو •

وقد استاجر حسين على بك امراة عجوزا بربرية كانت قد اعتقت بعد خدمة طويلة على السفن الاسبانية لتقوم بقتل هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قد كفروا فى رأيه ولولا أن الماركيز دى سانتكروز قائد الاسطول الاسبانى لم يهب لحماية اخوته الجدد فى الدين لتعرضوا للهـلاك •

=

يد أحد الاسبان فى مدينة بلد الوليد • وحتى لا يذاع خبر مقتـله فقد وضعوا جسده فى قارب ودفعوه فى البحر وبعد بضعة ايام القته الامواج على الساحل فنهشته الكلاب وقد كتب هذا الرجل كتابا حوالى سنتى ١٠١٢ ـ ١٠١٣ هـ (١٦٠٤م) عن حلته قسمه الى ثلاثة أبواب :

الباب الاول ـ مختصر عن ولايات واقاليم ايران ونظام الحكومة فى العصر الصفوى وعادات الناس والطوائف والقبائل الكبيرة التى تسكن كل ولاية وكذلك ملوك ايران من عصر النمرود حتى عهـد الشاه عباس الكبير •

الباب الثانى ـ يشتمل على عصر الملوك الصفويين وحروبهم مع السلاطين العثمانيين وأمراء الاوزبك •

الباب الثالث ـ يتضمن تفصيلات وصول السير انتونى شيرلى الى البلاط الايرانى وسفر حسين على بك ومرافقيه منذ حركتهم من أصفهان حتى وصولهم الى مدينة لشبونة •

وقد كتب أروج بك أصل هذا الكتاب باللغة الفارسية وترجمـة الى اللغة الاسبانية وطبعه بمساعدة كاتب اسبانى اسمه الفونسو ريمون • وقد أشار الفونسو هذا فى المقدمة الى اروج بك عـلى انه الصديق الحميم وأنه قدم كتابه الى قسيس الملك الخاص وهو دون الفارودى كرافاخال ، وهذا القس هو الذى غسل أروج بك عند تعميده فى الكنيسة الملحقة بالقصر الملكى ، وأشار اروج بك الى انه كان يكتب أحداث الكتاب يوما بيوم لكى يقدمها للشاه عباس عند عودته لايران •

وقد ترجم هذا الكتاب المستشرق الانجليزى لوسترانج Le Strange وطبعه بالانجليزية عام ١٩٢٦ •

وفى منتصف عام ١٠١٠ هـ تحرك السفير الايرانى وكل مرافقيه على ظهر سفينة من لشبونه صوب ايران وكان من المفروض وصولهم الى ميناء هرمز فى أواخر نفس العـام ولكن لا يعرف تاريخ وصـول حسين على بك ولا نعرف شيئا عن مصيره أو مصير مرافقيه ٠

الاستيلاء على البحرين

كما سبق أن أشرنا كانت جزر البحرين تابعه لحكومة هرمز وفى دائرة نفوذ الحكومة البرتغالية منذ منتصف القرن العاشر الهجرى ٠ وفى عام ١٠١٠ هـ عندما توفى فرخ شاه امير هرمز وتولى ابنه فيروز شاه الامارة كان حاكم البحرين هو ركن الدين مسعود الذى كان اخا للرئيس شرف الدين لطف الله وزير هرمز ، فاعلن الاستقلال وشق عصا الطاعة عن أمير هرمز ، ولكن خوفا من قيام سفن البرتغـــال بمساعدة فيروز شاه الذى كان تحت حمايتها ومهاجمة البحرين فانه طلب مساعدة أحد كبار رجال فارس واسمه معين الدين فالى وكان على صلة قرابة به ، فقام معين الدين باخطار امام قلى بك بن الله وردى خان (١) أمير أمراء فارس الذى كان يحكم هذا الاقليم بعد أبيه ، وكان امام قلى يطمع منذ مدة فى الاستيلاء على البحرين فانتهز الفرصة وأرسل معين الدين فالى مع بعض الجند لمساعدة ركن الدين مسعود فى الظاهر ولكن فى الحقيقة للاستيلاء على البحرين ٠

حينما وصل معين الدين بجيشه الى البحرين وبقى بها بعض الوقت ذهب فجر ليلة من الليالى مع ابن عمه الرئيس منصور الى منزل ركن الدين وقتله فى مخدعه ، وحين علم جند ركن الدين بما حدث هبوا لمحاربة معين الدين انتقاما لاميرهم وتمكنوا من تضييق الخنــاق على معين الدين ولكن يشاء القدر أن الامير يوسف شاه أحد أمراء اقليم فارس عند عودته من مكة كان قد وقع فى قبضة قراصنة الخليج وفقد جزءا من أمواله فكان فى هذا الوقت يتجول فى البحر ومعــه قوات من حملة البنــادق للبحث عن هؤلاء القراصنة بناء على أوامر من الله وردى خان ووصل فى بحثه الى البحرين فاستطاع معين الدين بمساعدة يوسف شــاه أن ينتصر على جيش البحرين ٠

---

(١) الله وردى خان تولى حكومة ولاية فارس سنة ١٠٠٤ هـ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته عام ١٠٢٣ هـ ٠

حين ذاع خبر استيلاء الجنود الايرانيين على البحرين أرسل فيروز شاه أمير هرمز والحاكم البرتغالى لها جيشا وبعض السفن الى جـزر البحرين فاشتعلت الحرب بين الجنود الايرانيين والجنود البرتغاليين بعض الوقت فى البر والبحر ومع أن معين الدين والامير يوسف شاه قتلا فى هذه الحـرب الا أن النصر كان للايرانين واضطرت السفن البرتغالية للعودة الى هرمز وخرجت البحرين من سيطرة البرتغال وخضعت لحكومة فارس وكان هذا فى منتصف رمضان سنة ١٠١٠هـ ٠

أول بعثة لانطونيو دى جوفيا الى ايران

فى الوقت الذى كان فيه حسين على بك بيات متوجها من روما الى اسبانيا (أوائل ١٠١٠ هـ) أمر فيليب الثالث ملك اسبانيا نائبه فى الهند دوم ارياس سالدانيا (١) والكسيس دى منزيس (٢) أسقف ميناء جوا لكى يبعثا هيئة دينية للتبشير للمسيحية فى ايران ٠ فسارع نائب الملك والاسقف بارسال ثلاثة من القسس الكاثوليك هم جيرومينو دى كروز وكريستوفولو دى سبريتو سانتو (ذو الروح المقدسه) وانطونيو دى جوفيا (٣) مع هيئة الى ايران على أن تكون رئاستهم لجوفيا وكان القسس الثلاثة من فرقة القديس أغوسطين ٠

غادر انطونيو دى جوفيا ومرافقوه ميناء جوا على الساحل الغربى للهند فى ٢٢ شعبان سنة ١٠١٠ هـ (١٥ فبراير ١٦٠٢م) والتقوا بالشاه عباس فى مدينة مشهد فى منتصف ربيع الاول من العام التالى وكان الشاه عباس قبل وصولهم الى مشهد قد أرسل جماعة من كبار قواده من بينهم روبرت شيرلي الانجليزى لاستقبالهم عند اقترابهم من مشهد ٠

وقد استقبل القسس الثلاثة بالترحاب البالغ وعرض جيرومينو دى كروز على الشاه عباس رسالة ملك اسبانيا والهدايا التى أرسلها له نائب الملك فى الهند ، كما قدم أيضا نسخة من كتاب « شرح حياة عيسى » مجلدة جلدا فاخرا مع بعض صور للبابا مقدمة من أسقف جـوا ٠ وكان لانطونيو دى جوفيا ثلاثة أهداف :

---

(١) Arias Saldanha

(٢) Alexis de Menezes

(٣) Cristofolo de Sprito Santo antonio de Jouvea

أولها أن يقوى هيكل المصالح التجارية البرتغالية الذى كان قد ضعف نتيجة لاستيلاء ايران على جزر البحرين ٠

ثانيها أن يمنع الشاه عباس من عقد اتفاقيات تجارية مع التجار الانجليز والا يسمح لسفنهم بالمجىء الى الخليج ٠

والثالث أن يحصل من الشاه عباس على اذن بالتبشير للدين المسيحى فى ايران ٠

وقد تحدث معه الشاه عباس مبديا موافقته ثم اصطحبه ورفاقه الى كاشان ثم اصفهان حيث وافق على أن يقيموا فيها ديرا وكنيسة بل انه دفع من خزانته تكاليف تزيينها وما تحتاجه من قيشانى ٠ وقد وعد سفراء أسبانيا وعودا طيبة فيما يتعلق بالمسائل الدينية واعطاء الحرية للمبشرين المسيحيين فى ايران وذلك لكى يثير بابا روما وملك أسبانيا ضد السلطان العثمانى ويعقد معهم محالفات ضد هذا العدو ولكنه بذكاء أوكل انجاز وعوده الى الوقت الذى يقوم فيه البابا وملك أسبانيا رسميا بمحاربة السلطان العثمانى ، وقد كتب أنطونيو دى جوفيا تفصيلات هذه المحادثات فى كتاب رحلته وخلاصتها « بعد بضعة أيام استدعانا الشاه عباس نحن الثلاثة لمقابلته يوم السبت ١١ فبراير ١٦٠٢ م ومعنا الراهب فرانشيسكو دى كوستا الذى كان قد جاء من عند البابا واخذنا الى قصر الحريم وهناك قال لنا « أريد أن تدونوا ما أقوله لكم ثم طلب قلما ومحبرة وأمر أن يكتبوا ما يقول ثم قال : أنا مستعد لاقامة الكنائس فى ايران وأرغب كثيرا فى أن يأتى كل المسيحيين رجالا ونساء الى بلدى ولكن رجال الدين عندى لايقبلون هذا ويمنعوننى وأخشى أن أقدمت على هذا أن يقتلونى فان كنتم تقبلون أن أقوم بما ترغبون مع وجود هذا الخطر فلا مانع عند ولكننى أرى من الافضل أن يقوم ملوككم بالدخول فى الحرب مع الاتراك أولا وبعد ذلك تقومون ببناء الكنائس وفى هذه الحال تستطيعون اقامة الكنائس فى جميع مدن ايران الى جانب مدينة اصفهان لانه اذا أراد رجال

الدين الاعتراض ومنع هذا العمل فسوف أقول لهم انه لم يعد لهم حق الاعتراض أبدا لانني لا أستطيع العمل ضد رغبة وارادة الاشخاص الذين يساعدونني ضد اعداء ايران ... سوف أرسل رجالا مخصوصين لكي يقوموا بكل ما تشاءون وعلى نفقتي الخاصة وسوف امر جميع التجار من مسيحيين ويهود ومسلمين وغيرهم بالتجارة مع هرمز ، وأرجو أن تكتبوا الى البابا والى دون فيليب ملككم أنني احبهما كأبي وأخي » . ثم ختم ما كتبوه بالخاتم الخاص الذي كان يحمله في اصبعه .

بعد هذا بفترة وجيزة وحينما طمأنه « انطونيو دى جوفيا » أن نائب الملك في الهند لن يهاجم سواحل ايران الجنوبية ، خرج الشاه عباس فجأة مع جيش منتخب مختار من مدينة اصفهان في السابع من ربيع الثاني سنة ١٠١٢ هـ وهجم على اذربيجان ودخل في حرب مع السلطان العثماني محمد خان الثالث ، وفي نفس الوقت ارسل أحد كبار قواده وهو الله وردى بك التركماني مع رسالة وهدايا بصحبة انطونيو دى جوفيا الى اسبانيا حتى يعقد اتفاقية مع فيليب الثالث ملك أسبانيا ضد الاتراك العثمانيين .

وقد عبر الشاه عباس في رسالته عن سروره من ارسال السفراء والرسائل الى بلاط ايران مما أدى الى تقوية علاقات الصداقة والمودة بين الدولتين ثم أشاد بالقسس الثلاثة من جماعة سان أغسطين الذين كانوا قد جاءوا كسفراء الى ايران وقال انه تلقاهم بكثير من الترحاب وسمح لهم باقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة في ايران ثم أشار الى حسن معاملته لكل المسيحين خاصة الاسبان الذين يأتون الى ايران من المستعمرات البرتغالية لاسبانيا في الهند ، وقد شهد سفراؤه على هذا .

ثم ذكر أنه يرسل الله وردى بك التركماني أحد كبار قواد ايران الذين يطمئن اليهم ويعتمد عليهم مع أنطونيو دى جوفيا كسفير اليه

عن طريق الهند وأنه استبقى القسس الاخرين فى ايران وهو يتوقع أن يعيد الملك سفيره الله وردى بك الى ايران فى أقرب وقت ، ثم أشار الى العلاقات الايرانية الانجليزية وقال انه سيعمل طبقا لما يريده ملك أسبانيا حفاظا على الصداقة الاسبانية الايرانية ٠

وبعد مدة قصيرة وبينما كان الشاه عباس يهاجم اذربيجان وأرمينيا وكان مشغولا بالقتال مع الجيش العثمانى على مقربة من قلعة قارص وصل مبعوث جديد من قبل ملك أسبانيا اسمه لويس بريرا دى لازردا (٤) على رأس بعثة من نحو ٥٠ شخصا ولما كان الشاه بعيدا عن العاصمة فقد ذهب السفير الى أرمينيا وقابل الشاه فى المعسكر الملكى فى جمادى الاولى سنة ١٠١٣ هـ بناء على أوامر الشاه عباس ٠

ولم نقف على الهدف من بعثة لويس بريرا أو مضمون الرسائل التى احضرها للشاه عباس ولكن كل ما نعرفه هو أن شاه ايران أرسل معه الى اسبانيا أحد كبار قواده وهو امام قلى بك باكيزه التركمانى وهو الذى كان قد ذهب قبل هذا فى سفاره الى بلاط قيصر موسكو كما سبق أن ذكرنا ٠

---

(٤) Lauis Pereira de Lazarda

أول سفارة لروبرت شيرلي الى أوربا

كان الشاه عباس ينتظر الفرصة دائما لكى يستعيد جــزيرة هرمز ومراكز التجارة الاسبانية والبرتغالية على السواحل الايرانية للخليج من السيطرة الاسبانية ولكن تحقيق هذا الهدف كان يبدو مستحيلا باستخدام القوات البرية وحدها ، ولما كان شاه ايران لا يمتلك سـفنا حربية فقد أراد أن يتحد مع احدى الدول الاوربية المنافسة لاسـبانيا والتى لها قوات بحرية مثل انجلترا أو هولندا ويحقق هدفه بمساعدة سفن تلك الدولة • ومن ناحية أخرى كان الشاه عباس يستطيع أن يحارب أسبانيا بكل ارتياح اذا اطمأن من ناحية الاتراك العثمانيين ولهذا كان يسعى دائما لتشكيل اتحاد مع ملوك أوربا المسيحيين ضد الدولة العثمانية لكى يهزم عدوه الغربى القوى ولمـا ظل حتى عـام ١٠١٦هـ دون أن يحصل على نتيجة من قدوم السفراء من أوربا وذهابهم اليها والعكس فقد سارع بارسال روبرت شيرلى الذى سبق أن اشرنا اليه من قبل ـ مثل أخيه ـ مع رسائل وهدايا كثيرة وبصحبته جماعة من الايرانيين الى بلاط كبار ملوك أوربا وكان هذا الرجل الانجليزى خلال اقامته فى ايران قد أدى خدمات جليلة للشاه عباس ـ كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد ـ وخاصة البطولات التى كان قد ابداها فى الحروب الايرانية العثمانية •

تحرك روبرت شيرلى ومرافقوه فى ٢٤ شوال سنة ١٠١٦ هـ (١٢ فبراير ١٦٠٨ م) من اصفهان وتوجهوا الى أوربا عن طريق مازندران وبحر قزوين وكان من بين مرافقيه الكابتن توماس باول (١) الضابط الانجليزى الذى أدى خدمات كثيرة فى تدريب الجيش الايرانى • وبعد

(١) Thomas Powel

عبورهم روسيا وصلوا الى مدينة كراكوفيا (٢) التى كانت عاصمة بولندا انذاك وقد استقبلهم ملكها سيجيسموند (٣) بكثير من الترحاب والاحترام ولا نعرف مدة بقاء روبرت شيرلى فى بلاط ملك بولندا ولكن ما نعلمه أن شيرلى كان فى مدينة براغ فى ربيع الاول سنة ١٠١٨ هـ (يونيو ١٦٠٩) .

وفى مدينة براغ استبقى رودلف الثانى امبراطور المانيا روبرت شيرلى ومرافقيه مدة فى بلاطه ومنحه رتبة فارس كونت دى بلاتين(٤) بسبب الخدمات العظيمة التى أداها للعالم المسيحى عن طريق الحرب التى خاضها ضد الاتراك العثمانيين ، كما اعطاه رسالة الى جيمس الاول ملك انجلترا شرح فيها خدمات روبرت شيرلى للمسيحيين الايرانيين ، وقد أراد روبرت شيرلى أن يذهب مباشرة من براغ الى انجلترا ولكن حينما علم كونت سالزبورى وزير جيمس الاول بهذا أبلغه أن ملك انجلترا يفضل أن يذهب الى انجلترا بعد انتهاء مهمته فى بلاط كل ملوك اوربا .

لهذا السبب توجه روبرت شيرلى الى ايطاليا فوصل مدينة روما يوم الاحد ٢٨ جمادى الثانى سنة ١٠١٨ هـ (سبتمبر ١٦٠٩ م) بكثير من الاحترام والعظمة . وفى اليوم التالى حينما قابل البابا بول الخامس قدم اليه رسالة الشاه عباس وأشار الى رغبة الشاه الايرانى التامة فى الاتحاد مع الملوك المسيحيين ضد السلطان العثمانى ، وقد تحدث اليه البابا بعطف ومحبة . وفى مقابلة أخرى منحه لقب كونت قصر لاتران المقدس (*) .

---

(٢) Cracovie

(٣) Sigismond

(٤) Conte de Palatin

(*) قصر لاتران كان قد بناه بلوتيوس لاترانوس أحد معاصرى نيرون امبراطور روما والذى قتله نيرون لكى يصادر أمواله ، وقد منح قسطنطين الكبير امبراطور روما هذا القصر للبابا ملكيا ، وظل مدة مقرا للبابا ولكنه تحول الى متحف للاثار المسيحية منذ ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣) ولازال لليوم تابعا للبابا .

وعند مغادرة روبرت شيرلى لروما أعطاه البابا والكاردينال بورجيزى هدايا كثيرة وتوجه شيرلى من روما الى ميلانو ومن هناك الى ميناء جنواثم توجه الى برشلونة عن طريق البحــر ·

وحينما وصل الى برشلونه طلبوا منه أن يبقى فى تلك المدينـة انتظارا لاوامر الملك فقد كان ملك أسبانيا ووزيره دون ليروا ينظران الى بعثة روبرت شيرلى بعين الشك وقال برادو ــ أحد سكرتيرى ملك أسبانيا لفرانسيس كوتينجتون سفير انجلترا انه لما كان هنـــاك أشخاص كثيرون ياتون من تلك البلاد البعيدة (ايران) ويدعون انهم سفراء ، لهذا فان جلالة الملك لن يقابل شيرلى حتى يتأكد من صحة سفارة مثل هؤلاء الاشخاص الى جانب أن هذا الشخص لا يبـدو أنه رجل عاقل لانه لو كان عاقلا لمـا وضع على رأسه عمامة المســلمين بينما هو رجل مسيحى (**) ولهذا السبب اضطر روبرت شـــيرلى الى السفر على نفقته من برشلونة الى الكالا ومنها الى ارانخويز محل اقامة الملك فى الربيع وحينما قابله الملك فى شوال سنة ١٠١٨ هـ (يناير ١٦١٠) قدم اليه رسالتين كانتا معه من الشاه عباس وكذلك رســالة شفوية من فيليب الثالث الذى أراد أن يتحد مــع بقية ملوك أوربا ويشن حــربا شديدة على السلطان العثمانى ، ولكن الملك رد عليه ردا مختصرا وتحدثت معه الملكة فى الموضوعات العادية وقابلاه ببرود مما أغضب روبرت شيرلى وجعله يشتكى الى وزير الملك ·

ذهب روبرت شيرلى من ارانخويزالى مدريد وظل هناك شهرين ضيفا على ملك أسبانيا ، وحينما علم أن ملك انجلترا مستعد لمقابلته كسفير اخـذ فى السعى للسفر الى انجلترا وذهب لمقابلة فيليب الثالث فى منتصف ذى الحجة سنة ١٠١٨ (مارس ١٦١٠) ليحصل على

(**) كان روبرت شيرلى يرتدى الملابس الايرانية ويضع عـلى رأسه عمامة القزلباشية باذن من الشاه عباس مع وضع صليب صغير عليهـا ·

اذن بالسفر فأعطاه ملك أسبانيا رد خطابات الشاه عباس رأربعـــة آلاف دوقة له شخصيا ، ولكن روبرت شيرلى اضطر للبقاء فى أسبانيا حتى صيف ١٠٢٠ وفى هذه المـــدة أحضر زوجته (٥) التى كانت قد بقيت فى بولندا الى مدريد وانذاك وصل انطونيو دى جوبا ودنجيزبك روملو الى أسبانيا فى شهر جمادى الاولى ١٠١٩ (١٦١٠ م) وكانا قد غادرا ايران متجهين الى أسبانيا سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) كما سيأتى ذكره فيما بعد وقدما هدايا قيمة من الحرير والاقمشة الحريرية والجواهر الثمينه لفيليب الثالث فوافق الملك الاسبانى الى حد ما على قبول مقترحات روبرت شيرلى فيما يتعلق بتجارة ايران رأسبانيا وشروط الشاه عباس لارسال حرير ايران عن طريق هرمز والهند الى أوربا وتقرر أن يعود روبرت شيرلى بالسفينة من ميناء ليشبونه الى ايران ٠

ولـما كان رد الملك النهائى على مقترحاته قد تاخر فقد صـــمم روبرت شيرلى على الذهاب الى انجلترا وعرض مقترحاته التجـارية على جيمس الاول ٠ ويتضح من الرسائل التى كتبها كيتنجين سفير انجلترا الى لورد سالزبورى وزير جيمس الاول أن روبرت شيرلى كان يخشى من معاملة ملك انجلترا له باعتباره أحد الرعايا الانجليز ولا يستقبله بالتشريفات والتقـاليد التى يستقبل بهـا السفراء الاجانب ولهذا فسوف يعد مقصرا ومسئولا أمام الشاه عباس ، كما كان يعتقد أن البلاط الاسبانى سوف يعارض سفره الى انجلترا وكان يريد أن يعرف ماذا سيفعل ملك انجلترا لكى يحصل له على اذن بالخروج من أسبانيا ٠ كما كان قد أبلغ الوزير بمضمون الموضوعات التى كان يريد عرضها باسم الشاه عباس على ملك انجلترا ٠ وبناء على مقترحاته فان الشاه عباس كان يوافق على أن يقيم التجار الانجليز فى مينائين من موانى جنوب ايران مراكز تجارية وأن يكون للحكومة الانجليزية

(٥) اسمها تريزيا وكانت بنت أحد كبار الشركس واسمه اسماعيل خان وقد زوج الشـــاه عباس هذه الفتاة لروبرت شيرلى سنة ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧ م ٠

ممثلون سياسيون فى الميناثين ، وان يكون لموظفى شركة الهند الشرقية الحرية الكاملة فى شئونهم التجارية فى الميناثين وكان كوتينجين قد سأل شيرلى عن سبب عدم قبول ملك أسبانيا لمقترحاته ٠ ورد شيرلى قائلا أن ذلك لسببين : أحدهما أن فيليب الثالث لا يرغب فى الدخـول فى حرب مع السلطان العثمانى ٠ والثانى أنه لا يريد ان يتنازل عن الرسوم الجمركية الباهظة التى يحصل عليها من الصادرات الاسبانية للدول الشرقية ٠

وكان الهدف الأصلى من وراء ذهاب شيرلى الى انجلترا هو ان يعقد اتفاقية تجارية مع جيمس الأول بناء على أوامر الشاه عباس ويفتح طريقا جديدة لتصدير الحرير الايرانى وبقية البضائع الايرانية الى أورباحتى لا يضطر التجار الايرانيون الى ارسال تجارتهم الى اوربا عن طريق الأراضى العثمانية ، وبهذا يحرم السلطان العثمانى من الرسوم الجمركية الباهظة التى كان يتقاضاها على مرور البضائع الايرانية ٠

ولقد أبتلى روبرت شيرلى فى أواخر أيام اقامته فى أسبانيا بعداوة ومخالفة أخيه السير أنتونى شيرلى الذى كان قد جاء من ايطاليا الى اسبانيا مسكينا مفلسا ، فقد كان يتهمه بأن الغرض من ذهابه الى انجلترا هو عدائه للحكومة الاسبانية والقيام بالتحريض ضدها ٠ وكان روبرت يخشى أن يدسوا له السم فى أسبانيا ، وكان يسعى لمغادرة تلك البلاد بأسرع ما يمكن ، واستطاع فى النهاية أن يحقق هدفه ويتمكن مع زوجته تريزيا فى ربيع الاخر سنة ١٠٢٠ هـ (يونيو ١٦١١م) من رؤية بيت ابائه فى انجلترا رغم مؤمرات أخيه،واستقبله جيمس الاول ملك انجلترا فى٢٣ رجب من نفس العام (أول أكتوبر ١٦١١م) فى قصر همبتون كورت(٦) واطلع على خطابات اعتماده ، وبعد اثنى عشر يوما كلف أربعة من

---

(٦) قصر هميتون كورت أحد القصور الملكية الانجليزية فى قرية هميتون على مقربة من لندن على شاطىء نهر التيمز وهو من القصور القديمة الجميلة فى انجلترا ٠

التجار الانجليز الأعضاء فى شركة الهند الشرقية ببحث مقترحات شيرلى.
وسوف نتحدث بالتفصيل عن سفارته الى إنجلترا فى الفصل الخاص
بعلاقة الشاه عباس مع الحكومة الانجليزية ٠

بعد أن اقام روبرت شيرلى نحو عام ونصف في انجلترا صمم
على العودة الى ايران وبناء على أمر جيمس الأول فقد كلفت احـــدى
السفن الانجليزية بتوصيله ومرافقيه عن طريق البحر عبر جنوب افريقيا٠
وقد وصل شيرلى وزوجته (٧) ومرافقوه فى أواخر سنة ١٠٢٣هـ الى
ساحل الهند ، وفى جمادى الاولى من العام التالى وصلوا الى اصفهان

---

(٧) وضعت تريزيا زوجة روبرت شيرلى طفلا في انجلترا سمياه
هنرى ، وقد تركه شيرلى في انجلترا عند عودته الى ايران ٠

بقية قصة السير أنتونى شيرلى

بعد أن انفصل السير أنتونى شيرلى فى مدينة روما عن حسين على بك بيات سفير الشاه عباس فى المحرم سنة ١٠١٠ هـ (يوليو ١٦٠١ م) وكما سبق أن ذكرنا ذهب الى ميناء أنكونا ومن هنـاك توجه الى فينسيا حيث بقى هناك ٣ سنوات • ولما كان أثناء اقامته الاولى فى مدينة براغ (١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م) قد ترك المذهب الرسمى لانجلترا ودخل فى المذهب الكاثوليكى فقد غضبت عليه اليزابيث ملكة انجلترا وحرمته من حمايتها وحتى من العودة الى انجلترا ولكنه فى سنة ١٦٠٥ م (١٠١٣ ـ ١٠١٤ هـ) عاد مرة ثانية الى مدينة براغ ، فكلفه رودلف الثانى امبراطور المانيا بسفارة الى مراكش وفى نهاية هذه البعثه سافر الى ليشبونه عاصمة البرتغال • وفى هذا الوقت كان فيليب الثالث ملك أسبانيا يريد ارسال أنطونيو دى جويا القس فى جماعة سان أغسطين كسفير الى الشاه عباس مرة ثانية لكى يشكو من حملة خان فارس على جزر البحرين وممتلكات البرتغال على ساحل الخليج ولكى يزيد من أهمية هذه البعثة ويحملها بخبر تحرك عسكرى جديد ضد السلطان العثمانى وفى نفس الوقت يرضى الشاه عباس الذى كان دائم الشكوى من تهاون وحياد حلفائه الاوربيين• لهذا فقد عين السير أنتونى شيرلى فى خدمته وكفله بقيادة مجموعة صغيرة من السفن الاسبانية لكى يتجول بها فى البحر المتوسط ويحارب بكل قـواته ومشيئته القوات البحرية العثمانية والهولندية سواء فى البحـر أو البر •

وكان السير انتونى شيرلى قد قطع أخباره مدة عن البلاط الايرانى ولهذا سارع بكتابة رسالة الى الشاه عباس يعلمه بمهمته العظيمة الجـديدة • وقد وصلت رسالته فى جمـادى الاخرة سنة ١٠١٧ هـ (أغسطس ١٦٠٨) عـلى يد قسيس برتغـالى (١) الى اصفهـــان

---

(١) ذكر انطونيو دى جويا اسم هذا القسيس فى رحلته الثانية وهو دومينيكو ستروبن Dominico Stropen

وقدمها أنطونيو جويا الذى كان موجودا انذاك فى المدينة الى الشاه عباس ، ومضمون هذه الرسالة التى ترجمت فى ذلك الوقت الى الفارسية بواسطة أحد القسس الكرمليين المقيمين فى أصفهان هو :

« اعرض على الجناب العالى نائب الامام الموفق السعيد الاشرف الاقدس الارفع الاعلى خلد الله ملكة انه منذ حرمت من خدمتكم فاننى لم أتوان دقيقة واحدة عن الخدمات التى كنتم كلفتمونى بها . ولم يحدث أى تقصير منى فى أى أمر ولو أننى تجرعت محنة هذا السفر وقاسيت ألم الغربة ولكننى جعلت ملك الفرنج صديقا صدوقا لكم. وقرر ملك اسبانيا وصمم على أن يحارب الروم (العثمانيين) دائما بشكل لا يقبل السلم أبدا وعين العبد الحقير (شيرلى) قائدا واصدر أمرا بأن أفعل ما أشاء فى البر والبحر ولن يعفنى من خدمته وما يحدث بعد هذا سوف أعرضه على جلالة الهمايون وقد ذكر قبل هذا أن ملك المجر تصالح مع سلطان الروم (العثمانى) وكان هذا ضدنا ولكن الان ازدادت عدواتهما وقد جمعوا سفنا كثيرة وجيوشا لاتحصى واتفق ملوك الفرنجة واتحدوا على محاربة الاتراك ولما كانت الصداقة الوطيدة تربط بين الشاه الاعلى وملك أسبانيا فقد كان من الضرورى أن أذكر بعض الاشياء التالية :

فيما يتعلق بالحرير فلقد تقرر أن تتم تجارته فى هرمز لان الفرنجة يحملون كل عام كثيرا من الذهب وتجارة كثيرة من أدوات الحرب الى سلطان الروم ويتاجرون فيها فاذا توقف تعامل الجانبين ازدادت عداوتهما . وقد أرسل ملك أسبانيا أمرا الى قائد هرمز بالا يتقاضى نفقات أزيد من الواقع من العجم التابعين للشاه والذين يحضرون الحرير الى هرمز وأن يرعاهم ويحترمهم وتقرر أن يتم التعامل على الحرير فى هرمز . ومن المتوقع انه حين يقرأ الشاه الرسالة أن يرسل ما يراه من هدايا لان ملك أسبانيا أبدى من المحبة أن يقوم ملوك الفرنجة بتقديم أية مطالبات يطالب بها الشاه وسوف أقوم بأى عمل يجب اتخاذه امره أعلى .

أمر الشاه عباس باعداد رد على رسالة السير أنتونى شيرلى بعد بضعه أيام من استلامها وقد أرسل الرد مع نفس القسيس الذى أحضر الرسالة ومضمونه :

الأمر الهمايونى أن الأمير العزيز البيك زاده الاكرم الدون انطونيو شيرلى قد حظى بغاية الشفقة الملكية وافتخر بالمراحم الهمايونية الوافرة ولتعلم أن عرضتم وكتبته للسرير (العرش) الاعلى وأرسلته مع رسولك قد وصل وعرف مضمونه وأنك منذ ذهبت من البلاط الاعلى لم تقصر فى خدمتك ولم تنسنا ولم تنصرف عن عداوة أعدائنا وأنك تسعى فى زيادة محبة وصداقة ملوك الفرنجة وملك المغرب مع جلالة الهمايون • وقد عرف انحيازك لنا واخلاصك وأنك لاتقصر فى الخدمة وماذكرته من أنك الآن فى خدمة صاحب الجلالة الملك الرفيع العظيم عالى الجاه ملك الفرنجة • ولما كان قد منحك قيادة البحر فقد سرنا هذا وأسعدنا وما شرحته عما يكنه من محبة لنا فنحن كذلك لدينا عشرة أضعاف هذه المحبة له ونحن نسعد لانتصاراته وفتوحاته وأن ماقلته من أنه سعى ويسعى حتى لا يحدث صلح يبين ملوك الفرنجة وجماعة الاتراك وان ماذكر من أن ملك المجر قد تصالح مع الروم وهو خطأ وأنك ذهبت الى هناك وأزلت هذا الصلح ولعلك من الذين يعلمون ما هى الحروب العظيمة التى وقعت بيننا وبين الجيوش الرومية (التركية)وما أخذناه منهم من قلاع حصينة وعلى مدى هذه السنين التى حاربناهم فيها لم يحدث من سلاطين الفرنجه أية حركة ولم نسمع أنهم قد تحركوا من الناحية الاخرى • وعلى أية حال فنحن معهم فى حروب ومناوشات على هذا النهج ولن نكف عن حربهم ويجب عليك أن تسعى بشكل ما حتى يتحرك الفرنجة لمحاربة الاتراك ولا يقصروا فى هذا السبيل •

أما ماكتبته عن موضوع الحرير وحتى لايحمل الحرير بعد هذا من بلاد العجم الى حلب ويأخذوه الى هرمز ويبيعونه هناك ، ومما يبديه الفرنج للروم (الاتراك) من صداقة بسبب الذهاب والمجئ الى حلب وأخذ الحرير وأن هذا سوف يقضى عليه فهذا أمر جيد فما أفضل أن يحمل الحرير الى هرمز ويحضر تجار الفرنجة تجارتهم ومتاعهم الى هناك ويحملون الحرير بدلها ، وسوف نأمر – أن شاء الله تعالى منذ الآن أن يحمل تجار العجم الحرير الى هرمز ويبيعونه هناك وعليهم أن يأمروا بحسن معاملة التجار

فى هرمز وألا يأخذوا منهم رسوما زائدة حتى يبعث هذا على اقبال التجار فانه حينما يسمع التاجر أن الرسوم أقل ، وأكثر اقتصادا فى الذهاب الى هرمز فانه سوف يحمل الحرير الى هرمز لفائدته وعليك أن تبدى ولاءك فى كل شىء وأن تعرض علينا كل الحقائق والاحوال والاخبار هناك وأن تقدم أية مطالب قد تكون لك لأنها سوف تقترن بالانجاز والسرعة · تحريرا فى جمادى الثانى سنة ١٠١٧ هـ » ·

بعد أن أرسل السير أنتونى شيرلى خبر توليه قيادة القوات البحرية الاسبانية الى الشاه عباس سافر الى ميناء نابولى سنة ١٠١٦ هـ وأصبح عضوا بالمجلس الاستشارى للحكومة هناك (٢) ، ثم عاد فى سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) الى مدريد وهناك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تقابل مع أخيه روبرت شيرلى الذى كان قد أرسل الى بلاط فيليب الثالث وهناك خالفه وعاداه · وليس لدينا علم تام عما حدث له على مدى خمسة وعشرين سـنة وكل مانعلمه أنه كان يتقاضى راتبا من ملك أسبانيا وكان يعيش فى فقر وعوز حتى توفى سنة ١٦٣٥ م (١٠٤٤ ـ ١٠٤٥ هـ) ·

---

(٢) حرض السير أنتونى شيرلى نائب الملك الاسبانى فى نابولى وهو الكونت دى بنافنت Conte de Benavent على الكتابة للشاه عباس حتى حتى يرسل حرير ايران عن طريق هرمز بدلا من الاراضى العثمانية فكتب الكونت رسالة فى هذا الصدد أرسلها مع قسيس الى بلاط ايران وأمر الشاه حاتم بك اعتماد الدولة أن يرد على خطاب نائب الملك بالموافقة على اقتراحه وحتى يبرهن على حسن نيته فانه سيرسل لاوربا مالديه من حرير فى اصفهان مع انطونيو دى جوفيا ودنكيز بك روملو اللذان سيذهبان فى سفارة الى أسبانيا حتى يقع ماقد يكون من أخطار عليه شخصيا وبهذا يطمئن التجار الايرانون ويرسلون حريرهم الى أوربا عن طريق هرمز ثم أمر بحمل ما فى أصفهان من حرير لكى يرسل مع السفراء (رحلة جوفيا ص ٤٦٧ و ٤٦٨) ·

السفارة الثانية لانطونيو دى جوفيا(١)

بعد أن استولى أمير أمراء فارس فى سنة ١٠١٠ هـ على جزر البحرين مع بعض القواعد العسكرية والتجارية للبرتغال فى الخليج بناء على أوامر الشـاه عباس أرسل الحاكم البرتغالى لجزيرة هرمز تقريرا فى هذا الصدد الى ملك أسبانيا ، واشتكى من السلوك العدائى للشاه عباس وحاكم اقليم فارس • وقد وصل هذا التقرير فى نفس الوقت الذى وصل فيه أنطونيو دى جوفيا واله وردى بيك التركمانى مع رسالة وهدايا من الشاه عباس الى البلاط الاسبانى • وعندما علم فيليب الثالث بهجوم القوات الايرانية على البحرين اعاد انطونيو دى جوفيا مع الرسالة والهدايا مرة أخرى الى ايران•

وكان ملك أسبانيا قد كتب رسالته ؛ أنه حتى تاريخ كتابة الرسالة (رمضان ١٠١٦ هـ ـ يونيو ١٦٠٨ م) فان سفيره لويس بربيرا دى لازردا(٢) وأمام قلى بك باكيزه التركمانى لم يكونا قد وصلا الى أسبانيا بسبب عدم وجود سفن تحملهم من الهند كما أنه لا يعلم شيئا عن أخبار صديقه العزيز الشاهنشاه الصفوى فانه يرسل أنطونيو دى جوفيا كسفير اليه ، كما هنـــا الشاه عباس على انتصاراته وحروبه مع العثمانيين وذكر أن قواته البحرية فى البحر الابيض المتوسط قد ألحقت بالسلطان العثمانى خسائر فادحة كما تمنى من الشاه أن يعد الامبراطورية الاسبانية مثل ايران كأنها ملك له وتحدث عن الاستيلاء على البحرين وقال أنه لما كانت الصداقة وطيدة بين ملكى ايران وأسبانيا فانه يجب على مرؤسيهما أن تقوم بينهم أواصر الصداقة والمودة وعاتبه على سلوك أمير امراء فارس لاستيلائه على البحرين والتطاول على بعض القلاع وموانى ساحل ايران التى تتعلق بأمير هرمز التابع له • وكتب فى نهاية الرسالة أنه يأمل أن يكون الشاه عباس راضيا عن القسس الكاثوليك والمبشرين المقيمين فى ايران ويرجو ألا يتوانى شـــاه ايران عن بذل رعايته وحمايته لرجال الذين المسيحىالذين جاءوا الى ايران•

حينما وصلأنطونيو دىجوفيا من سبانيا الىالهند أرسلدوم الكسيس دى منزيس أسقف ميناء جواقسيسا آخر اسمه غليوم دى جبسوس برفقة

---

(١) Antonio de jouvea
(٢) Luis Perierra de Lazerda

أنطونيو دى جوفيا الى ايران بناء على أوامر فيليب الثالث ملك أسبانيا فوصل الاثنان من الهند الى اصفهان فى منتصف ربيع الأول سنة ١٠١٧ هـ (أواخر يونيو ١٦٠٨ م) وبعد ستة أيام من وصولهما ذهب الشاه عباس الى همدان وأمر المضيف السلطانى* بأن يصحب انطونيو دى جوفيا ومرافقيه أيضا الى همدان ٠

فى نفس اليوم الذى التقى فيه القس الاسبانى بالشاه وقدم رسالة ملك أسبانيا وهداياه قال له الشاه عباس أن عليه أن يعود مرة أخرى الى روما وأسبانيا ويحرض البابا وملك أسبانيا على حرب الاتراك العثمانيين وكتب أنطونيو دى جوفيا نفسه فى هذا الشأن يقول :

« فى نفس يوم تقديم الهدايا للشاه قال لى أنه يجب على أن أذهب مرة أخرى الى أسبانيا وروما مع السفير الذى يعينه وأن أحرض البابا وملك أسبانيا على حرب الاتراك ، فقلت ان أوامر ملك أسبانيا عكس هذا ، فقد أراد أن اقيم فى بلاط جلالتكم فقال الملك لابد أنك تذكر أنه فى رحلتك الاولى حرضتنى على حرب الاتراك والآن يجب أن تحث ملوك الفرنج على الحرب٠ فعدت الى خيمتى وحزنت من التفكير فى هذا السفر الطويل وبعد هذا مرضت وطلبت الاذن للعودة الى اصفهان (لان معسكر الشاه كان قرب همدان) ولكن الشاه لم يأذن لى وكلف أطباءه بعلاجى ولكنى ذهبت فى النهاية الى اصفهان وعرضت أمر الشاه على كل القسس الذين كانوا فى تلك المدينة وتقرر أن أقبل هذه السفارة اذا أصر الشاه على طلبه » ٠

وكان الشاه عباس قبل هذا ببضعة أشهر (فى سنة ١٠١٦ هـ) عندما كان يحاصر قلعة شماخى فى منطقة شروان علم عن طريق جواسيسه أن رودلف الثانى أمبراطور المانيا عقد صلحا مع السلطان أحمد خان العثمانى فتأثر جدا من هذا الخبر وتغير لأن الامبراطور كان قد كتب اليه رسالة وتعهد بالا يعقد صلحا ابدا مع السلطان العثمانى ولهذا كان الشاه عباس يحترمه أكثر من كل ملوك الفرنجة ويعزه ويقول أنطونيو دى جوفيا فى هذا الشأن :

* المضيف السلطانى أو الملكى هو المسئول عن استقبال ضيوف الملك واقامتهم والقيام نحوهم بواجب الضيافة ٠

« كان امبراطور المانيا خصوصا قد كتب رسالة الى الشاه عباس وعده بالا يعقد مطلقا معصلحا السلطان العثمانى · وكان الشاه عباس يحتفظ بهذه الرسالة وعرضها على ذات يوم وكان يعتقد أن أمبراطور المانيا سوف يبر بوعده ولهذا كان يحترمه جدا حتى أنه وضع صورة له فى مدخل حجرته الخاصة وكان يحنى رأسه احتراما له فى كل مرة يدخل فيها حجرته(٢) · وقد تعجبت من هذا العمل الذى شهدته بنفسى ذات يوم ولما رأى الشاه تعجبى سالنى هل تعرف هذا الرجل ؟ فقلت لا أعرفه قال هذه صورة امبراطور المانيا والذى يستحق الاحترام لانه يحارب الاتراك » ·

وقد غضب الشاه من صلح امبراطور المانيا والسلطان العثمانى وتأثر لدرجة أنه قال يوما لانطونيو دى جوفيا ومرافقيه يوبخهم « أن المسيحيين لم يعودا اقوياء كما كانوا فىالسابق كما أنهم لايرتبطون بأقوالهم أو قراراتهم·· لقد أخذت بقوة سيفى مائة وخمسا وعشرين قلعة من الاتراك ولكن ملوك الفرنجة بدلا من أن يستغلوا هذه الفرصة المناسبة يتجهون للصلح مع السلطان العثمانى · ومع هذا الوضع كيف تتوقعون أن أسمح لكم ببناء كنيسة فى بلدى وأشجع الارمن على طاعة البابا الاعظم وأترككم تدقون الاجراس فى البلاد الايرانية اذهبوا واشكروا لاننى لا احطم نواقيسكم ولااهدم كنائسكم ولا اخرجكم من البلاد··· » فقال أحد القسس اذا كان ملك المانيا قد تصالح مع الاتراك فما ذنب ملك أسبانيا الذى أرسلنا كسفراء وكذلك البابا الاعظم الذى لم يكن له شأن فى أمر الصلح ؟ » فاجاب الشاه لقد ذكرتم مرارا أن ملك أسبانيا تربطه قرابة بملك المانيا وكلاهما يطيع البابا وعلى هذا فمن المؤكد أنهم قد تشاوروا معا فى مثل هذا الامر الهام » ·

بعد أن عاد أنطونيو دى جوفيا من اصفهان الى المعسكر الملكى أحضره الشاه عباس على الفور وقال له أشياء من الافضل أن ننقلها عينا من رحلة ذلك القسيس حيث كتب :

---

(٢) كان الشاه عباس ينحنى احتراما لصورة امبراطور المانيا التى وضعها أعلى مدخل حجرته الخاصة كلما دخل اليها لمجرد أنه أرسل له رسالة يتعهد بالا يعقد صلحا مع العثمانيين ، الى هذا الحد بلغ احترامه لمن يحارب العثمانيين (المترجم) ·

« أبدى الشاه سرورا لعودتى وحينما رأى أن حالتى حسنة قال اذا لم يكن مرضك مصطنعا فهو لم يكن خطرا أيضا فقلت أن المسيحيين قليـلا ما يكذبون خصوصا وأن عملنا يستلزم الصدق ولكن العناية الملكية شملتنى، فقد شفيت بسرعة فقهقه الشاه وقال لقد تصورت أنك مرضت خوفا من العودة الى أسبانيا فأجبت « توجد علل كثيرة يمكن أن تمنعنى من العودة الى أسبانيا الاول : أن ملك أسبانيا أمر أن أبقى فى ايران • الثانى أن امام قلى بـك باكيزه الذى أرسلته جلالتك مع لويس بريرا الى أسبانيا لم يعد للان كما أن روبرت شيرلى لم يعد أيضا وأعتقد أن موضوع هذه السفارات جميعا وأحد وأخيرا فان ذهابى لا فائدة منه • فقال الشاه : فيما يتعلق بأمر الملك والذى قال لك ابق فى ايران فاننى أتحمل مسئوليته وأما عن كثرة عدد السفراء فهذا لا يدعو للعجب لاننى أقدمت على أمر عظيم واذا قدر أن أدافع وحدى أمام الاتراك فاننى سوف أهزم(٣) ، خاصة وأن التتار (الاوزبك) يهددوننى من الناحية الاخرى ، وعلى هذا فان ارسال عدة سفراء ليس أمرا غريبا فعلى أن أجبر ملوك أوربا على الوفاء بتعهداتهم ويجب عليك أن تذهب وتحـدث البابا على معاتبة الامبراطور الالمـانى لتصالحه مع الاتراك العثمانيين ، وتطلب منه أن يدخل فى الحرب ضد السلطان العثمانى لانه من غير المستحب عند الله أن يضع البابا وبقية حكام الفرنج يداى فى هذا الامر الخطير ثـم يتصالحون ويتصادقون مع الاتراك وأنت نفسك الذى كنت سبب حـربى مع الاتراك فأنت أيضا يجب أن تضحى فى هذا السبيل » •

وكانت بضعة قطرات من الدموع قد تساقطت أثناء هذا الحديث من عينى الشاه من الحزن أو من التأثر • فقلت « كنت أرجو أن تكون ارادة كل ملوك أوربا مرتبطة برغبتى حتى كنت أدفعهم جميعا لحرب السلطان العثمانى ولكننى آسف لان الامر غير هذا • وعلى أية حال فحينما يشاء الملك فاننى سأكون مستعدا للحركة • فسر الشاه كثيرا ورجوته أن يعد الخطـابات الرسمية وأن يسمح لى أن اصطحب معى خليفة الارمن لمقابلة البابا الاعظم• فقال الشاه : تعلم أننى أعطيت الحرية للمسيحيين كافة فى ايران ولاأستطيع

---

(٣) وهذا اعتراف خطير من الشاه عباس أن انتصاراته على العثمانيين كانت بمساعدة الدول المسيحية التى كانت تساعد الشاه عباس كما كانت تهاجمهم العثمانيين من الغرب (المترجم) •

أن أجبر خليفة الارمن على أن يأتى معك · ولكن اذا أرضيته فلا شأن لى والحقيقة أننى أرغب فى أن برسل حضرة البابا قسا كبيرا الى ايران ليكون خليفة لكل المسيحيين »(٤) ·

بعد هذا استدعى الشاه عباس أحد قواده المشهورين واسمه دنجيز بك قورجى روملو والذى كان حاكما على مدينة كمره وأمره بالاستعداد للسفر وأن يذهب الى أسبانيا وايطاليا بصحبة أنطونيو دى جونيا · كما كتبوا بناء على أوامره رسائل الى البابا وملك أسبانيا وقرأوها فى حضور القس ودنجيز بك ثم سلمها لدنجيز بك وأذن له والقس فى السفر ، كما أرسل معه أحد كبار التجار الارمن واسمه خواجه صفر مع خمسين حملا من الحرير لكى يبيعها فى أسبانيا ويفتتح طريق تجارة الحرير الايرانى الذى كان احتكارا للشاه وحده مع أسبانيا وبقية الدول الاوربية عن طريق البحر عبر الهند وجنوب أفريقيا ·

ويبدو أن الشاه عباس كتب رسالة على حدة مع كلا السفيرين الى ملك أسبانيا ، فقد جاء فى مقدمة الرسالة التى أعطيت لانطونيو جوفيا :

أنا سالم بحمد الله ودائما فى حرب ضد الاتراك العثمانيين الاعداء المشتركين لبلدينا ، وسوف أحصل على انتصارات جديدة وقد وصلت الى ما طلبت حتى الان · ثم أبدى شكره على أن أرسل ملك أسبانيا هذا القس كسفير اليه مرة أخرة ، ثم طلب منه أن يرسل رجلا لائقا كقنصل فى ايران يقيم بها ويقف على شئون المسيحيين ويعمل على محاكمة ومجازاة المجرمين المسيحيين طبقا لمبادىء وقوانين المسيحية·

ثم كتب بعد ذلك يقول « ان جلالتك أرسلت منذ سبع سنوات نفس هذا القس انطوان (انطونيو دى جوفيا) كسفير الى لكى يحرضنى على حرب الاتراك العثمانيين ولا شك أنكم علمتم بالحروب التى خضتها

(٤) رحلة انطونيو دى جوفيا ص ٤٥٢ ــ ٤٥٥ ·

ضد الاتراك بناء على رغبتك وكلام هذا القس وتعلمون أننى استوليت منهم على مدن وقلاع كثيرة · ومن مقتضيات المحبة والصداقة أننى لما كانت قد قمت بواجبى أن تشجع جلالتك حلفاءك وأصدقاءك ومرؤوسيك على محاربة السلطان العثمانى · وكما لاحظتم جلالتكم أننى أحب المسيحيين ولهذا فاننى أرغب أن يرسل من عندكم قس ذو قدر لتكون له الرئاسة على كل المسيحيين فى ممالكى ويقيم فى أوتش كليسا التى هى مركز كل أرمينيا ومكان مقدس فى كل البلاد التابعة الى ونظرا للمحبة التى أكنها لكم فقد منحت كل القسس والروحانيين المسيحيين المقيمين فى عاصمتى منازل ومساكن لائقة ويستطيعون جميعا اقامة منازل أخرى طبقا لرسومهم ورغبتهم وبهذه الرسالة التى تعبر عن علاقتى بجلالتكم والتى يحملها دنجيز بك أحد كبار رجال بلاطى وجيشى فاننى أتوقع أن تسمحوا له بالعودة بأسرع ما يمكن وسوف يعرض عليكم بعض الموضوعات التى لم تذكر فى هذه الرسالة · وفيما يتعلق بتجارة الحرير فاننى سأحاول أن أخرجها من يد الاتراك العثمانيين وأحولها لرجالكم وأدير تجارته عن طريق هرمز ويكون من الاحسن لو أرسلت أحدا من قبلك الى جزيرة هرمز ليحافظ على مصالح التجار الايرانيين حتى لا يتضرر الاشخاص الذين يحملون الحرير من اصفهان الى هناك ولا تلحقهم خسائر ما (٥) ·

وقد كرر الشاه عباس نفس هذه الموضوعات تقريبا فى الرسالة الاخرى التى بعثها مع دنجيز بك روملو الى فيليب الثالث مع قليل من الزيادة أو النقص · ولما كان ملك أسبانيا قد طلب منه أن يكف يد التجار الانجليز عن تجارة الحرير الايرانى وألا يسمح لسفن هذه الدولة بالدخول للموانى الايرانية ، فقد أشار الى هذا فى رسالته فقال :

---

(٥) ترجمة من رسالة الشاه عباس باللغة الفرنسية فى رحلة انطونيو دى جوفيا ·

« أما ما سبق أن ذكرتموه من عدم استقامة جماعة الانجليز والتوصية بالكابتن جرون وجماعته من الفرنج فانه قبل وصـــول رسالتكم المحترمة كنت قد أمرت الامراء العظام فى ولايتى فارس ولار الامتناع عن حسن معاملة تلك الجماعة وأن يسـلكوا معهـم سلوكا يرضى عنه اتباعكم ويشكروه وألا يتوانوا عن امدادهم واسعادهم وقد جاء بعض الانجليز الى البلاط العـالى وطالبوا كثيرا بالتجارة فى الحرير وان شاء الله تعـالى فانه عند بحث هذا الامر سوف يحدث ما يرضى ملازميكم والتابعين لكم ولن يحـــدث ما يغضب الكابتن المذكـور والتابعين لكم » ٠

وفى نهاية الرسالة أشار الى أنه أرسل بعض الحرير « لفتح الطريق البحـرى وطمانة التجار الفرنجة » مع سفيره ولكنه لم يشر فى رسالتيه الى جزر البحرين أو المناطق الساحلية للخليج والتى كان قد استولى عليها من أمير هرمز ٠

وقبل أن يتحرك انطونيو دى جوفيا ودنجيزيك الى أسبانيا شاع أن الشاه عباس يريد أن يعقد صلحا مع السلطان العثمانى لانه الى جانب الرسائل المتبادلة بين أم السلطان العثمانى وزينب بيجم عمة الشاه عباس فان رجال الحكومة العثمانية استطاعوا أن يتقربوا للشاه عباس عن طريق حاتم بيك اعتماد الدولة وبعض زعماء الدولة كما أن شريف مكة الذى كان قد ذهب الى استانبول أرسل من هناك رسائل للشاه عباس يدعوه لترك العدواة التى تضر جميع المسلمين ٠ وقد كتب انطونيو دى جوفيا فى هذا الشأن يقول :

« يبدو أن الشاه رضى بالصلح ، ومع أن هذه المسائل من الاسرار السياسية فقد سمعت أن الشاه اختار أحد الباشوات الاتراك والذى كان قد وقع أسيرا فى الحرب ليكون سفيرا ويرسله الى استانبول

للاعداد للصلح · ولهذا أفشيت (٦) موضوع سفارتى على الفور لكى تصل الى مسامع الجواسيس الاتراك الذين من الممكن أن يكونوا فى معسكر الشاه والى الباشا الذى تقرر سفر للوساطة وأشعت أن الشاه بعثنى الى بلاد الفرنج لكى أثير الملوك المسيحيين ضد الاتراك كى لا يهدأ وحتى يقضوا على السلطان العثمانى · كما أن الشاه يريد أن يجعل تجارة الحرير عن طريق هرمز لكى يحرم الاتراك من أرباحه وكان هدفى من هذا ان يدرك السلطان العثمانى أن الشاه عباس يخدعه وفى الوقت الـذى يتحدث فيه عن الصلح يشجع المسيحيين على قتاله حتى لا يثق فى كلام الشاه ويحتفظ بجيش مستعد للحرب على حدود ايران · ويحتفظ شاه ايران أيضا بجيش مجهز على الحدود العثمانية لانه كلما انشغل هذان العدوان بالحرب فان العـالم المسيحى يبقى فى سلام وطمأنينة » ·

---

(٦) تآمر انطونيو دى جوفيا ضد الشاه عباس حتى لا يعقد صلحا مع الاتراك ويظل كلاهما يحتفظ بجيشه على الحدود فتتوقف فتوحات العثمانيين فى أوربا ويتوقف توجه الشاه عباس لمنـاطق الخـليج واستعادتها من الاسبان ·

السفارة الثالثة لدون أنطونيو دى جوفيا الى ايران

عـاد الدون أنطونيو دى جوفيا ودنجيز بك روملو من أسبانيا الى ايران فى أواخر سنة ١٠٢١ هـ وهو الى جانب سفارته لفيليب الثالث كان يحمل عنوان مندوب البابا أيضا وعند وصوله الى اصفهـــان كان الشاه عباس فى مازندران لكنه عاد فى الثلاثين من المحــرم من العام التالى الى العاصمة وطلب الدون أنطونيو لمقابلته فى ميدان نقش جهان (*) · ولكنه هذه المرة قابله بمرارة ، وحينما ذهب القس ودنجيز بك لمقابلته أمر فى البداية فمثلوا بدنجيز أمام عينى الدون أنطونيو ثم شنقوه ، وكان سبب شنقه بعض الاخطاء التى حـدثت منه أثناء سفارته أولها أنه فى ميناء جوا المركز التجـارى للبرتغاليين فى غرب الهند رفع ختم الرسالة التى كان الشاه قد كتبها لفيليب الثالث بناء على طلب نائب ملك البرتغال وأوقفه على مضمونها ثم أنه خلافا للعرف والتقاليد السياسية لبس الملابس السوداء حـدادا على وفاة ملكة أسبانيا فى مدريد بينما لا يجب على السفراء تغيير ملابس بلادهم العـادية ·

كما أنه قام ببيع الرسالة التى كان يحملها من الشاه عباس الى بابا روما لتاجر كان ذاهبا الى روما ادعى فى بلاط البابا أنه سفير ايران · وقد استفاد من هذا المنصب المزعوم · أما اكبر عيوب دنجيز بك فهو اهداؤه خمسين حملا من الحرير الى ملك اسبانيا وكان الشاه عباس قد أرسلها برفقته مع خواجه صفر الارمنى فاخذها منـه باغواء أنطونيو دى جوفيا ، كما أنه بسبب سوء سلوكه دفع جماعة من مرافقيه لدخول المسيحية والبقاء فى أسبانيا (١) ·

(*) اكبر ميدان فى اصفهان ومن أكبر ميادين العـالم

(١) عندما كان الدون أنطونيو دى جوفيا ودنجيز بك متوجهين الى أوربا ولكى يقـدم القسيس خدمة لسيده ملك أسبانيا فقد اقنع

وقد كتب اسكندر بك التركمانى فى كتابه « تاريخ عـالم اراى عباسى » تفاصيل قتل دنجيز بك فى احداث سنة ١٠٢٢ هـ فقـال :

فى هذه السنة جاء الرسل والقسس الفرنج الذين كانوا عبارة عن علماء ورهبان مسيحيين موفدين من قبل ملك أسبانيا أكبر ملوك الفرنج الى بلاط الشاه وتشرفوا بمقابلة ملك العـالم (عباس) فى ميدان نقش جهان وعرضوا التحف والهدايا وأدوا التحـية والرسالة وحظوا بالعناية الملكية ، ولـما كان سلاطين المسيحيين وحكام الممالك المسيحية جميعا لهم علاقات طيبة مع الشاه الاعلى وكان طريق التراسل والسفر مفتوحا لهذا كان قد أرسل قبل هذا دنجيز بك روملو الذى كان رجلا طلق اللسان لبقا كسفير الى بلاد الفرنج · وقد بدرت منه هناك بعض الاعمال نتيجة للطمع والبخل لم يرضى عنها الشاه ،

=

دنجيز بك أن بيع الحرير فى أسبانيا بواسطة مندوبى شاه ايران لا يليق بمقامه واقنع دنجيز بك من قبيـل الخير والنصح ـ أن يأخذ الحرير من خواجه صفر ويقدمه كهدية من الشاه عباس الى ملك أسبانيا وقد خدع السفير وأعد الحرير لتقديمة كهدية ولكن خواجه صفر الـذى كانت لديه تعليمات أخرى من الشاه عباس عارض هذا ، ولـما لم يستطع أن يثبته عن عزمه ترك البعثة احتجاجا على هذا التصرف وعاد الى ايران وأخبر الشاه عباس بما حدث ·

يقولون أنه عندما قابل فيليب الثالث دنجيز بك وأنطونيو دى جوفيا وقدموا اليه حرير ملك ايران كهدية له تعجب من هذه الهدية الغريبة وقال بتهكم « يبدو أن ملككم ظن اننى امرأة وأرسل الى كل هذا الحرير الخام لكى أشتغل بنسجه » · ثم قدم احمال الحرير هذه هدية لملكة أسبانيا فى نفس الجلسة فاهدتها بدورها الى أحد الأديرة فى قرية اغوسطين وبهذا وبدلا من ان يباع حرير شاه ايران فى اسبانيا فانه أنفق فى سبيل الكنيسة والتبشير ·

وقد نال القس « انطونيو دى جوفيا لقب أسقف تقديرا لخدمته هذه ثم أمر مرة أخرى أن يحمل هدايا ورسائل ملك أسبانيا ويعود مع دنجيز بك الى ايران ·

وكانت قد عرضت عليه وفي هذا الوقت الذى عاد فيه مع الرسل المذكورين حل عليه الغضب فى الحال ٠ وكلما حاول أن يتحدث للاعتذار عن أخطائه فانه لم يسمح له وقام جنود تعذيب الشاه بالتمثيل به وعلقوه على المشنقة مقلوبا للعبره ثم حكم عليه بالاعدام ونال جزاءه وفضيحته التى لا أراها الله لأحد ٠ وكان من أعماله القبيحة انه فى ناحية جوا وبناء على طلب بوزره حاكمها وقائد موانى الفرنج فض الختم الشريف عن رسالة الشاه الى ملك أسبانيا وأعلمه بمضمونها ٠ وهذه الخيانة فى خدمة السلاطين خطأ عظيم ٠ وكما أنه من التقاليد القديمة أن مبعوثى مختلف السلاطين يلبسون ملابس بلادهم التى جرى العرف والعادة عليها فى كل بلد يذهبون اليه ويسلكوا سلوكهم العادى فى كل الأمور ولم يأمر الملوك فى أى عصر أو زمان بتغيير العرف والعاده الجارية٠ وحينما كان دنجيز بك فى عاصمة ملك أسبانيا وتوفيت زوجة الملك ولبس الملك ورجال الجيش الملابس السوداء كالعرف والعادة وكان الواجب لو كلفوه بهذا أن يقول الحمد لله أن ملكى وولى نعمتى سالم وبخير ٠ فلا يليق بى أن البس ملابس الحداد وكان هذا عذرا مقبولا ومستساغا ٠ ثم أن الرسالة التى كتبها جلالة الشاه المعظم الى البابا الذى هو خليفة الامة المسيحية والجالس مكان أصحاب عيسى عليه السلام وارسلها مع دنجيز بك الذى قام بيعها لقاء مبلغ من المال الى تاجر على أن يدعى هذا التاجر أنه دنجيز بك ويوصل الرسالة الى دار الخلافة الفرنجية ويستفيد من ورائها ٠ وكان هذا أمرا غير مستحب فقد كان يجب اذا تعذر ذهابه الى تلك الولاية أن يعيد الرسالة ثانية ويذكر الحقيقة ولكنه لم يحترم كتاب اعتماده أو رسالة ولى نعمته ٠ بل انه فى الواقع باعها الى تاجر مجهول وتهاون فى هذه المهمة ٠ أما أعظم أخطائه والتى استوجبت قتله أنه أساء السلوك مع المرافقين الذين اصطحبهم معه وعمل على ايذائهم حتى أن بعضهم فضل الدخول فى المسيحية ليتخلص من ظلمه وبقوا فى بلاد الفرنج ٠ وكانت الحمية الاسلامية تستوجب قتله فنال جـــزاءه ٠

بعد قتل دنجيز بك أمر الشاه عباس بمصادرة كل أمواله وحتى نسائه وابنائه ووهبهم الى شخص من فينسيا اسمه مايكل أنجلو كريستيانو البينيو كان يعيش فى بلاط الشاه . وكان الملك يهتم به ويرعاه وبهذا العمل - فى اعتقاده - عاقب مخطئا وكافأ مخلصا ، فمنح نساء رجل مسلم الى رجل مسيحى دليل على غاية الغضب وعدم الرضى عن السفير الخطىء .

بعد هذا سأل الشاه أنطونيو دى جوفيا سفير ملك أسبانيا ان كان قد احضر ثمن الحرير الشاهانى ام لا ؟ فاجاب القس « ان ملك أسبانيا ليس تاجرا وليس له شأن بالبيع والشراء ولكنه أرسل هدايا الى الشاه فى مقابل الحرير الذى أهداه اليه دنجيز بك » فقال الشاه اذا كانت هدايا ملك اسبانيا قد ارسلت في مقابل هداياه فيجب أن يحسبوا اذا كانت تساويها فى القيمة أم لا . فلما حسبوا قيمتها وجدوا أن هدايا فيليب الثالث لا تساوى اكثر من خمس ثمن هداياه فتظاهر بالغضب وقال معاتبا وشاكيا للقس « لماذا لم يرسل ملك اسبانيا ثمن حريرى ؟ ولكن حزنه وعدم رضاه كان بسبب أن ملك اسبانيا لم يدخل فى حرب ضد السلطان العثمانى بناء على كلامه ووعوده السابقة ، كما أن رجاله البرتغاليين فى جزر هرمز وقشم والبلاد التابعة لهم كانوا يسيئون الى الايرانيين . ولهذا أراد أن يجعل موضوع الحرير ذريعة ووسيلة لاعلان الحرب واخراج البرتغاليين من جزر الخليج .

ولقد هرب أنطونيو دى جوفيا من اصفهان الى جزيرة هرمز خوفا من الشاه عباس ولكن الشاه أرسل الى امام قلى خان أمير امراء فارس أمرا بأنيتحفظ عليه فى مدينة شيراز ويأخذ منه ثمن الحرير الذى أهداه دنجيز بك الى ملك أسبانيا بايعاز منه . وقد تحفظ امامقلى خان مدة على القس فى شيراز ولكنه لم يستطع أن يحصل منه على شيء ولهذا طلب من الشاه أوامر جديدة فى هذا الشأن ولما لم يصله

رد صريح فقد سمح للقس بالذهاب الى هرمز ٠ ولما علم الشاه وكان فى مازندران بذهاب القس غضب غضبا شديدا وكتب رسالة عتاب الى امامقلى خان الذى خاف لدرجة أنه استعد للهجوم على قلعة جمبرون وجزيرة هرمز واخراج البرتغاليين من المياه الايرانية اذا سمح له الشاه ، ولكن الشاه لم يأذن له لان مثل هذه الحملة كانت من الممكن أن تتسبب فى قطع العلاقات بين ايران وأسبانيا ، كما أن حاكم اصفهان الذى كان قد شجع الشاه على ارسال الحرير الى أسبانيا أخذ يعد لجمع قيمته بأية طريقة خوفا من غضب الشاه كما طلب من قسس الكرمليين فى أصفهان أن يسلموه كنيسة الاغسطيين التى ينتمى اليها انطونيو دى جوفيا حتى يستولى على ما بها من أموال فى مقابل ثمن حرير الشاه ٠

السفارة الثانية لروبرت شيرلى الى أوربا

سبق أن ذكرنا أن روبرت شيرلى غادر انجلترا سنة١٠٢١هـ وذهب الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ولما كان مكلفا من الشاه عباس بالذهاب الى ملكها جهانجيز الجوركانى ، فقد توجه من جوا الى أجره عاصمة ملوك الهند · وبعد انتهاء مأموريته عاد الى ايران حاملا رسالة جهانجير وهداياه ، وكان من بينها فيلان فوصل اصفهان سنة ١٠٢٤ هـ ·

وكان فيليب الثالث قد وعد الشاه عباس فى الرسالة التى ارسلها مع شيرلى أنه سيدخل قريبا فى الحرب ضد السلطان العثمانى بمساعدة بابا روما وبقية حكام أوربا · وأنهم سوف يرسلون سفنا للبحر الاحمر ليمنعوا وصول البضائع الهندية التى كانت ترسل عن هذا الطريق الى الامبراطورية العثمانية ·

ولم تسفر رحلة روبرت شيرلى الى أوربا عن نتائج ذات قيمة ، ولكن الاستقبالات الحارة التى استقبله بها امبراطور المانيا وبابا روما وملك أسبانيا دفعت الشاه عباس الى اعادة ارساله مرة أخرى الى اوربا املا الحصول على نتيجة من خطواته السياسية والتجارية التى استمرت بضع سنين ، ولهذا أمر روبرت شيرلى بعد أربعة أشهر من وصوله أى فى رمضان سنة ١٠٢٤ هـ بالذهاب الى أسبانيا عن طريق جزيرة هرمز والهند وجنوب افريقيا وأرسل معه أحد القسس الكرمليين المقيمين فى أصفهان وكان اسمه القس ريدمتودى لاكروز (*) وكتب الشاه عباس فى الرسالة التى بعثها معه الى فيليب الثالث ملك أسبانيا :

« بعد الالقاب والمجاملات ــ لما كانت سبل المحبة والصداقة

---

(١) Pere Redemeto de la Crug

لحضرات السلاطين المسيحيين قوية معه ومستحكمة وخاصة مع جلالتكم وكان الرسل الحكماء وخاصة من القسس العظام يترددون فيما بيننا وفتحت أبواب المراسلات والكتب ولهذا أرسلنا البك المعظم المكرم الدون البرت شيرلى الذى كان فى خدمتنا الشريفة كسفير اليكم ليجدد اسس الصداقة • كما أرسلنا معه احد القسس العظام هو القس ردمتو وهو من الرجال الحكماء المتزنين الصادقين للاطمئنان والاعتماد وقد أرسلنا رسالة شفوية ونتوقع وننتظر أن جلالتكم الرفيع المنزلة ستبقون باب التراسل والصداقة مفتوحا ويكتب لنا عن أحواله التى تبعث السرور والفرح عند أحبائه وأصدقائه وأن يذكر أى خدمة تكون حتى ننجزها ولا نزيد أكثر من هذا (٢) •

وقد توجه شيرلى مع رفاقه فى نفس الشهر (رمضان ١٠٢٤ هـ) الى أوربا عن طريق هرمز والهند وكان مكلفا من الشاه عباس باجراء مباحثات مع المسئولين البرتغاليين فى هرمز والهند وبعقد معاهدات صداقة ، لان الحكومة الاسبانية – كما سنذكر فيما بعد – كانت قد استردت منهم فى سنة ١٠٢٢ هـ ميناء جمبرون (بندر عباس الحالى الذى كان من القواعد البحرية البرتغالية القوية على ساحل ايران ، كما استردت بعض القلاع الاخرى الساحلية ، ولهذا السبب فان المسئولين البرتغاليين التابعين للحكومة الاسبانية فى جزيرة هرمز ومناطق سيطرتهم الاخرى كانوا يسيئون جدا للرعايا والتجار الايرانيين وقد استطاع روبرت شيرلى ارضاء حاكم قلعة هرمز البرتغالى حتى يكف يده عن معاداة الحكومة الايرانية الى أن تتضح نتيجة بعثته ومفاوضاته مع ملك أسبانيا • ولكنه لم يوفق لعقد اتفاقية صداقة فى مستعمرة جوا الهندية لان البرتغاليين كانوا يريدون أن تعيد الحكومة الايرانية الى حكومة أسبانيا المستعمرات البرتغالية القديمة فى الخليج مثل جزر البحرين وميناء جمبرون وبعض الموانى الساحلية الاخرى •

---

(٢) من مجموعة مراسلات الشاه عباس المحفوظة فى المكتبة الوطنية فى مدينة نابولى •

وبعد أن قضى شيرلى عشرة أشهر فى ميناء جوا توجه الى أسبانيا على ظهر احدى السفن الاسبانية ٠ وفى هذا الوقت كانت شركة الهند الشرقية التى أسست سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) قد ازدهرت فى الهند واعترضت على سفر روبرت شيرلى الى أسبانيا لان مسئولى هذه الشركة فى الهند ــ كما سنفصل هذا عند الحديث عن علاقات الشاه عباس مع الانجليز ــ كانوا قد علموا بأهداف هذه الرحلة والتى منها احتكار تجارة حرير ايران عن طريق أسبانيا بواسطة أعوانهم وجواسيسهم فى اصفهان ، وعدوا هذا ضد مصالحهم التجارية ، ولهذا أصدروا امرا الى سفنهم بالهجوم على السفن البرتغالية فى ميناء جوا والقاء القبض على روبرت شيرلى ولكن السفينة التى كانت تحمل شيرلى استطاعت الافلات من أيديهم ووصلت فى سنة ١٠٢٦ هـ (اكتوبر ١٦١٧ م) الى ميناء لشبونه عاصمة البرتغال ٠

بقى شيرلى حتى أواخر سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢٢ م) فى أسبانيا وقد حاول أثناء هذه المدة تحريض أسبانيا على الحرب ضد الدولة العثمانية ولكى يصل الى غرضه هذا فقد وعد فيليب الثالث ــ بناء على تعليمات من الشاه عباس ــ أن يحصل على موافقة الشاه عباس على اعادة ميناء جمبرون اذا استولت السفن الحربية الاسبانية على مدخل البحر الاحمر وأغلقت طريق التجارة العثمانية مع الهند والحجاز ومصر ، وكان ملك أسبانيا يتوقع اعادة جزر البحرين أيضا فى مقابل هذا الاجراء ٠ ولما كان روبرت شيرلى غير مستعد لاعطاء وعود فى هذا الصدد فان فيليب الثالث رفض قبول مقترحاته ولانه كان يشك أصلا فى سفارة شيرلى فقد بعث برسالة الى دون جارسيا دى سيلفا فيجورا الذى كان سفيرا له فى البلاط الايرانى انذاك وأمره أن يتحدث مع شاه ايران بخصوص مقترحات شيرلى ويخبره أنه فى حالة اعادة الحكومة الايرانية لميناء جمبرون والقلاع الساحلية للخليج على الاقل الى الحكومة الاسبانية فان ملك أسبانيا سوف يدخل

فى حرب مع الحكومة العثمانية وسوف يغلق طريق تجارة اسيا والهند فى وجه الدولة العثمانية عن هذا الطريق ، كما طلب روبرت شيرلى سفير الشاه عباس . وقد كتب روبرت شيرلى عدة خطابات الى الشاه عباس عن مفاوضاته مع ملك أسبانيا أثناء اقامته فى تلك البـلاد من بينها رسالة بعثها مع القس ردمتودى لاكروز سوف نتحـدث عن مضمونها فى الصفحات القادمة .

ولما لم يحصل شيرلى على ما كان يتمناه من سفارته فى أسبانيا فانه سافر من لشبونه الى روما بالسفينة ، وفى سنة ١٠٣٢ هـ توجه من ايطاليا الى انجلترا وظل هناك ثلاث سنوات لعقد معاهدات سياسية وتجارية كما سنذكر عند شرح تاريخ العـلاقات السياسية بين الشاه عباس وانجلترا ، وفى النهاية عاد الى ايران سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧م).

سفارة دون جارسيادى سيلفا فيجورا لايران

بعد أن وعد روبرت شيرلى فى سفارته الاولى فيليب الثالث أن الشاه عباس مستعد لاعطاء احتكار تجـارة الحرير الايرانى الى التجار البرتغاليين مع بعض الشروط رأى ملك اسبانيا ارسال سفير الى بلاط الشاه عباس للوقوف على حقيقة الامر ومعرفة الاوضاع التجـارية الايرانية ٠ لهذا أرسل أحد رجال اسبانيا المعروفين اسمه دون جارسيا دى سيلفا فيجورا وهو من عائلة فريا الكبيرة المعروفة على رأس بعثة كبيرة مع رسالة ودية وهدايا قيمة الى ايران ٠

غادر هذا السفير اسبانيا فى بداية عام ١٠٢٣ هـ (١٦١٤م) ووصل الى جـوا مركز التجارة البرتغالية فى الهند فى رمضان من نفس العـام وهناك علم أن الشاه عباس استولى أيضا على جزيرة كيش (قيس) وقلعة جمبرون ٠

قام المسئولون البرتغاليون التابعين لاسبانيا فى ميناء جـوا والذين كانوا فى الباطن غير راضين عن الحكومة الاسبانية والذين لم يستطيعوا رؤية اسبانى مرسل فى مهمة خطيرة بابقاء السـفير الاسبانى مدة ثلاث سنوات فى الهند واختلقوا الموانع المختلفة للحيلولة دون سفره الى ايران وفى النهاية سافر دون جارسيا بسفينة صغيرة من ميناء جوا فى ٨ ربيع الاول سنة ١٠٢٦ هـ ووصل بعد خمسـة أسابيع الى جزيرة هرمز وفى الجزيرة خالفه المسئولون البرتغاليون أيضا ولكنه استطاع أن يصل الى شيراز عن طريق لار وظل فى هذه المدينة فى انتظار أوامر الشاه عباس ، وبعد أربعة أشهر وصلة الامر من الشاه عباس الذى كان انذاك فى فرح أباد فى مازندران لكى يذهب الى اصفهان فتوجه من شيراز الى العاصمة اصفهان وبقى حتى ٢٣ جماد الاولى ١٠٢٧ هـ حين توجه الى قزوين بناء على أمر الشاه الذى كان قد ذهب الى هنـاك ٠

وقد كتب بيترو دلا فاله الرحالة الايطالى ـ الذى كان فى ايران فى ذلك الوقت وكان يرافق الشاه عباس فى تنقلاته ـ فى كتاب رحلته تفصيلات عن وصول دون جارسيا الى قزوين ومراسم استقبال البلاط الايرانى له ومحادثاته مع الشاه عباس وكل جزئيات سفره ورحلته ، ولما كان هذا يعد من أصدق ما يعكس الاوضاع الاجتماعية والسياسية والادارية فى ايران أثناء حكم أعظم الملوك الصفويين كم يعد من أوثق المصادر التاريخية عن ذلك العصر ، لهذا فاننا ننقل أهم ما تضمنه فى السطور القليلة التالية :

« أمضى الشاه بقية اليوم فى ارسال الاحكام والرسائل المختلفة وسماع موضوعات الخطابات التى وصلت من مختلف اقاليم البلاد ، وكان أغامير (٢) يقرأها له بصوت مرتفع وكان من بينها عريضة حاكم أصفهان الذى يخبره بوصول السفير الاسبانى ، وكان هذا السفير قد

---

(١) ولد بيترو دلا فاله Pietro della Valle فى روما سنة ٩٩٤ هـ (١٥٨٦ م) ودرس الادب ثم اشترك فى جيش البابا بول الخامس فى حربه ضد فينيسيا وبعد الصلح التحق بسفينة متجهه لافريقيـــا للقضاء على القراصنة . ثم ذهب الى استانبول متوجها للقدس ثم ذهب للقاهرة ودمشق وحلب وبغداد . وهناك تزوج فتاه مسيحية اسمها ستى معانى أصلها من ماردين (تركيا) ثم ذهب لايران على أمـل أن يشترك مع الجيش الايرانى فى حروبه ضد العثمانين ثم ذهب الى سواحل بحر قزوين واصفهان وشيراز وساحل الخليج حيث توفيت زوجته ستى معانى فى مدينة ميناب ولهذا ذهب الى الهند فى سفينة انجليزية وبعد عام عاد الى البصرة ومنها الى حلب وأوربا فوصل روما سنة ١٦٢٦ فعينه البابا أدريان الثامن مرافقا له وكتب مشاهداته عن رحلاته فى رسائل كان يبعثها لصديق له اسمه ماريو سكابينو فى نابولى وقد جمعت ونشرت كوصف للدول التى زارهـا من مختلف النواحى السياسية والاجتماعية والعادات وغيرها .

(٢) اغامير هو ميرزا طاهر نطنزى المشهور بالامير « ابو المعالى » أو اغامير كاتب الوقائع والكاتب ووزير غلمان وبنادقة الشاه عباس .

غادر أسبانيا قبل ذلك ببعض السنوات ولهذا كان البلاط الايرانى ينتظر وصوله ولكن طال بقاؤه فى الهند وهرمز كثيرا ٠

وكما هى عادة الشاه فقد طلب حضور رئيس بريد اصفهان وسأله شخصيا : أين أنزلتم السفير الاسبانى ؟ فأجاب اننا نستضيفه فى منزل جلال المنجم ، فقال الشاه اننى اشتريت هذا المنزل خصيصا لاستقبال ضيوفى الاجانب ثم التفت الى وسألنى « هل صحيح أن هذا السفير من رجال أسبانيا العظام كما يقولون ؟

فأجبت أننى لا أعرفه شخصيا ، ولكننى أعرف أنه من عائلة مشهورة ومعروفة جدا « فسأل الملك وهل هذه العائلة من رعايا أسبانيا أم من رعايا البرتغال ؟ فقلت : يظهر أن هذه العائلة تنتسب للدولتين ولكنها تميل أكثر الى جانب أسبانيا ولافراد هذه العائلة مراتب ومنازل رفيعة فى البلاط الاسبانى ٠

ويتحدث بيترو فى الجزء الاخر من الرسالة عن سفر الشاه عباس من مازندران الى قزوين واشتغاله بالصيد فى منطقة جبل فيروز (فيروزكوه) ثم يتابع الحديث عن السفير الاسبانى فيقول :

« حينما اخبرونى أن اغامير قد وصل ونزل بالقرب من خيمتى عزمت على زيارته فى أقرب فرصة لاسأله عن أحوال الشاه ولهذا ذهبت الى خيمته فى يوم من أيام أواخر مايو (جمادى الاولى سنة ١٠٢٧ هـ) ووجدته فى خيمته وحيدا تقريبا لانه كان قد أرسل حريمه وكل حاشيته قبله الى قزوين ٠ وكانت خيمته من الخيام الجديدة التى يطلقون عليها فى ايران اسم « شروانلى » لان هذه الخيام تستعمل فى ولاية شروان الشديدة البرد والكثيرة الامطار نظرا لان الخيام العادية بقماشها الرقيق لا تقوام البرد القارس فى هذه المناطق ، ولهذا يبطنونها من الخارج بلباد سميك ولما كانت هذه الخيام تصبح ثقيلة جدا فهم ينصبونها فوق أقواس من الخشب لتتحمل سقفها » ٠

كان أغامير يجلس مع شخصين من الايرانيين ولكنهما خرجا بعد قليل من دخولى وبقينا وحدنا وأخذنا نتحدث فى موضوعات مختلفة من بينها أنه قال ان السفير الاسبانى قادم من اصفهان لمقابلة الشاه وقد سمعت أنه غاضب على القسس البرتغاليين فى اصفهان وخاصة القس ملكيورد يزانج (١) مندوب ملك أسبانيا والرئيس الحالى للدير هناك ٠ ووصف اغامير السفير الاسبانى بأنه خفيف العقل وأثنى على القس ملكيور بسبب صداقته التى يظهرها للشاه وقال ان هذا السفير الجديد أرسل مبعوثا الى فرح اباد ويبدو أنه يسىء ٠ الظن بى اذ أوصاه أن يسلم رسائله للشاه شخصيا ، وقد ظل مبعوثه عدة أيام فى انتظار مقابلة الشاه وفى النهاية لم يستطع رؤيته فأعاد للسفير رسائله » ٠

بعد هذا كتب بيترو دلافاله فى رسالته الخامسة فى مايو ١٦١٩ يصف وصول السفير الاسبانى الى قزوين وترتيبات مقابلة الشاه له فقال :

« فى يوم الخميس ١٣ يونيو ١٦١٨ م (١٨ جمادى الثانى ١٠٢٧ هـ) علم ان السفير الاسبانى الذى جاء الى ايران عن طريق الهند وجزيرة هرمز وكانوا ينتظرون وصوله منذ مدة طويلة قد غادر اصفهان واقترب من قزوين وهو ينتظر أمر الشاه لدخول المدينة وكانوا قد أعدوا منزلا للسفير فى قزوين ، فلما علمت بقدومه أرسلت على الفرر مترجمى الى هناك لكى يهنئه بالوصول وليخبره أننى سأذهب لاستقباله بنفسى ٠

فى اليوم التالى أمر الشاه أن يستقبلوا السفير ويدخلوه المدينة وكنت أول شخص ذهب لا ستقباله على بعد ميل من المدينة وأبديت له من الاحترام ما استطعت حتى أننى ترجلت أمامه عن فرسى وهذا ليس

---

(١) Père Melchior des anges

معتادا فى ايران حتى ان الايرانيين لا يترجلون عن خيولهم امام الشاه أيضا وبعدى بقليل وصل حسين بك كبير الأمناء مع حاكم قزوين وداود خان شقيق امام قلى خان امير امراء فارس وقد ارتدوا ملابس فخمة مع صديريات من الأطلس المقصبة وعمامات محلاة بالجواهر والريش المختلف وسروج خيولهم ولجمها فضية وذهبية وبصحبتهم مئتان من الفرسان من عظماء المدنية وذلك لاستقبال السفير بناء على أمر الشاه ٠

قال داود خان للسفير نحن جميعا عبيد الشاه وكان يقصد من هذا أن يظهر عظمة شاه ايران وجلاله ٠ ثم سرنا جميعا فى اثر السفير اثنين اثنين ٠ وقد سرت أنا وداود خان مع مترجم السفير ـ الذى كان يرتدى الملابس الأسبانية وعارى الرأس ويسير بيننا ، وكان كبير الأمناء والحاكم يسيران على بعد عدة أقدام أمامنا ٠

كان السفير يتحدث طول الطريق مع داود خان ويبدى نحو أسرته كثيرا من الاحترام وقد أثنى كثيرا على شجاعة أبيه الله وردى خان ومهارته وأبدى كثيرا من التأثر على وفاته واسفه كثيرا على عدم رؤيته ولكننى كنت أعجب من هذا الكلام لأن الله وردى خان مع كل شجاعته ومهارته لا يجب أن يكون موضع اعجاب أو ثناء سفير ملك اسبانيا لأنه كان قد استرد جزيرة البحرين أهم مركز لصيد اللؤلؤ من أمير هرمز وفى الواقع من البرتغاليين كما استعاد ابنه امام قلى خان أمير أمراء فارس الحالى قلعة ميناء جمبرون التى كان البرتغاليون يحتلونها مع مائتى ميل من البحر حولها ٠

حتى لا اخرج عن الموضوع ، فقد كان السفير الاسبانى يدعى دون جارسيا دى سيلفا فيجورا وكان رجلا مسنا أبيض الشعر وقد تساقطت اسنانه ، ومع هذا فقد كان يبدو صحيح الجسم قويا ومع أنه فى العادة يسافر فى محفة (تخت روان) الا أنه دخل قزوين فى ذلك اليوم ممتطيا حصانا ٠

كان السفير ومرافقوه يرتدون الملابس الاسبانية التى كانت تتميز بالياقات المنشأة المتعرجة الجميلة ولم يكن عدد مرافقيه يتجاوز العشرين أو الخمسة والعشرين وبعد أن أوصل أعيان ايران السفير الى منزله تركوه ـ كما هى العـادة فى ايران ـ دون أن يترجلوا من على ظهور خيولهم • فيما عداى أنا لاننا مواطنان ومعنا كبير الامناء بمقتضى واجبه ، فقد رافقناه الى حجرته • وقد ذكرت للسفير اننى مواطن له تبعا لمفهوم الايرانيين الذين يعدون جميع المسيحين الاوربيين من أى دولة كانت مواطنين لبعضهم • وقد بقيت لدى السفير أكثر من ساعة وتحدثت معه فى كل أمر خاصة فيما يتعلق بشئون أسبانيا •

وفى يوم الاحد ٢٧ يونيو (٢٢ جمادى الثانى) سمح الشاه للسفير الاسبانى كى يتشرف بمقابلته فى احدى الحدائق الملكية وكانت تسمى حديقة الجنة وليس لها أى طريق سوى شارع واحد يمر بالقرب من القصر الملكى •

كان الشاه قد وجه الدعوة الى شخصيات مختلفة كنت من بينهم وقد حضر هذا الحفل اكثر من مائة شخص من مختلف الدول يتحدثون بلغات مختلفة وكانوا يلبسون ملابسهم الوطنية •

وقد أخبروا السفير منذ الصباح أنه يجب عليه مقابلة الشـــاه فأخذ فى اعداد نفسه وارتدى ملابس السفراء كما أمر مرافقيه أن يرتدوا الملابس الرسمية الاسبانية ولـما كان يريد أن يعرض هدايا ملك أسبانيا على الشاه فى نفس هذا اليوم فقـد اختاروا خمسمائة شاب وسيم من أبناء المدينة وأرسلوهم اليه لكى يحمل كل منهم قطعة من الهدايا مهما صغر حجمها وذلك حتى تبدو قيمة الهدايا وكثرتها •

وكانت هدايا السفير التى أحضرها معه الى قزوين كما ذكروا تساوى نحو مائة الف اكوى أسبانى • بالاضافة الى هذا فقد أحضر ثلثمائة حمـل جمل من الفلفل من الهند كهدية تركها لرجال الشـــاه

فى اصفهان وكانت هداياه تضم بعض الاوانى الذهبية والفضية والبللورية والجواهر والاحجار الكريمة ومن بينها صندوق به ستين سلسلة مختلفة محلاة بالزمرد والماس وانواع الجواهر الاخرى · وقد حملها ستون شخصا أى أنه حسب العــادة فى ايران حمل كل شخص سلسلة كذلك كان من بين الهدايا بعض السروج واللجم المحلاة بالذهب والســهام والاقواس والبنادق ذات الفتيلة والات الحـرب الاخرى المرصعة وكذلك خنجر وسيف مرصعان بالجواهر الثمينة كان ملك أسبانيا قد تمنطق بهما فقط فى يوم زفافة وضمت الهدايا بعض المبارد والادوات الاخرى التى تستعمل فى الحدادة والنجارة نظرا لان شاه ايران أثناء فراغه كان يحب هذه الاعمال اليدوية فأرسل له ملك أسبانيا هذه الادوات لاسعاده وكان من بين الهدايا أيضا دروع اوربيه ورماح هندية وملابس مختلفة وصور من بينها صورة ان النمساوية ملكة فرنسا الجديدة وصورة اخرى لبنت ملك اسبانيا الكبيرة والتى قدمها السفير كهدية منه للشاه عباس ·

حينما رتب عرض الهدايا حسب رغبة السفير خرج من منزله فى الساعة الثانية بعد الظهر وتوجه للقصر الملكى وكما كانت العادة فان حملة الهدايا كانوا يتقدمون السفير واحدا وكان هو يسير فى اثرهم وعلى هذا النحو مروا من الشرع الرئيسى فى المدينة حتى وصلوا الى باب قصر الشاه وقد شاهدتهم من فوق سطح منزلى والسبب فى اننى لم أخرج ولم أذهب للقصر الملكى أننى أعرف أن عرض الهــدايا يستغرق وقتا طويلا والجلوس أمام الشاه على الركبتين مدة طويلة على هذا النحو ليس امرا سهلا ·

وعندما وصل السفير الى الباب الكبير للحديقه لم يكن الشاه قد وصل بعد ولهذا رجوا السفير أن يستريح فى مكان للجلوس مستدير كانوا قد أعدوه مثل العرش وفرشوه بالسجاد تحت شجرة كبيرة · ولا شك أن روحه وجسمه كانا فى عذاب · كانت روحه فى عــذاب

لاجلاسه مدة طويلة قرب طريق عام وهذا السلوك مع أشخاص فى مقامه ومنزلته غير مقبول على الاطلاق فى أوربا وكان فى عذاب جسمى لجلوس رجل مسن مثله ساعتين اثناء الصيف وفى أشد ساعات النهار حرارة بمثل هذه الملابس الاسبانية الضيقة والياقات المرتفعة المنشاة ٠

وأثناء جلوس هذا العجوز تحت الشجرة فى انتظار أوامر الشاه أكتب لكم بضعة أسطر عن هذه الحديقة : ـ

يطلق الايرانيون على هذه الحديقة اسم حديقة الجنة وفى رأى أنه من الافضل أن يطلقوا عليها اسم الحديقة البرية أو الغابة الوطنية لانه لا يوجد فى هذه الحديقة سوى أشجار الحور العالية الكثيفة التى تظللها من كل ناحية ، ولا توجد أشجار أخرى غيرها وطرقات هذه الحديقة عريضة جدا وتمتد على مدى البصر وعلى جانبى كل شارع نهيرات تتدفق فيها المياه ٠٠٠ وفى وسط الحديقة اقاموا مبنى صغيرا من عدة غرف وفى مقابل هذا المبنى بركة للمياه مربعة كبيرة وعلى أحد جوانبها المواجهة للمبنى اقاموا سقيفة تدخل فى بركة السباحة كأنها شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جوانب ويحمل السقف أربعة أعمدة فقط بحيث يصبح المكان مفتوحا ولا يحول دون سريان الهواء وتحت السقف مكان غير متسع بحيث لا يجلس الا اشخاص قليلون يستطيعون التمتع بنسيم الحديقة وهوائها العليل ٠

وكان الشاه يريد أن يستقبل السفير الاسبانى فى هذا المكان الصغير ، ولكن عدد المدعوين كان كبيرا ولهذا امر ففرشوا حول حوض السباحة بالابسطة ٠

وبعد ان وصل الشاه الى الحديقة وذهب الى شبه الجزيرة تلك ، أدخلوا السفير مع هداياه ومر الاشخاص الذين كانوا يحملون الهدايا بالترتيب من أمام الشاه ثم لفوا من خلف الضيوف حول حوض السباحة وذهبوا للمكان الذى حدد لهم ٠

ولم أكن فى الحديقة أثناء عرض الهدايا ولكن الذين حضروا قالوا أنه بعـد وصول السفير الاسبانى نهض الشاه من مكانه وذهب لاستقباله بكثير من الترحيب والمحبة وعندما رأى السفير الشاه أدى الاحترام الواجب وقبل يده وطرف ثوبة ثم قبل رسالة ملك أسبانيا وأعطاها للشاه • بعد هذا أرشد الشاه سفير أسبانيا الى السقيفة التى سبق وصفها فحمله ستة من غلمان الشاه وبعده دخل السفير العثمانى أيضا • وكان هناك حاكم جيلان وأحد كبار رجال كردستان وبعد دقيقة توجه الشاه الى هناك وكان يحمل فى يده احدى البنادق التى أحضرها السفير الاسبانى كهدية وقد طلب من دون جارسيا بيانات عنها •

غير الشاه والاشخاص الاخرين الذين ذكرتهم كان يقف مترجـم السفير الاسبانى بين الشاه والسفير عارى الرأس ويقوم بترجمة كلام الاثنين وكان بقية الحاضرين ـ كما قلت ـ يجلسون حول حوض السباحة •

فى الناحية السفلى من حوض السباحة التى يدخل المدعوون من ناحيتها كانت سفرة العشاء معدة على الابسطة وكانت الاوانى الكبيرة الذهبية والفضية المملوءبالارز تبدو من بعيد كاهرامات مصر • وكان الخدم الخاص للشاه يقفون بملابسهم المازندرانية القصيرة استعدادا لتوزيع الطعام على الضيوف • وكان الانجليز أقل الضيوف عددا فى هذه الضيافة ، وقد جعلوهم فى اخر السفرة ولو لم يكن مندوب الانجليز المقيم فى ايران اكثر احتراما من مواطنية لما وجد مكانا مناسبا لجلوسه • وكان أتباع السفير الاسبانى سواء المخدومين أو الخدم يجلسون بعد الرعايا الانجليز ، ولم يكن يفصل بينهم الا مجرى المـاء الخـارج من حوض السباحة • وكان المرافقون للسـفير العثمانى يجلسون قبل مرافقى السفير الاسبانى وقبلهم بعض كبار العرب والاكراد الذين جاءوا من أنحاء ايران المختلفة وكانوا ضيوفا على الشـاه وقبلهم كان يجلس شقيق أمير مكران الولاية التى على حدود ايران وساحل بحر عمان •

وقد أجلسنى كبير الامناء الذى نظم هذه الضيافة وأشرف على كل شىء فيها قبل شقيق امير مكران لانه اعتقد اننى لما كنت لا أمثل أية دولة ، وجئت الى ايران برغبتى ، فاننى أكثر اعزازا واحتراما من كل الاوربين المدعوين لهذه الضيافة ، ولا يجب أن اجلس معهم فى مكان واحد • ولم يكن يجلس قبلى سوى وزير مازندران وبعض كبار رجال تلك الولاية وذلك لخدماتهم الجليلة للشاه ولتشرفهم بالحصول على خلعته العادية وهى نصف جبة مقصبة بالذهب •

وأخذ الشاه يتحدث مع سفيرى أسبانيا وتركيا فى موضوعات مختلفة حتى الغروب ولم يتعرضوا للمسائل السياسية • وكانوا أثناء الحديث يتناولون كئوسا من الشراب أو يأكلون بعض الفاكهة • ولم يقدم لنا شىء منها وأخذ كل واحد يتحدث مع من بجانبه • ولما أظلمت الدنيا أحضروا أولا مصابيح شحمية كبيرة وضعوها خلفنا على مسافات معينة ، ثم فرشوا أمامنا مفارش مائدة صوفية ، ثم وضعوا عليها شموعا كبيرة ومصابيح (شحمية) مختلفة • وكان ضوء هذه المصابيح المنعكس على صفحة الحوض يختلط مع ضوء السماء الصافية على مياه الحوض الجميل ، وتلك الاشجار الخضراء الشاهقة مما يعطى صورة جميلة تبعث على البهجة ، لا يمكننى أن أتصور أجمل منها •

بعد أن رتبت الشموع والمصابيح بشكل معين أحضروا العشاء وكان خدم الشاه يقدمون الشراب لمن يرغب فى أباريق وكئوس من الذهب أو يقدمون له الماء فى أباريق كبيرة مملوءة بالثلج • وقد تم تناول العشاء بسرعة لان السفير الاسبانى لم يستطع الجلوس على الارض بملابسه الضيقة أكثر من هذا مما دعاه الى الاستئذان من الشاه فى الانصراف ، وقال له انه لو بقى أطول من ذلك على هذا الوضع فسيموت • وقد سمح له الشاه بالانصراف ، وبعد ذهابه نهض أيضا

السفير العثمانى من باب الادب وبقى الشاه وحـده ولم يمض الا القليل حتى طلبنا الاذن أيضا وخرجنا من الحديقة ... » .

نسيت أن أذكر أنه أثناء هذه الضيافة ــ كما هى العـادة ــ لم ينقطع صوت الموسيقى وغناء المغنين ، ولكن هذا لم يمنع حديث الحاضرين لان العـادة فى مثل هذه الحفلات أن العزف والغناء يكون هادئا ... » .

وقد قابل السفير الاسبانى الشاه عباس مرتين خلال شهر بعد هذا الحفل الرسمى ، وكانت المرة الاولى مصادفة اذ أن السفير كان قد خرج من منزله لزيارة صديق فالتقى بالشاه أثناء الطريق فاصطحبه الشاه معه الى احدى الحدائق الملكية القريبة من الميدان وهناك تناول معه الشراب مدة فى حضور جماعة من رجال البـلاط . وتحـدث معه بحرارة فى كثير من المسائل وبعد بضعة أيام عندما أراد الشـاه استعراض هدايا حاكم مدينة شماخى ويوسف خان حاكم شروان فى ميدان قزوين فقد دعى السفير الاسبانى الى الميدان وتناول الحديث كل الموضوعات سوى الموضوعات السياسية .

وفى أواخر شهر رجب من نفس السنة علم أن الشاه ينوى الرحيل من قزوين والذهاب الى أذربيجان ، فأراد السفير الاسبانى أن يطلب الاذن بمقابلته ويعرض عليه فى مجلس خاص سبب مجيئه وسفارته . وقد كتب بيترو دلافاله فى هذا الشأن يقول : « حين علم السفير الاسبانى بنية الشاه على الرحيل أثار ضجة كى يستقبله الشاه فى جلسـة خاصة ولكن هذا الامر كان يبدو مستحيلا لان شاه ايران لم يكن يستقبل السفراء الاجانب فى قصره أبدا على انفراد اذ أن استقبالهم كان دائما فى ضيافة رسمية حتى ولو كان لدى السـفراء موضوعات سياسية هامة فلم يكن هناك ما يمنع من عرضها عليه فى وجـوه الاخرين . ولكن السفير الاسبانى لم يتحدث فى المسائل السياسية بين الدولتين مع انه قابل الشاه ثلاث مرات .

ولقد سعى السفير كثيرا لعله يستطيع أن يتحدث مع الشـاه في جلسة خاصة وقد بذل حسين بك كبير الامناء وأغامير وزير الغلمان جهودا كبيرة في هذا الصدد ولكنها لم تكلل بالنجاح وفي النهـــاية لجأ السفير الاسباني الى القس جان تادية (١) رئيس القسس الكرمليين في اصفهان والذي كان قد جاء لمقابلة الشاه وقد الح القس على شاه ايران حتى يقبل طلب السفير الاسباني ٠ وقد استجاب الشاه يوم ١٩ يونيو ١٦١٨ م (٢٥ رجب ١٠٢٧ هـ) لرجائه ـ كما سنبين فيمـــا بعـــد ٠

ففي عصر يوم ١٩ يونيو طلب الشاه من السفير الاسباني أن يحضر الى ميـدان قزوين ، وحين وصل الشاه توجه مباشرة الى السفير الاسباني ، وبعد أن تحدث بضع دقائق مع الآخرين في وجود السفير اشار اليه كي يسير معه ثم سارا راكبين فرسيهما ودارا عدة دورات في الميدان ، وكان مترجم السفير وهو عاري الرأس يركب فرسه ويسير بينهما ، وكنا لا نسمع ما يدور بين الشاه والسفير ، ولكن ساروتقي وزير مازندران واسفنديار بك وهما من خاصة الشاه وكانا يسيران خلفهما مباشرة قد اطلعا على موضوع المحادثات ٠

ولقد سمعت فيما بعد نقلا عن السفير أن فيليب الثالث شكى من الاستيلاء على البحرين مركز صيد اللؤلؤ وقلعة جمبرون ومينائها والتي استردها جيش ايران من أيدي البرتغاليين ولكن الشاه دون أن يشير الى موضوع الاستيلاء على الميناء أجـاب بقوله أننا أخذنـــا جزيرة البحرين من أمير هرمز الذي كان منذ القدم تحت حمايتنا ويدفع الخراج لنا ، ولم يكن هذا الأمر يرتبط بالبرتغاليين رعايا ملك أسبانيا ، ولهذا فلا موجب لشكوى ملك أسبانيا أو عتابه ، وعلى عكس ما يتصوره السفير فليس للحكومة الأسبانية أية حقوق على جزيرة البحرين ٠

---

(١) Pere Jean Thadee

بعد هذا ترك الشاه السفير الأسبانى وتوجه الى قصره وبقى السفير وحده فى الميدان ، وقد اصطحبه كبير الأمناء حتى منزله وتفرقنا نحن أيضـــا ٠

كان الشاه عباس حاد الذكاء ماهرا ، فقد كان اثناء احاديثه السياسية يتكلم بحيث يرضى الجانب الآخر ، ولكنه لا يتعهد له بشىء يستمع للحديث ولكنه لا يهتم له وكان لا يعقد اتفاقا ضد مصالحه أو منافعه ولا يمكن استنتاج نواياه مما يتظاهر به ٠

بعد ذلك حينما رأى السفير الأسبانى أن الشاه على وشك الرحيل طلب مقابلته ليستأذن فى العودة الى وطنه ويتسلم الرد على رسالة ملك اسبانيا ،ولكن طلبه لم يقبل ، وبعث له الشاه عباس من يقول له أنه لما كان بعض رفاقه مرضى ، ولما كان السفر بالنسبة له صعبا متعبا نظرا لكبر سنه ، فمن الأفضل أن يذهب الى اصفهان ويستريح هناك من عناء السفر ووعده انه حينما ينتهى من حملته العسكرية ويعود الى اصفهان فانه سيهىء له ما يرضيه ٠ وكانت هذه الرسالة من الدهاء بحيث لم يجد السفير الأسبانى مفرا من قبولها لأن الشاه كان قد طلب من السفير عـــدة مرات أن يرافقه الى آذربيجان ولكن السفير تذرع بمرض مرافقيه وشيخوخته لرفض طلب الشـــاه ٠

ومن البديهى أن الشاه لم يسمح للسفير الأسبانى بالعودة لأحد اسباب الثلاثة التالية :

١ ـ أراد أن يرد على سوء تصرف السفير لرفضه الدعوة لمرافقته له فى السفر الى آذربيجان ٠

٢ ـ أراد كعادته أن يبقى السفير فى ايران بعض الوقت لانه كثيرا ما ذكر أن السفراء اذا أنهوا مهامهم بسرعة وعادوا الى بلادهم فيجب أن يسموا سعاه بريد لا سفراء ٠

٣ ـ ربما أراد أن يبقى السفير فى ايران حتى تعرف نتيجة حربه مع

السلطان العثمانى كى يتمكن من اتخاذ اجراء يتعلق بتوثيق علاقات الصداقة مع ملك أسبانيا أو قطعها ٠

على أية حال كان الشاه غادر قزوين دون أن يقابل السفير الذى اضطر للتوجه الى أصفهان ٠

الاستيلاء على ميناء جمبرون

قبل أن نستطرد فى الحديث عن سفارة دون جارسيا دى سيلفا ، نتحدث عن ميناء جمبرون وأحواله السياسية فى ذلك الوقت ٠

كان ميناء جمبرون عبارة عن قرية صغيرة على ساحل مضيق هرمز يبعد عن جزيرة هرمز نحو فرسخين ، ولم يتفق الرحالة الاوربيون على صحة اسم هذا الميناء فمن جمبرون الى كمبرون بضم الجيم والكاف وفتحهما الى كمبرو أو الاكتفاء باطلاق اسم « البندر » عليها أو حتى البندل ٠

عندما استولى البرتغالون على جزيرة هرمز وجعلوا أمير تلك الجزيرة تحت حمايتهم ، واستولوا أيضا على ميناء جمبرون الصغير بحجة انه ضمن ممتلكات أمير هرمز مع مائتى ميل من المياه المحيطة به ولما كانت سواحل الجزيرة لا يوجد بها ملجأ مناسب لسفنهم الحربية الصغيرة فقد جعلوا ميناء جمبرون مرسى لمثل هذه السفن كما بنوا قلعة هناك فى بداية حكم الشاه عباس لتتولى حراسة سفنهم والمحافظة عليها والتى كان يوجد منها بصفة مستمرة نحوا من ٢٥ الى ٣٠ سفينة مسلحة وكان رجال المراقبة فى جزيرة هرمز عندما يرون سفينة أجنبية فى البحر يخبرون سفنهم باطلاق المدافع حتى تخرج هذه السفن من ميناء جمبرون لتحصيل رسوم العبور فى المضيق والرسوم التجارية الاخرى ٠

وبعد استيلاء البرتغاليين على البحرين وسوء معاملتهم للتجار الايرانيين وأهالى جمبرون وكل الموانى والجزر المحيطة بهم صمم الشاه عباس على القضاء على نفوذهم فى سواحل الخليج قدر الامكان ٠ وكلف الله وردى خان أمير أمراء فارس لتنفيذ هذا الاجراء ٠ وقد أرسل حاكم فارس بدوره ابنه أمام قلى خان والذى كان حاكما على لار للاستيلاء على ميناء جمبرون وذلك سنة ١٠٢٢ هـ ٠ ولكنه لم يتمكن من فتح القلعة فى ذلك العام

وفى العام التالى وبعد وفاة أبيه (١٤ ربيع الثانى سنة ١٠٢٢ هـ) وحينما أصبح مكانه أميرا للامراء تمكن من الاستيلاء على قلعة جمبرون وخربها وأنشأ بدلا منها قلعة حصينة على نمط القلاع التى كانت تبنى آنذاك فى أوربا على مسافة ٣٠٠ قدم من القلعة السابقة بعيدا عن البحر ·

منذ ذلك الحين خرج ميناء جمبرون من أيدى البرتغاليين وخضع للسيطرة الايرانية وفوض أمام قلى خان أحد قواده لحكومة هذا الميناء وادارته·

وعندما وصل دون جارسيا دى سيلفا فيجورا سفير أسبانيا الى ايران كان حاكم جمبرون اسمه قاسم بك وكان هذا الميناء يتكون من نحو مائتى منزل وقد ارتقى ميناء جمبرون كثيرا بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز وسمى الميناء منذ ذلك الوقت باسم بندر عباس وأصبح مركز تجارة الانجليز والهولنديين كما سنبين ذلك فيما بعد ·

بعد أن توجه الشاه عباس من قزوين الى آذربيجان كما سبق أن ذكرنا اضطر دون جارسيا سفير أسبانيا للذهاب الى اصفهان بناء على أوامره وأقام هناك فى انتظار انتهاء الحرب الايرانية العثمانية وعودة الشاه عباس الى عاصمته اصفهان ·

ولكن الشاه عباس بعد ان انتهى من الحرب مع العثمانيين وتصالح معهم عاد الى قزوين ومنها الى فرح آباد فى مازندران (٢٨ ذى القعدة ١٠٢٧ هـ) ولم يعد الى عاصمته حتى الثالث من شهر رجب فى العام التالى (١٠٢٨ هـ) ·

وقد وصلت بعض الرسائل من ملك أسبانيا عن طريق مندوبية فى الهند الى دون جارسيا وذلك خلال المدة التى قضاها الشاه فى فرح آباد(١) مازندران وقد تضمنت هذه الرسائل أن روبرت شيرلى سفير الشاه عباس الى ملك أسبانيا قد اقترح عليه اقتراحا خلاصته أن الحكومة الاسبانية اذا أرسلت بعض السفن الحربية الى مدخل البحر الاحمر وأغلقت طريق التجارة مع الهند فى وجه الجزيرة العربية ومصر وبقية الدول التابعة للعثمانيين فان شيرلى سيطلب من الشاه عباس أن يبذل مساعدات أكثر فى المسائل التجارية

(١) فرح آباد كان اسمها طاحونه (المترجم) ·

والسياسية للبرتغاليين الاسبان فى جزيرة هرمز والهند وربما استرضى الشاه عباس حتى يصرف النظر عن ميناء جمبرون وأيضا يعيده مرة ثانية للحكومة الاسبانية ٠ ورأى ملك أسبانيا أن يطالب باعادة جزيرة البحرين كشرط لتبول هذا الاقتراح ولكن روبرت شيرلى ذكر أنه لا يمكنه التفاوض فى هذا الامر على أية حال فان ملك أسبانيا لايثق فى كلام روبرت شيرلى مع أنه كاثوليكى المذهب ويطلب من القس ملكيور ديزانج المندوب المقيم لاسبانيا فى ايران أن يتفاوض مع الشاه عباس مباشرة بشأن مقترحات سفيره ويبلغ الحكومة الاسبانية عن مدى صحتها حتى يمكن للحكومة الاسبانية أن تعقد اتفاقا مع روبرت شيرلى بشأن ارسال سفن حربية للبحر الاحمر بشرط أن تعيد الحكومة الايرانية الىأسبانيا ميناء جمبرون علىالاقل٠

وقد أرسل دون جارسيا هذه الرسائل من اصفهان الى قزوين حيث كان يقيم القس ملكيور آنذاك فحملها القس وتوجه بها الى فرح آباد لمقابلة الشاه ولكن الشاه عباس قال له أنه لا حاجة به الى السفن الحربية الاسبانية نظرا لأنه كان قد تصالح مع الحكومة العثمانية كما أبلغه عن طريق السفير أيضا أن الاراضى التى استولى عليها أرض ايرانية ولن يعيد شبرا واحدا منها للبرتغاليين ٠

ويجب أن نذكر هنا أنه قبل أن تصل رسائل ملك أسبانيا الى سفيره دون جارسيا فان روبرت شيرلى كان قد قام بارسال عدة رسائل باللغة الاجنبية وبواسطة مبعوث خاص عن طريق حلب الى القس جان تأديه رئيس القسس الكرمليين فى اصفهان ورجاه أن يترجمها للشاه عباس ولكن هذه الرسائل وصلت الى القس فى اصفهان بينما كان الشاه وقتذاك فى أردبيل وكانوا يقولون أنه سيتوجه منها الى اصفهان ولهذا اضطرالقس الى حملها معه الى اصفهان ولكن الشاه توجه الى مازندران خلافا لما كان شائعا وحينما طلب منه القس جان تاديه تعليمات بشأن رسائل روبرت شيرلى رد عليه بأن يبقيها معه حتى يعود هو الى اصفهان ويعرضها عليه ، ولهذا بقيت رسائل روبرت شيرلى مدة فى اصفهان دون أن تقرأ ٠ ولهذا استطاع سفير أسبانيا فى ايران أن يطلع على مقترحات روبرت شيرلى قبل أن يطلع عليها الشاه وذلك عن طريق الرسائل التى وصلته من الهند ٠

فى أواسط سنة ١٠٢٨ هـ عاد الشاه عباس من مازندران الى اصفهان

وبعده بثلاثة أيام وصل سفراء الهند والعثمانيين وحكومة موسكو الذين كانوا قد التقوا قبل هذا مع الشاه فى أردبيل وقزوين • وقد كتب بيترودلافاليه – الذى كان آنذاك فى اصفهان – يصف وصول السفراء وترتيبات استقبالهم بالتفصيل • ولما كان يمكننا من هذا الوصف الوقوف على مراسم البلاط الايرانى وترتيبات استقبال السفراء الاجانب فى ذلك العصر ، فاننـــا ننقل هنا خلاصة الاجزاء الهامة التى كتبها :

فى صباح يوم الاربعاء ١٩ يونيو ١٦١٩ م (٦رجب ١٠٢٨ هـ) وصل الى اصفهان سفراء الدول الثلاث : الهند وموسكو والعثمانيين بكثير من الحفاوة ، وكانت حكومة موسكو قد بعثت بسفيرين الى بلاط الشاه عباس ، وقد توفى أحدهما فى قزوين ووصل الآخر مع سكرتيره الى اصفهان ، وفى يوم وصول السفراء أعلن الشاه لاهل اصفهان أنه سيستقبلهم شخصيا ، ويجب على أهل المدينة أيضا أن يستقبلوهم ويرحبوا بهم ، كما طلب من سفيرى الدولتين الاخريين وهما سفير أسبانيا ومندوب انجلترا وكانا يقيمان قبله فى اصفهان أن يلحقا به خارج المدينة ليكونا فى استقبال السفراء الثلاثة •

وكان الشاه قد أعد قبل هذا نحو ٦٠ ألفـا من حملة البنادق من أهل اصفهان والمناطق المحيطة بها وأمرهم أن يأتوا الى المدينة فى يوم معين وهم على أحسن صورة ممكنة وقد حضروا من مختلف الجهات فى جماعات وقد ارتدوا الملابس الملونة البهيجة وعلى رؤسهم العمائم المزينة بالريش الجميل وكان لكل جماعة قائدها الخاص ، وكانت تسير على أصوات الموسيقى من طبل وأبواق والات موسيقية حربية أخرى معروفة فقط فى ايران • كمـا كان لكل جماعة علمها الخاص بها وحربة مربوط فى نهايتها أشرطه عريضة وبعض الشرائط الرفيعة الملونة • وقد اصطف هؤلاء الجنود البالغ عددهم ستين ألفا فى صفين من أمام القصر الملكى الواقع فى ميدان اصفهان حتى قرية دولت اباد التى كان بها السفراء وتقع على بعد ١٢ الف قدم من المدينة وكان كل منهم يحمل بندقية وضعها واقفة على قاعدتها بجانبه •

فى صباح هذا اليوم تصاعدت أصـــوات الطبول والابواق والآلات الموسيقية الاخرى التى تصم الاذان ، وكان الجنود يخرجون من صفوفهم فى جماعات من ثمانية أو عشرة جنـــود ويرقصون كما هى العاده فى ايران وكانت

كل جماعة تتعب من الرقص تعود الى مكانها لتحل محلها جماعة أخــرى تتابع الرقص وتعطى سلاحها للآخرين حتى تنتهى من رقصها وقد لاحظت أن الايرانيين ميالون للرقص كثيرا فهم عندما يسمعون صوت الموسيقى ويشاهدون جماعة ترقص يفقدون سيطرتهم على أنفسهم شيئا فشيئا حتى أكثرهم وقارا واتزانا فانهم يشتركون فى أماكنهم بالرقص بتحريك أيديهم وأقدامهم وعيونهم وحواجبهم ورؤسهم ٠

على أية حال فان الطريق كله من دولت آباد حتى اصفهان ويبلغ نحو أربعة كيلو مترات استمر فيه الرقص والغناء والموسيقى من الصباح حتى المساء وانشغل الناس بالرقص والحركة والتصفيق وكان يسمع بين لحظة وأخرى صيحات « اطـال الله بقـاء الشاه عباس ونصره » ٠

وكان يقف أمام قصر الشاه وعلى طول الميدان صفان من الغلمان الحسنى الصورة الى جانب الصفين من حملة البنادق وكانوا يحملون أقداحا ذهبيـة للشراب وبعضهم يحمل آنية الماء المثلج وكانوا يسقون الناس من هذا أو ذاك٠

وكان الشـاه عباس قد أمر رجاله المعروفين وأعيان البلاط كى يخرجوا الى دولت آباد لاستقبال السفراء فتوجهوا الى هناك وسط صفوف الجنـد وسار خلفهم تابعوهم ومرافقوهم وكانوا يلبسون ملابس فاخرة من الحرير وعمائم محلاة بالجواهر النفيسة والريش الجميل ويركبون خيولا أصيلة ألجمتها فضية أو ذهبية وكان الازدحام شديدا حتى يخيل اليك أن كل أهل اصفهان ركبوا الخيـول وخرجوا للاستقبال ٠

ولم يكتف الشاه بهذا بل أمر بقيـة الناس من غير المسلمين من فرنجة ومجوس وأرمن ويهود كى يخرجوا للاشتراك فى الاستقبال خاصة اليهود الذين كان قد أكد عليهم وقد خرجوا من المدينة فى جماعات وكانوا يغنون أغـانى خاصة ويقرأون أدعية ويحملون شيئا ملفوفا فى قماش يقال أنه التوراة مع شمع مضاء ، كما كان المجوس مع نسائهم وبناتهم يغنــون ويرقصون فى الحوارى ، وكان يقف فى وسط حملة البنادق سبعمائة شخص من مسيحيى جلفـا كما كان يقف ثلاثمائة فارس باسلحتهم الـكاملة وملابسهم الجميلة فى مكان اخر عين لهم من قبل ٠

بالاضافة الى هذا أمر الشاه أن تشترك جماعة من نحو عشرين الى خمسة وعشرين سيدة من نساء الحرم فى استقبال السفراء ، وهـذا الامر من بين التشريفات الخاصة التى تحدث مع السفراء فوق العادة فقط وقد سار هؤلاء النسوة راكبات خيولهن مكشوفة وجوههن وفى كامل نظامهن لاستقبال السفراء ، وكما قلت كان معروفا أنهن من نساء الحرم ، ولكنى على يقين أنهم غير ذلك لان نساء الحرم وحتى جوارى الشاه لايستطيع أى رجل حى سوى الشاه شخصيا وأغوات قصوره رؤيتهن ويستطيع المقربون أيضا مثل الاب أو الاخ الذهاب لرؤيتهن فى قصر الملك ٠

حينما سمع السفير الهندى أن الشاه سيخرج لاستقباله فى قرية دولت آباد انتظر هناك طويلا ، ولكن الشـاه ـ الذى كان فى رأسه فكرة أخرى ـ اكتفى بارسال الاعيان وكبار رجال الدولة وبقى الشاه فى اصفهان حتى اضطر السفير الهندي فى النهاية الى التوجه للمدينة واضطر سفيرا العثمانيين والروس الى متابعته فى السير ٠ ومن الاشخاص الذين كلفهم الشـاه بالذهاب لاستقبال السفراء كان السفير الانجليزى الذى لم يـكن يهتم بالسلوك والتقاليد الدبلوماسية والملكية ، فقد ذهب الى دولت آباد كذلك أرسل الشاه عباس سبعة خيول بالجمة وسروج ذهبية خصيصا للسفير الاسبانى وطلب منه الخروج من المدينة ليكونا معا فى استقبال السفراء ورؤيتهم ٠ وقد أطاع هذا الكهل المتكبر وخرج برفقة حاكم المدينة ٠ ولمـا كان لايريد أن يرافق بقية السفراء ترفعا منه وتكبرا ، فقد كان دائم البحث عن الشـاه ٠ ولكن الشاه كان على العكس يريد أن يرى السفير الهندى الذى من أجله أقيمت كل هذه الاستقبالات ٠ ولهذا فقد غادر المدينة عن طريق آخر وحينما وصل الاشخاص الذين كانوا يتقدمون موكب السفير الهندى الى مشارف المدينة التقوا بالشـاه فى مكان على مقربة منها فأدى مراسـم الاستقبال وبعد ساعة ونصف من وصول الآخرين للمدينة اصطحب الشـاه سفير الهنـد وحده الى القصر الملكى ، وقد غضب السفير الاسبانى حين عـلم أن الشـاه لم ير السفراء الآخرين بل حتي لم يستقبلهم وأخذ يشكو قائلا أن مقامه أرفـع من أن يخرج ليستقبل تاجرا ، وكان يقصـد بالتاجر سفير الهنـد ، ذلك أن أكثر رجال الهنـد انذاك كانوا تجـارا محترفين ولكنه كان مخطئا اذ أن هذا السفير الهندى كان من أقارب ملك الهنـد وكان أحد أهم ثلاثة رجال فى بلاطه ، وكان هؤلاء الثلاثة بالترتيب

هم : خـان الخانين ، وكان يلى الشاه فى علو المرتبة ، ثم أمير الامراء ، والثالث خان العالم ، وهذا الشخص الذى أرسله السلطان سليم الملقب نور الدين جهانكير كسفير الى الشـاه عباس كان خان العالم أى الشخص الثالث فى الهند بعـد السلطان ٠

على أية حال لم يكد سفير أسبانيا يعود فى غاية الضيق والغضب الى منزله مع مرافقيه حتى ارسل الشاه فى اثره حسين بك كبير الامناء وطلب منه أن يذهب الى القصر الملكى لان كل السفراء هناك فاضطر دون جارسيا لارتداء ملابسه من جديد والذهاب الى القصر مع مرافقية ، وكان هناك حسين بك قورجى وداود خان شقيق أمام قلى خان أمير أمراء فارس وقرجغاى خان قائد الجيش الايرانى وكذلك كل الوزراء واصطحب تيمور آغـا رئيس أغوات القصر السفير الى الداخل وكان فى القاعة الكبرى السفير العثمانى وسـفير الهند وشقيق شريف مكة وسفير الازبك والروس ومندوب انجلترا ٠ وبعد دقائق دخل الشاه من بـاب خاص مع اثنين من الخدم وحيا السفراء واختار مكانا لكل واحد وأجلس سفيرى الهند واسبانيا على مقربة منه كما سمح لمرافقى السفير الاسبانى بالدخول ٠ ولمـا كان السفير الاسبانى لايستطيع الجلوس على الارض ، فقد طلب أن يحضروا له كرسيا قصيرا ٠

فى هذا المجلس قام كل سفير بتقديم رسائل من قبل ملكه ومن بينهم السفير الاسبانى الذى قدم رسالة كانت قد وصلته آنذاك من الملك فيليب الثالث بواسطة قس برتغالى اسمه برنـار أزفيدو (١) وقد أعطى الشـاه الرسالة الى القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين فى أصفهان كـى يترجمها ولم تكن هذه الرسالة تتضمن غير المجاملات الرسمية ، ثم شرب الشـاه مع السفراء وبعد ساعة استأذن السفير الاسبانى وعاد ثم تفرق البـاقون بعـد ذلـك ٠

وفى مغرب ذلك اليوم دعا الشاه السفراء ومرافقيهم لمشاهدة أضواء السوق واصطحبهم جميعا الى احدى القهاوى، وكانت القهاوى آنذاك واسعة كبيرة نظيفة ومفتوحة وفى تلك الليلة زينت كل الاسواق والقهاوى والدكاكين بالمصابيح حيث علقت فى أسقفها مصابيح بدت كأنها النجوم فى السماء ، ولمـا كانت

---

(١) Bernard Ozevedo

للقهاوى مسقوفة وفى وسط افنائها توجد أحواض كبيرة ، لهذا كانت الارض أيضا تتلالا كالسماء التى ملأتها النجوم من انعكاس مصابيح الاسقف والمصابيح الاخرى التى وضعت حول الاحواض ٠

كما أقيمت أمام كل قهوة أقواس نصر فرشت تحتها البسط المختلفة لجلوس المترددين على القهوة والمتفرجين ، وقد جلس الشاه تحت أحد هذه الاقواس ، وأذن للسفير الاسبانى بالجلوس على كرسى فى الناحية الاخرى المواجهة له وجلس السفير العثمانى على يساره وتحت قوس آخر جلس سفراء موسكو ومرافقوهم وجلس مندوب انجلترا ورجاله تحت قوس نصر أبعد قليلا وجلس الآخرون من قسس وضيوف الشاه ورجال الدولة جماعات جماعات فى أقواس نصر أخرى وجلس سفير الهند ـ الذى وصل متأخرا بضع دقائق ـ فى مواجهة الشاه ٠

بعد هذا قام غلمان على قدر كبير من الجمال من جورجيا واصفهان ممن يعملون عادة فى مثل هذه القهاوى لخدمة الرواد والرقص بأداء رقصات جورجية وايرانية وهندية وتاتارية وهم يلبسون ملابس نسائية ويغنون أيضا على أنغام الموسيقى ٠

فى هذه الاثناء أحضروا مفارش مائده صغيرة وضعوها أمام الشاه والسفراء وقدموا لهم العشاء وقد أكل الشاه قليلا ولكن السفراء لم يتناولوا شيئا من الطعام أما لشبعهم واما لانهم لم يروا من المناسب أن يتناولوا العشاء على هذا النحو ، كما أنهم لم يشربوا القهوة التى وضعها امامهم غلمان القهاوى الحسان الوجوه واكتفوا بشرب الخمور وقد شرب الشاه نخب كل واحد من ملوكهم ٠ وبعد انتهاء الطعام وغسل الايدى من الاباريق ذات الطشوت الذهبية جففوها بالمناديل التى كان يحملها الخدم فى وسطهم نهضوا وخرجوا من القهوة وتوجه الشاه مع السفراء والمرافقين الى السوق واصطحبهم لمشاهدة دارسك النقود الذهبية والفضية ومنازل القوافل (الخانات) ، وكان يتوقف فى الطريق للشرب أو مشاهدة بعض الدكاكين ٠ وكان وقوفه دقائق أمام دكان ملك بك رئيس تجار طرابزون الذى كان أكبر دكان فى السوق ثم أمام دكان الكساندر شودوندولى الفينيس الذى كان مملوءا بالصور والمرايا والبضائع الايطالية المختلفة ٠ وقد تحدث معه الشاه بعض الوقت فى تواضع وعرض صورة ولوحاته التى كان أغلبها للملوك

ومشاهير ايطاليا على السفير الهندى ورجاه أن يأخذ منها مايريد وألا يتقيد بالثمن لانه شخصيا سوف يرضى التاجر الفينيسى ، ولكن السفير الهندى أبى تمنعا وتكبرا ولم يأخذ شيئا ، كما توقف الشـاه أمام دكان خواجـه نظر أحد تجار جلفا الارمن وبعض دكاكين الارمن الآخرين وأخذ من دكان أحدهم زجاجة خمرا استحسنها ثم واصل جولته ٠

كان الشـاه طيلة هذه المـدة يضحك ويمزح مع السفراء خاصة سفيرى أسبانيا والهند وكان السفير الاسبانى رجلا رزينا موقرا وكان الشـــاه يخاطبه بلقب « بابا » وكان هو بدوره يراعى الاحترام الكامل للشاه ٠ أمـا سفير الهند فكان على العكس من ذلك دائم الضحك يتحدث بأحديث لطيفة ويسلك سلوكا وديا جدا مع الشاه ، فمثلا كان أحيانا يضربه على ظهره وأحيانا يتكىء على كتفه كمن يريد أن يسر اليه شيئا فى أذنه وأحيانا يخاطب الشاه ضاحكا بلقب العجوز مع أن شعر رأس السفير ووجهه كان أبيض لكبر سنه ٠ وكان حديث السفير الهنـدى وسلوكه فى الظاهرينمان عن قربه من الشـاه ولكنها فى الواقع تدل على خفته وعدم معرفته بالمراسم والسلوك الملكى ، ولعله كان يرتكب هذه الحركات عمدا لكى يتفادى تكبر الشـــاه الطبيعى وعـــدم اعتنائه بأحـــد ٠

بعد مدة من التجول فى السوق شعر السفير الاسبانى بالارهاق والنوم فاستأذن الشاه وذهب الى منزله وتبعه جماعة من المدعوين مثل القس جـان تادية وبقية القسس ٠ وبعد هذا بقليل عاد الشـاه الى القصر الملكى دون أن يحس به أحد وظل الباقون حتى طلوع الصباح يتجولون ويشربون ٠

وفى يوم الجمعة ٥ يوليو (٢٢ رجب) أقيمت احتفالات عيد نثر المـاء أو رش المـاء ولم أكن قد شاهدت احتفاله حتى هذا اليوم ٠ ففى هذا اليوم أرتدى جميع الناس ومن مختلف الطبقات وحتى الشـاه نفسه ودون أى اعتبار لمراكزهم ارتدوا ملابس قصيرة على طريقة أهل مازندران ٠ وحتى لاتتسخ عمائمهم من المـاء أو الوحل فقد ارتدوا بدلا منها قبعات وشمروا أكمامهم حتى سواعدهم ٠ وتوجهوا الى شاطىء النهر حيث حضر الشــــاه وبمجرد أن أذن لهم اخذوا ينثرون المـاء على بعضهم باوانى التى كانت معهم وهم يغنون ويرقصون ويلعبون ويضحكون وأحيانا بسبب الغضب

الانفعال أو لاسباب أخرى كان البعض يلقى بالآنية ويأخذون فى نثر المـاء بأيديهم أو يلقون بمنافسيهم فى النهر أو الاحواض ، وغالبا ما ينتهى هذا العيـــد ببعض الغرقى ٠

ويتم الاحتفال بعيد نثر المـاء هذا على شاطىء زاينده رود فى نهاية شـارع جهارباغ (الحدائق الاربع) فى مواجهة جسر الله وردى خان الجميل، ولهذا السبب ذهب الشاه الى هناك فى الصباح الباكر وظل طول النهار فى أحدى الغرف التى تحت الجسر يشاهد الاحتفال وقبل أن تنتهى الاحتفالات ببعض الوقت ويكف الناس عن نثر الماء بعضهم على بعض دعى الشاه السفراء الى غرفته تحت الجسر ، ولمـا كان الوقت ضيقا فقـد سمح للناس بالانصراف بعد وصولهم بقليل وأخذ يتناول الشراب أثناء حديثه مع السفراء ٠

فى هذا المجلس أفشى الشـاه عزمه على فتح قندهار ، وأثناء حديثه مع سفير أسبانيا أشـار الى سفير الهند وقال له متعمدا ، هل ترى هـذا الرجل ، ان لم يعد ملكه الشـاه سليم قندهار الى فسوف يرى ماذا سأصنع به ٠ وكان الشـاه عباس بهذا الكلام يريد أن يبلغ سفيرى أسبانيا وتركيا بالاتطمع بلادهما فى الاراضى الايرانية لانه فى نفس اليوم أبدى كثيرا من العطف على السفير الاسبانى الذى شكره قائلا : « أننى سعيد بالمحبـة التى يبديها لى صاحب الجلالة لانها فى الواقع احترام لملك أسبانيا » فالتفت الشـــاه الى رئيس القسس الكرمليين الذى كان حاضرا وقال له « بالله هلا قلت له أن احترامى له ليس لاجل ملك أسبانيا بل هو احترام لشخصـــه لأنه ضيفى » ٠

بعد هذا أذن الشـاه للسفراء جميعا بالانصراف فيما عـدا مندوبى انجلترا الذين استبقاهم وأبدى لهم كثيرا من المحبة والاحترام ووعدهم بأن يترك لهم أحد موانى جنوب ايران مثل ميناء جمبرون الذى اسـترده من البرتغاليين ويقع أمام جزيرة هرمز أو مكانا آخر فى جزيرة قشـم التى تمتاز عن هرمز بوجود المـاء العذب بها وقد سمعت الشـاه يكرر لهم القول بأنهم اذا نشطوا فى شراء الحرير الايرانى ونقله الى أوربا عن طريق البحر فان يرسل شيئا منه عن طريق العثمانيين البرى ٠

فى اليوم التالى — كما كتب دون جارسيا وكما ذكر بيترو دلافاليه أيضا — قـام الشـاه بدعوة السفراء الى ميدان المدينة لمشاهدة صراع الحيوانات

كالثيران والكباش . وفى اليوم التالى أرسل بعض المربى والحلوى للسفير الاسبانى وبعد ليلتين من هذا ذهب مع جميع السفراء الى قرية عباس آباد التى كانت على مقربة من قرية « خرابات » ـ كما يذكر دون جارسيا ـ وتوجه الى منزل أمام قلى خان أمير أمراء فارس . ولما كان قد شاع فى أصفهان فى ذلك الوقت أن الامير تاج الدين أمير صيدا وجماعة من أهل لبنان قد ثاروا ضد السلطان العثمانى واستولوا على بيروت وأن ملوك فرنسا وأسبانيا وجمهورية فينيسيا فى حرب مع الاتراك ، فقد وجه الشاه بعض أسئلة للسفراء عن هذه الامور ولكن أحدا منهم لم يكن لديه اطلاع كامل على هذه الاحداث .

وفى منزل أمام قلى خان جلس الشاه ومرافقوه فوق (مهتابى خانه) قمرية وأخذوا فى تناول الشراب وكان سفير الهند مدمنا تدخين « البايب » ويبدو أن رائحة دخانة كانت تضايق الشاه ، لهذا نراه ينهض فجأة من مكانه بدون عمامته ويذهب الى ناحية أخرى ، وأثناء سيره يأخذ عمامة أمام قلى خان من على رأسه ويتوسدها وينام فى أحد الاركان ، ويأمر باعطاء عمامته لامام قلى خان . وبعد أن انتظر السفراء بعض الوقت ويئسوا من أن يستيقظ الشاه عادوا الى منازلهم .

وفى الليلة التالية دعا الشاه السفراء للعشاء فى قصر عالى قابو (الباب العالى) ولكنه لم يحضر وبعد فترة انصرف الضيوف .

وفى يوم الجمعة ٢٠ شعبان من نفس العام (٢ أغسطس) وقبل أن يغادر اصفهان للنزهة فى المناطق الجبلية القريبة ، استدعى السفراء مغرب ذلك اليوم للقائه فى ميدان « نقش جهان » وسمح لسفراء أسبانيا وموسكو والبابا بالعودة لبلادهم ثم اصطحب دون جارسيا سفير أسبانيا الى ناحية مظلمة من الميدان ونزل من على حصانه وجلس على الارض وسمح للسفير بالجلوس أمامه واستدعى كذلك القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين واثنين من عظماء الاسبان الذين كانوا يرافقون السفير ليكونوا شهودا على محادثاته مع السفير . ولم يكن من الايرانيين سوى ساروتقى الوزير وقرجغاى خان القائد وحسين بك كبير الأمناء وبعض أشخاص من المقربين للشاه وطلب الشاه من القس جان تاديه أن يترجم محادثاته مع السفير،

ثم قال اذا كان لديه شيء يود قوله فليذكره • فقال السفير ليس لدى شيء سوى أننى أرجو أن يقوم جلالة الشـــاه شخصيا بوضـــع كل المسيحيين المقيمين فى ايران مثل البرتغاليين والاسبان والايطاليين تحت رعايته وحمايته ويسمح لهم باقامة كنائس لهم كما هو الحال فى اصفهان • فقال الشـاه : أن هذا الطلب لا يحتاج الى رجاء لانه شخصيا يرعى المسيحيين كما أنـه لايعارض اقامة الكنائس • والرجاء الثانى للسفير هو أن ينظر الشاه نظره صداقة الى جيرانه البرتغاليين فى هرمز وألا يحمى أو يؤيد اللصـــوص والقراصنة كالانجليز وأمثالهم الذين يعدون أعداء للبرتغال •

ولمـا كان الشـاه لايريد من السفير أن يذم الانجليز فقد قطع كلامه قائلا : « اذا كانت علاقتى اليوم قد وهنت بالبرتغاليين فى هرمز فذلـــك تقصيرهم لانهم يسيئون للمسلمين ويأسرونهم ويسجنونهم دون ذنب أو سبب كما أنهم يمنعونهم من التردد على ايران ويجبرونهم على الدخـول فى المسيحية ولا شك أنه يجب عليهم أن يكفوا عن هذه الاعمال القبيحة كما أن عليهم ألا يتدخلوا فى شـــئون الانجليز » •

ثم عرض السفير موضوع ميناء جمبرون وجزيرة البحرين ، فأجابه الشـــاه اننا أخذنا جزيرة البحرين من أميرهرمزولم تكن متعلقة بالبرتغاليين، واذا كان للبرتغاليين قبل هذا عمل فى جزيرة البحرين مع أمير هرمز المسلم فسيكون لهم معنا ونحن مسلمون أيضا نفس العمل وبهذا لم يختلف الامر بالنسبة لهم ولا أظن أن فائدة شـاه ايران لمجاورته أســـبانيا ستكون أقل من فائدته لمجاورته لامير هرمز • أما فيما يتعلق بميناء جمبرون فيجب أن نقول صراحة أن هذا الميناء يقع على الاراضى الايرانية ويخرج كلية عن نفوذ حكومتى البرتغال وهرمز واستيلائى على هـذا الميناء ليس فيـــه اعتـداء على حقـــوق أحـــد •

على أية حال فان الشـــاه أخبر السفير صراحة أنه لن يرد شيئا مما استولى عليه ، كما اشتكى من أن ملوك الفرنج غالبا ماوعدوه ولكنهم لم يوفوا بوعودهم ، وقال أننى الى الآن قد استوليت من الاتراك على قلاع يزيد عددها على عدد أيام السنة أى أكثر من ٣٦٥ قلعة • بينما ملوك أوربا المسيحيين لم يستطيعوا الاستيلاء على منزل أو مخزن بل حتى على حظيرة

ماعز ، واذا استمروا معى على هذا المنوال فلا مفر أمامى من الاستيلاء على بيت المقدس ، وعمل مايجب عمله ٠

ثم سمح الشاه للسفير بالعودة بكل احترام قائلا أنه سيرسل معه سفيرا يحمل هدايا قيمة ، وسيرسل معه أيضا الرد على رسالة ملك أسبانيا، ثم أمروزيره أن يعد الردعلى رسائل فيليب الثالث ٠ثم كلف أحد رجال بلاطه(١) بالذهاب الى أسبانيا كسفير مع دون جارسيا وسلمه هدايا تقدر قيمتها بنحو تسعة الاف تومان ٠ ولم يسافر هذا السفير مع دون جارسيا بل ظل فى اصفهان حتى وصل دون جارسيا الى جزيرة هرمز (١٣ ذى القعدة ١٠٢٨ هـ - ١٩ أكتوبر ١٦١٩ م) ، ثم بعث اليه برسالة يسأله عن حركة الرياح الموسمية حتى يلحق به فى الجزيرة فى الوقت المناسب ويسافرا معا الى الهند ، ولكن يتضح من كتاب رحلة دون جارسيا والمراجع الاخرى أن هذا السفير لم يسافر ابدا الى أسبانيا ٠

(١) كتب دون جارسيا أن اسم هذا السفير كان « كايا سلطان » ويمكن أن نرجح أن اسمه ربما كان كيا سلطان ٠

مقدمات الاستيلاء على جزيرة هرمز

قطع علاقات الصداقة مع أسبانيا :

كما سبق أن ذكرنا فقد كان الطريق الوحيد لتصدير البضائع الايرانية الى الدول الاوربية هو الطريق عبر الدولة العثمانية أو أملاكها ، وذلك حتى عهد الشاه عباس الكبير ، ومع أن طريق الخليج البحرى قد فتح للتجارة ظاهريا منذ استقرار البرتغاليين فى جزيرة هرمز ٠

الا أنه لم تعد منه فائدة على التجارة الايرانيين لان المسئولين البرتغاليين احتكروا شراء البضائع الايرانية وتجارتها ٠

وكان الشاه عباس طيلة المدة التى حارب فيها الدولة العثمانية يسلك طريق الصداقة والسلم مع الحكومة الاسبانية وموظفيها البرتغاليين لعله يستطيع أن يوحدها معه فى حربه ضد العثمانيين، ويستفيد من القوات البحرية الاسبانية التى كانت بلى منافس فى ذلك الوقت للاطاحة بأعدائه ٠ وكان يظهر موافقته على بيع الحرير وبقية الحاصلات الايرانية لهم ٠ ولكن البرتغاليين احتكروا تجارة الخليج لانفسهم ولم يسمحوا لاحد غيرهم بنقل البضائع الى الهند وأوربا وأساؤا الى التجار الايرانيين ورعايا ايران فى موانى الخليج ، لهذا فان الشاه عباس كان يبطن لهم الحقد وكان ينتهز الفرصة ليكف أيديهم عن السواحل الايرانية ويفتح طريق الخليج أمام تجارة ايران وبقية الدول ٠

لهذا فقد قام الشاه عباس بالاستيلاء على جزيرة البحرين التى كانت تخضع لامير هرمز ٠ وفى الواقع كانت فى حوزة البرتغاليين وذلك سنة ١٠١٠هـ ثم ظل يحرر سواحل جنوب ايران من سيطرة ونفوذ البرتغاليين ٠ وفى عام ١٠٢٢ هـ استولى على ميناء جمبرون الذى كان البرتغاليون قد استولوا عليه وبنوا فيه قلعة للمحافظة على جزيرة هرمز ٠

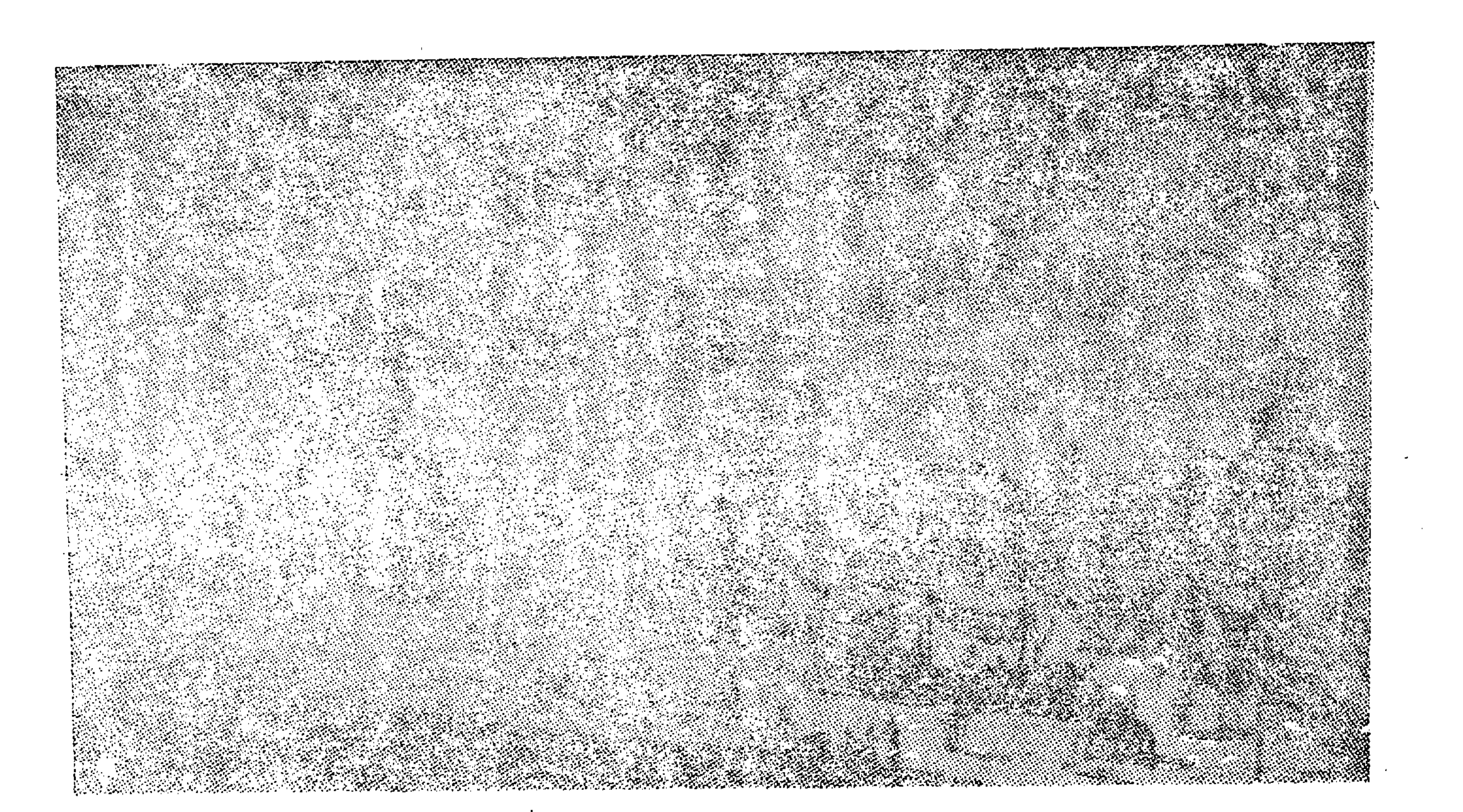
بعد ذلك عندما أسس التجار الانجليز شركة الهند الشرقية فى الهند وأرسلوا بعض المندوبين الى أصفهان للتجارة مع ايران وشراء الحرير فان الشاه عباس أبدى كثيرا من العطف والمساعدة لمندوبى هذه الشركة نكاية فى البرتغاليين ، بل أنه ــ كما سنذكر فى باب العلاقات الايرانية الانجليزية ــ عقد اتفاقا مع مندوب الشركة على أن يبيع كل انتاج ايران من الحرير فى

الجنوب لشركة الهند الشرقية الانجليزية فقط ، وألا يرسل شيئا الى أوربا عن طريق العثمانيين ·

كان عنف البرتغاليين وظلمهم فى سواحل وجزر الخليج قد ولدا حقدا شديدا ضدهم على طول الساحل الجنوبى لايران ، حتى أن الايرانيين كانوا لايمدون السفن التجارية البرتغالية بالمؤن فى الموانى الايرانية خاصة أهالى بعض الموانى مثل نخيلو وريك الذين قاسوا الكثير من ظلمهم ، وكانوا يكنون لهم عداوة خاصة واضحة · لهذا فان الشاه عباس رغم محبته لكل الأوربيين، كان يعد البرتغاليين أعداء ايران لهذا السبب · وهذا الامر يمكن ادراكه بوضوح مما كتبه الرحالة بيترو دلافاليه الذى يقول :

« ··· كان الشاه عباس يمنح رعاياه المسيحيين قروضا لكى يعمروا أملاكهم أو لامور أخرى ، وكان يشترط عليهم الدخول فى الاسلام اذا لم يؤدوا قروضهم فى مواعيدها ولكن عندما أرسلت جماعة الارمن بعض النقـــود البرتغالية للشـــاه عباس سدادا لقروضهم أدرك الشـــاه أنهم أخذوا هـــذه الاموال من البرتغاليين فامتنع عن تسلمها وقال اذا كان هؤلاء الارامنة يتركون مذهبهم من أجل المال ويدخلون فى مذهب الاوربيين الذين يختلفون معهم فيه فلماذا لايدخلون الاسلام ؟ ليس من الصواب أن يصبح رعايا رعاياى مرتزقة للدول الاجنبية خاصة البرتغال التى تجاوز مستعمراتها ايران التى تنظر اليها بعين الشك والريبه ، لانهم فى هذه الحال سوف يتعاونون مع أعداء ايران ووجودهم على هذا النحو فى ايران يعد خطرا وضررا » ·

وقد كان البرتغاليون مضطربين من وجود الانجليز فى المحيط الهندى والبحار الشرقية ، ولهذا كانوا يمنعون مرور سفن الدول المختلفة فى مياه الخليج لكى تبقى تجارة ايران والخليج فى أيديهم · ولهذا كان على أية سفينة تريد الدخول للخليج أن تحصل على تصريح من قائد أحدى القلاع البرتغالية فى هذه المنطقة ، وكانت شروط هذه التصاريح صعبة ولا يمكن تحملها · وكان البرتغاليون يسيئون جدا لموظفى شركة الهند الشرقية الانجليزية فى مناطق نفوذهم حتى أنهم كانوا لايتورعون عن قتلهم مثلما حدث سنة ١٠٢٧ هـ ، عندما كان ادوارد كونوك(١) مندوب شركة الهند الشرقيـــة الانجليزية متوجها من اصفهان الى هرمز لاستلام البضـــائع من السفن



میدان نقش جهان اصفهان

بامنظرهٔ عمارت عالی‌قاپو و مسجد شیخ لطف‌الله و سر در بازار قیصریه

از سفرنامهٔ «کرنلیوس دوبروین» هلندی

الانجليزية فسموه مع بعض مرانقية ولهذا غضب موظفو شركة الهنـــد الشرقية من اعتداءاتهم وكانوا ينتهزون الفرصة حتى يكفوا أيديهم عن مياه الهنـد والخليج ٠

كان التنافس التجارى بين الانجليز والبرتغاليين يزداد يوما بعد يوم فى ايران ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وكان الشـاه عباس يتقرب الى منـدوبى شركة الهند الشرقية لانه كان يعد البرتغاليين أعداء له ٠ ولكنه ظل يحتفظ بعلاقات الصداقة مع فيليب الثالث ويمتنع عن اظهار عداوته له طيلة المدة التى كان يرى فيها أن البرتغاليين أقوى قوة فى بحار الشرق، كما كان يطمع فى معونته فى الحرب بين ايران والعثمانيين ٠

فى الثلاث سنوات ١٠٢١ ، ١٠٢٤ هـ (١٦١٢ — ١٦١٥ م) هزمت بعض السفن الانجليزية عددا من السفن البرتغالية على مقربة من مينـاء سورت وقد أدى هذا الحادث الى تقليل أهمية وهيبة أسبانيا والبرتغال فى الشرق وأظهر ضعفهما ، وبعد ٣ سنوات عقد الشـاه عباس صلحا مــع العثمانيين فلم يعـد بحاجة الى مساعدات أسبانيا ، كما اتضح له ضعف قواتها البحرية فى الشرق ، ولهذا أقدم على قطع صداقته بملك أسبانيا واخراج البرتغاليين من سواحل وجزر ايران ، ولهذا لم يرد على رسائل فيليب الثالث ردودا مناسبة وأعـاد سفيره يائسا ٠

بعد عودة دون جارسيا توترت العلاقات بين الشـاه عبـاس وبين الحكومة الاسبانية أوائل شوال ١٠٢٨ هـ وصلت ثلاث رسائل الى جان تاديه القس الكرملى المقيم فى أصفهان اثنتان منهما من أسبانيا وواحـدة من دون جارسيا ٠ وكانت الرسالتا ن الاسبانيان قد وصلتا الى الحـاكم البرتغالى لهرمز وهو دون لويس دى صوصا فارسلهما بدوره مع أحـد الجنود الى اصفهان ظنا منه أن دون جارسيا كان مازال هناك ٠ فلما وصلت هاتان الرسالتان الى السفير أثناء الطريق بين اصفهان وشيراز ارفقهما مع خطاب منه الى القس جان تاديه رجاه فيه أن يعرضها على الشاه ٠ وقد عرض القس هاتين الرسالتين وكانت احداهما من فيليب الثالث والثانية من روبرت شيرلى سفير ايران الى سبانيا ، وكان هذا يوم الثالث من شوال فى ميدان

(١) Edward Conock

« نقش جهان » فى اصفهان . وطلب من الشـــاه أن يأذن له بترجمتهما ، وكان ملك أسبانيا قد ذكر فى رسالته أنه مستعد للدخول فى حرب مع السلطان العثمانى فى البحر الاحمر واغلاق طريق التجارة فى وجه الاتراك وأنه أعـــد خمس سفن أسبانية ضخمة لهذا الغرض وأنه ارسل « رديميتو دى لاكروز* » القس الكرملى الذى كان قد ذهب مع روبرت شيرلى الى أسبانيا مع هذه السفن الى ايران حتى يعقد مع الشاه عباس الاتفاقيات اللازمة فى هذا الشأن .

أما فيما يتعلق بالحرير فقد ذكر أنه سيسمح للتجـــار الايرانيين من مسلمين ومسيحيين الذين يجلبون حريرهم الى جزيرة هرمز ولا يتمكنون من بيعه هناك أن يحملون الى جوا مركز التجارة البرتغالية فى الهند ، بل انهم أن أرادوا فيمكنهم نقله الى ليشبونه عاصمة البرتغال وبدون دفـــــع الرسوم الجمركية أو أية رسوم أخرى خلافا لمـــا كانت عليه العـــادة من قبل ولكنهم سيمنعون اذا أرادوا نقله الى دولة أخرى وسيدفعون فى هرمز وجوا وليشبونه نصف الضرائب عن اقامتهم لمدة أربع سنوات ، أما اذا زادت اقامتهم عن هذه المدة فستحصل منهم الضرائب كاملة . واذا لم يبيعوا حريرهم فى جوا ونقلوه الى البرتغال فانهم سيعفون من دفع الرســــــوم والضرائب ، ولكن عليهم أن يشتروا بثلاثة أرباع الحرير الذى يبيعونه فى أسبانيا بضائع أسبانية ويشتروا بالربع الآخر بضائع من جـــوا أو هرمز ، كما سيسمح لهم فى حالة عدم رغبتهم فى شراء بضائع من الاراضى الاسبانية باستبدال ثمن حريرهم من العملة الاسبانية الى العملة الايرانية أو أية عملة أخرى فى ميناء جوا الهندى أو فى جزيرة هرمز وعليهم أن يدفعوا نفس الرسوم الجمركية التى يدفعها رعايا أسبانيا والبرتغال على البضائع التى يشترونها فى أسبانيا من موانى ليشبونه وجوا وجزيرة هرمز . كما يمكنهم اختيار مندوبين لهم فى لشبونه من الايرانيين أو الارمن البرتغاليين لكى يكونوا حكما لهم فى الخلافات التجارية والمعاملات التى تحدث مع الرعايا الاسبان ولكنه غير مسموح لهم بتعيين مندوبين من جنسيات أخرى . وســـتختار الحكومة الاسبانية ثلاثة من المسئولين الرسميين ليفصلوا فى خلافاتهم مع التجار البرتغاليين والاسبان أو سائر الناس بالعدل والانصاف ولكن اذا لجـــأ التجار الايرانيون الى الدعوة للدين الاسلامى فى الاراضى الاسبانية أو مستعمراتها أو أهانوا المقدسات المسيحية فانهم سيلقون جزاءهم » .

---

* Pere Redeweto de La Cruz

وفى مقابل هذا طلب ملك أسبانيا من الشاه عباس أن يعيد مينـــاء جمبرون مرة اخرى الى ممثلى الشركة البرتغالية فى هرمز وان يهدم القلاع التى انشأها هناك ، ويعيد جزر البحرين الى أمير هرمز ·

أما فى الرسالة الخاصة التى أرسلها السفير دون جارسيا الى القس جان تاديه فقد ذكر أنه اذا لم يرضخ الشاه عباس باعادة ميناء جمبرون والبحرين فلا يجب عليه أن يصر على هذا الطلب ، ولكن عليه (جان تاديه) أن يبذل مساعيه لكى يغلق الشاه موانى ايران فى وجه الدول الاوربية خاصة رعـايا انجلترا القراصنة وأن يعطى حرية التجارة للبرتغاليين كما كان فى المـاضى ·

وكان روبرت شيرلى قد كتب فى رسالته للشاه عباس يقول أن فيليب الثالث ملك أسبانيا مستعد بسفنه الحربية لاغلاق طريق البحر الاحمر فى وجه السفن العثمانية وسيحمل الحرب ضد العثمانيين فى أقرب وقت بمساعدة البـابا وبقية ملوك أوربا · كما أكد على ضرورة امتناع الشاه عن عقد اية اتفاقيات مع مندوبى شركة الهند الشرقية والرعايا الانجليز وذلك حفاظا على الصداقة الاسبانية الايرانية ، كما كان قد وعده عند سفره الى أوربا واحين وصول تأكيدات من الشاه فى هذا الشأن لأن السلطان العثمانى وملك انجلترا قد اتحدا معا ولن يتحاربا أبدا ·

وقد كتب روبرت شيرلى « ··· لمـا كانت صداقة أسبانيا تفوق الحد فيجب أن يتظاهر الشاه بارضاء ملك أسبانيا ، وأنا أرى هذا لصالح الشاه ويجب عليه أن يخرج المجموعة الانجليزية من عاصمته ، واذا كنت من أصل انجليزى الا أننى أقول أن صالح شاه ايران ونافذته تأتى من ملك أسبانيا، ذلك لانه يذهب كل عام لقتال العثمانيين وهذا القتال مفيد جدا للشـــاه ولصالحه فى حين توطدت الصداقة بين الانجليز والسلطان العثمانى ، ولم تنشب الحرب بينهم ابدا ولن يسدوا طريق البحر الاحمر (١) » ·

غضب الشاه عباس حين اطلع على مضمون رسالة فيليب الثالث ، وكما سبق أن قال لسفيره قال للقس جان تاديه أنه لن يرد شبرا واحدا من

---

(١) من مجموعة مراسلات الشاه عباس فى المكتبة الوطنية بنابولى ·

الارض التى استعادها وأنه اذا أراد فانه سيأخذ جزيرة هرمز أيضا فى هجـــوم واحــــد ٠

أما فيما يتعلق بتجارة الحرير فقد ضحك الشـــاه للشروط والضوابط التى ذكرها ملك أسبانيا فى رسالته وقال أن موضوع الحرير موضوع تجارى وسوف نبيعه لمن يدفع ثمنا أكثر »٠

وقد ازداد غضب الشاه عباس لمـــا جاء فى رسالتى فيليب الثالث ودون جارسيا من أن الشاه عباس اذا لم يتفق مع البرتغاليين فى هرمز — فان علاقات الصداقة ستضعف ، ولن تصبح حكومة أسبانيا مسئولة اذا ما أقدم البرتغاليون على عمل يتعارض مع الصداقة بين البلدين وكما كانت عـادة الشاه فقد أخذ يسير بين الحاضرين ثم يجلس فى مكانه عدة مرات ويكرر القسم بالله والدين الاسلامى أن يطهر بالسيف جزيرة هرمز من وجود البرتغاليين ٠ وبلغ من شدة غضبه أن مزق رسالتى ملك أسبانيا وسفيره دون جارسيا ٠ وحين أخبره القس جان تاديه أن لديه علبه مملوءة برسائل ملك أسبانيا لم يعرضها عليه ، قال له ساخرا : « لا أهمية لها ولاتتعب نفسك ومزقها كلهـا لأنه لايوجد فى هذه العلبة غير الكذب (١) » ٠

ولكى يظهر الشـــاه عباس عزمه على الاستيلاء على جزيرة هرمز ، فقد استدعى أحد رجاله الذين ولدوا فى تلك الجزيرة ولديه اطلاع تام على شئونها لكى يحضر فى نفس هذا المجلس وطلب منه بيانات عن تعداد سكان جزيرة هرمز ومذهب أمير الجزيرة ورعاياه وعدد الشيعة والسنة والرعايا البرتغاليين٠

من ذلك الوقت أظهر الشاه عباس حقده الدفين تجاه البرتغاليين فى هرمز ، حتى أنه فى يوم من الايام — وأمام مندوب شركة الهند الشرقية وفى حضور عدة قسس برتغاليين ورئيس القسس الكرمليين — أشار الى أحد

---

(١) ذكر بيترو دلافاليه فى كتاب رحلته أن شروط ملك أسبانيا فيما يتعلق بالحرير تبعث على الضحك حقا لأن شـاه ايران كان يريد فتـح طريق التجارة الايرانية أمام كل دول أوربا وأنه كان يريد بيـع الحرير الايرانى فى ايران نفسها حتى يحصل على أموال تلك الدول فيزيد من ثروة بلاده أما من الناحية السياسية فكان قد تصالح مع السلطان العثمانى ولم يعد هناك ما يؤرقه من ناحية حدوده الغربية واتحاده مع ملك أسبانيا لم يعـــد له أهميـــة ٠

المدافع فى ركن من أركان ميدان نقش جهان فى أصفهان وقال « من المعروف ان الجيش الايرانى استولى على هذا المدفع من البرتغاليين فى ميناء جمبرون ، ولكن هذا ليس صحيحا اذ أن جنودى حصلوا عليه من احـــدى السفن البرتغالية التى تادها القدر الى قرب الساحل ، ثم أخذ يقص كيف تمكن الشجعان من الجنود الايرانيين من الاستيلاء على السفينة اذ علقوا سيوفهم فى رقابهم ونزلوا فى البحر وسبحوا حتى وصلوا للسفينة وأخذوها • وفى نهاية حديثة قال باحتقار « اننى أعرف هؤلاء البرتغاليين جيدا وأعرف كيف أتعامل معهم » • وبهذا الحديث أفهم القسس البرتغاليين الذين كانوا يكتبون لحكام هرمز أنه يذرى الحرب مع البرتغاليين • وعندما تحدث مندوب الشركة الانجليزية عن المدافع المدمرة للقلاع التى كانت قد ابتكرت حديثا آنذاك فى أوربا • قال الشـــاه « اننى عادة لا أصحب معى مدفعية فى حروبى لان غالبية جيشى من الفرسان واذا أرادوا اصطحاب مثل هذه المدافع الثقيلة فانها ستعوق سرعة حركتهم فى حين أن السبب الرئيسى لانتصارى على العثمانيين هو سرعة حركة الجيش القزلباشى ، وفى رأيى أنه من الافضل للاستيلاء على قلاع الاعداء صب هذه المدافع قرب مواقع الحرب • وكان الشـــــاه عباس يرمى من وراء هذا الى اخافة البرتغاليين لانهم كانوا يعتقدون أن الاستيلاء على قلعة هرمز لا يمكن الا باستعمال مدفعية ثقيلة • ولمـــا لم يكن لدى الشـــاه عباس أية سفن حربية كما أن السفن الانجليزية لاتستطيع الاقتراب من الساحل بسبب عدم كفاءة الميناء ، فان نقل المدافع من ايران الى جزيرة هرمز يصبح أمرا صعبا ولكن الشـــاه عباس أخبرهم أنه يمكن نقل معدات صب المدافع الى الجزيرة وصنعها هناك (١)•

---

(١) رحلة بيترو دلافاليه ، ج ٥ ص ١٢ ــ ١٤ •

مقدمات الحرب الايرانية ضد البرتغاليين فى جزيرة هرمز

لقد أرعبت تهديدات الشاه عباس وعدائه الواضح للبرتغاليين فى جزيرة هرمز ، ولما كان قد أشيع أن الشاه سيذهب آنذاك الى شيراز للاعداد لهذه الحرب ، فقد أخذوا يعدون وسائل الدفاع وأخذوا فى اشاعة أخبار كاذبة لتخويف الشاه عباس ، من ذلك أنهم فى غرة محرم ١٠٢٩ هـ أشاعوا فى اصفهان أن الكونت رودوندو(١) نائب الملك فى الهند قد أبحر من جوا على رأس قوة بحرية ضخمة متوجها الى هرمز لكى يحارب السفن الانجليزية فى مياه ايران ، واذا اضطر فانه سيستولى على سواحل ايران أيضا • ولكن هذا الخبر لم يكن له أساس من الصحة ولكن البرتغاليين فى هرمز أشاعوه لتخويف شاه ايران والسفن الانجليزية التى كانت فى ميناء جاسك الايرانى • وبدلا من أن يستفيدوا من هذه الاشاعة فانهم أضيروا لان هذا الخبر المكذوب لم يصل الى السفن الانجليزية التى غادرت ميناء جاسك متوجهة الى الهند قبل وصول هذه الاشاعة لها • وبدلا من أن تخيف الشاه عباس زادته كراهية وحقدا ، فأمر أمام قلى خان أمير أمراء فارس أن يرسل على الفور خمسة عشر ألف جندى الى ساحل الخليج وأن يستولى على كل السفن والقوارب البرتغالية وينتظر أوامره وقد احدث تجمع الجنود الايرانيين على الساحل خوفا واضطرابا فى جزيرة هرمز ، ولكن الايرانيين لم يهجموا على الجزيرة بل هجموا على مكان قرب رأس الخيمة على ساحل عمان كان تحت نفوذ أمير هرمز ويعد من مراكز التجارة البرتغالية ، وذلك بمساعدة جماعة من العرب واخرجوا البرتغاليين من هناك ، وفى نفس الوقت قامت قوة من الجيش الايرانى بمحاصرة القلعة البرتغالية فى جزيرة قشم مما أدى الى تهديد هرمز بالعطش لان ميـاه الشرب فى جزيرة هرمز تنقل اليها من جزيرة قشـم •

وفى هذا الوقت أيضا وصل الى اصفهان خبر بان البرتغاليين فى هرمز أقاموا سورا حول المدينة للمحافظة عليها وأنهم يسدون الحوارى التى تقع فى أطراف المدينة حتى يمكنهم الدفاع عنها اذا هاجمهم جيش ايران ، وكان هذا الخبر يدل على مدى خوف البرتغاليين واضطرابهم مما أدى الى اصرار الشـاه عباس على احتلال تلك الجزيرة •

---

(١) Comte Rodondo

قبل أن يغادر دون جارسيا سفير أسبانيا جزيرة هرمز متوجها الى الهنـد كتب رسالة ثانية للشـاه عباس يشكو من سلوك الانجليز ويعتب لعناية الشاه بهم ، وقد وصلت هذه الرسالة فى ربيع الاول ١٠٢٩ هـ الى الشـاه عن طريق القس جان تاديه · وقد رد الشـاه على هذا صراحـة قائلا للقس « أن الانجليز مؤدبون أحسنت تربيتهم ، لم يسلكوا أبدا ضـد رغبتى وقد قدموا هذه البلاد من قبل ملكهم وهم ضيوفى فكيف يمكن أن أطردهم من بلادى أن ايران مفتوحة لكل شخص ويسافر اليها اناس من كل دولة ، ومع أننى فى حرب مع الاتراك الا أننى لا أغلق طريق ايران فى وجه التجار العثمانيين · والانجليز الذين يأتون الى ايران يمرون فى الاراضى والبحار التى تحت سيطرة رجال ملك أسبانيا · ولو كان رجلا فليمنع مجيئهم · لقد ظل ملك أسبانيا مدة طويلة يعدنى أنه سيدخل الحرب ضـد السلطان العثمانى ولكنه لم يف بهذا الوعد أبدا ولن يفى به ، وعلى هـذا فأى منة له على · واذا اتصالت اليوم مع الحكومة العثمانية فالتقصير هنا يرجع الى ملوك أوربا لانه اذا هب ملوككم فحرب الاتراك فاننى أعـدكم أن أنقض معاهدة الصلح وأقود الجيش مرة أخرى الى الاراضى العثمانية · أما فيما يتعلق بالجزء الثانى من رسالة دون جارسيا التى ذكر فيها أنه ينتظر بكل قلق وصول سفير الشـاه عباس لكى يسافرا معا الى أسبانيا ، فقال الشـاه أن سفيره قد غادر اصفهان من مدة وسيصل الى هرمز عمـا قريب ، ثم أخذ يد القس جان تاديه فى يده بشدة وقال له : « عدنى أن تكتب ماقلته لك الى بابا رومـا وملوك الفرنج (١)» ·

فى يوم ١٣ رجب ١٠٢٩ هـ (١٦ يونيو ١٦٢٠ م) وصلتالى مينـاء هرمز أربع شفن من السفن الاسبانية الخمس التى كان فيليب الثالث قـد ذكرها فى رسالته للشـاه عباس لتغلق طريق التجارة العثمانية فى البحر الاحمر بينما غرقت الخامسة فى الطريق ، وكما أشرنا من قبلكان فيليب الثالث قد أبقى روبرت شيرلى سفير الشـاه عباس فى أسبانيا بينما أعاد القس ريدميتودلاكروز الذى كان قد رافقه الى أسبانيا مع السفن التى وصلت الى هرمز وذلك كى يعقـد مع الشـاه عباس اتفاقا بشأن الحرب ضـد الدولة العثمانية واحتكار تجارة الحرير الايرانى لرعايا البرتغال · وكان لدى قائد

---

(١) مجموعة مراسلات الشاه عباس فى المكتبة الوطنية بنابولى ، ورحلة بيترودلا فاليه ، جـ ٤ ص ٤١٩ ــ ٤٢٠ ·

الاسطول واسمه روى فريبيرا دى اندرادا تعليمات بأن يوصل القس الى ايران ثم ينتظر نتيجة اتصالاته • فاذا وافق الشـاه عباس على عقـد اتفاقيـة سياسـيـة وتجـارية تتفق والمصـالح الاسـبانية ذهب القـائد الاسـبانى لتنفيـذ مهمته فى البحـر الاحمـر ، واذا امتنع الشـاه عباس فعليه أن يستعيد ميناء جمبرون وجزر البحرين وقشم بالقـوة وبمساعدة القوات البحرية البرتغالية فى الهند وهرمز ويقضى على أهـل ميناء نخيلو الذين يكنون الحقد للبرتغاليين والذين اضطروهم لترك الجزيرة العربية والالتجاء الى الاراضى الايرانية • كما كان قد أصدر اليه الاوامر أن يبنى قلعة فى جزيرة قشم يضع فيها مجموعة من الجنود البرتغاليين بحيث لايتمكن الايرانيون من الاستيلاء على الجزيرة بعد هذا بسهولة ويحرموا جزيرة من ميـاه الشرب •

استطاع روى فريرا دى اندرادا أن يستولى على ثلاث سفن انجليزية مسلحة تسليحا كاملا ومحملة بالبضائع فى خليج عدن • ولمـا كانت احدى سفنهقد غرقت فى الطريق فقد وصل الى ميناء هرمز مع سبع سفن مسلحة ولكن القس ردمتودلاكروز كان قد توفى على سواحل غينيا قبل وصؤله الى ايران ، وكان المسئولون فى شركة الهند الشرقية الانجليزية قد اذاعوا خبر موته فى اصفهان قبل وصول السفن الاسبانية الى مينـاء هرمز ولا يعرف كيف علموا بخبر وفاته •

بعد وصول السفن الاسبانية الى هرمز كتب حاكم الجزيرة وبعض موظفيها البرتغاليين رسائل الى القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين فى اصفهان وأرسلوها الى اصفهان مع مبعوث خاص حاملا الرسائل التى كان من المفروض أن يسلمها القس المتوفى الى الشـاه عباس ودون جارسيا سفير أسبانيا ورجوه أن يبدى رأيه فى الاجراء الذى يجب عليهم أن يسلكوه أما حربيا وأما سلما لأن لديه اطلاعا كافيا عن الاوضاع فى ايران • ولمـا كان البرتغاليون آنذاك قد حرضوا بعض الاعراب وأثاروهم ضد ايران كما أخذوا فى القتـل والنهب فى بعض موانى جنوب ايران ، لهذا لم يكن لديهم أمـل فى استقرار السلام ، كما أن روى فريبرا قائد الاسطول الاسبانى الـذى

---

(٢) Rwy Friera d' andrada

كان يعرف بتهوره واقدامه كان يفضل الحرب على السلام ، ولكن حاكم جزيرةهرمز وبعض المسئولين بها كانوا يرون أن الحرب تضر التجارة ولهذا يجب الحفاظ على السلم وتجنب الحرب ٠

قبل وصول خبر مجيء السفن الاسبانية والرسائل المذكورة الى القس جان تاديه كان البلاط الايرانى قد استطاع الوقوف على مقدار القوات الاسبانية فى هرمز وعدد الجنود الذين وصلوا مع السفن عن طريق حاكم جمبرون وأرسل الوزراء الايرانيون هذه الاخبار مباشرة الى الشاه عباس الذى كان فى فرح آباد ٠

وكتب القس جان تاديه فى رده على الرسائل التى وصلته من هرمز أنه يعتقد ـ كما ذكر هذا مرارا ـ أن الشاه عباس لن يرد ماسبق أن استولى عليه من البرتغاليين ، كما أنه لايوافق على احتكار التجارة ، بل أنه طلب منهم أن يعفوه من الاجابة على مثل هذه الموضوعات وأن ينفذوا أوامر ملك أسبانيا على النحو الذى يرونه ضروريا ، ولكن بعد فترة عاد المسئولون البرتغاليون التابعون لاسبانيا فى هرمز بالكتابة اليه ورجوه أن يذهب من أصفهان الى مازندران ويتفاوض مع الشاه عباس فى شأن العلاقات بين الدولتين ، فاضطر القس الى مغادرة اصفهان متوجها الى مازندران ، لملاقاة الشاه ، ولكنه علم ـ أثناء الطريق ـ أن الشاه ذهب الى خراسان ، فعاد الى اصفهان ٠

معركة بين السفن الانجليزية والبرتغالية فى جاسك :

فى الثانى من صفر ١٠٣٠ هـ (٢٧ سبتمبر ١٦٢٠ م) وصلت أربع سفن انجليزية وسفينتان برتغاليتان ـ كانتا قد وقعتا فى أسر الانجليز ـ الى ميناء جاسك ، ولكن روى فريرا قائد الاسطول الاسبانى البرتغالى كان قد علم بابحارها متوجه على رأس أربع سفن مسلحة من هرمز الى جاسك والتقى ب[illegible]اسيه هناك ، فلما وصلت السفن الانجليزية الى ميناء جاسك بدأت فى القتال مع السفن الاسبانية واستمرت المعركة بضعة أيام انتهت بهزيمة السفن الاسبانية ، وقد بدأ الانجليز بانزال ماكانت تحمله أحدى السفن البرتغالية الاسيرة من بضائع ميناء جاسك ثم أضرموا فيها النيران ثم أخذوا فى اطلاق المدافع على السفن البرتغالية حتى بلغ مجموع ما أطلقوه

عليها ثمانية آلاف طلقة ، كما ساعدتهم الرياح التى أبعدت السفن البرتغالية عن الساحل مما سهل عليهم الاقتراب منه فى اليوم الاول للمعركة ويفرغوا مامعهم من بضائع على الشاطىء ومنها خمسين صرة من المـال أبعدوها عن خطر العـدو والقتال ٠ ومع ما أظهره روى فريبرا من شجاعة فى الحرب وتمكنه من تحرير أحدى السفن البرتغالية التى كانت فى أسر الانجليز الا أنه لم يتمكن من كسب المعركة واضطر للهرب الى هرمز بعد أن تحمل خسائر فادحة ٠ وحينما وجدت السفن الانجليزية الميدان خاليا من الاعداء حملت باطمئنان ما كانت قد اشترته من حرير كثير على السفن ثم توجهت الى الهند٠

هجـوم البرتغاليين على جـزيرة قشـــم :

حينما هزم فريبرا من الاسطول الانجليزى صمم على احتلال جزيرة قشـم حتى ينقذ جزيرة هرمز من قلة المـاء ، ولهذا فقد احتل فى رجب ١٠٣٠ هـ – جزءا من هذه الجزيرة القريب من هرمز وأقام فيه قلعة ضعيفة غير محكمة، وعندما علم الشـاه عباس بهذا الامر أرسل أحد القسس من جماعة سان اغوسطين البرتغالية المقيمين فى اصفهان اسمه القس نيكولاس ببريه كسفير الى هرمز (وذلك فى ١١ شعبان ١٠٣٠ هـ) وأبلغ حاكم تلك الجزيرة أنه اذا كان بين البرتغاليين والانجليز حساب فليسووه فى عرض البحر ، لان الاعتداء على حدود ايران يتنافى مع الصداقة بينها وبين الدولتين ٠ واذا كان لديهـم عتاب مع ايران فليس مستحبا أن يدخلوا فى حرب دون مقدمات لانهم لو اشتكوا للشاه عباس فانه – كما يعلمون – لن يتوان عن أرضائهم ومع أنهم قد بدأوا هذه الحرب براحة بال ، لكن عليهم أن يعلموا أنه قادر على استرداد جزيرة هرمز ودفعهم لندم على عملهم ٠

كان القسس البرتغاليون من جماعة سان أغوسطين المقيمين فى اصفهان يرغبون – من أعماق قلوبهم – أن تقوم الحرب بين ايران وأسبانيا ، ولهذا فقد أوصوا القس نيكولاس كى يحرض المسئولين فى هرمز على الحرب غافلين أن هذا الامر سيؤدى الى ضررهم ٠ وفى نفس الوقت قضى البرتغاليين على « طالب بك » أحد رجال ايران وهو فى الطريق بينما كان موفدا كسفير الى ملك الدكن بالهند ، معتقدين أن سفارته ستؤدى الى الاضرار بمصالحهم التجارية والسياسية ، كما أخذ روى مزيبرا فى قتل الايرانيين والاغارة على المدن والقرى الساحلية واحراقها أو نهبها كما أسر التجار الايرانيين الذين

كانوا يقومون بالتجارة فى الخليج واحتفظ بهم كرهائن وكان يعتقد أنه سيرهب الشاه عباس بمثل هذه الاعمال •

اتحاد ايران وانجلترا ضد الاسبان والبرتغاليين فى جزيرة هرمز

فى أواخر سنة ١٠٢٩ هـ اقترح الشـاه عباس على شركة الهنـد الشرقية الانجليزية أن تتحد معه للقضاء على القوات الاسبانية والبرتغالية فى الخليج ، واستمرت مفاوضاته مع مندوبى الشركة مايقرب من عـام •

ومع أن المسئولين فى شركة الهند الشرقية كان قد أصابهم ضرر بالغ مع البرتغاليين فى التجارة الا أنهم كانوا يرون صعوبة قبول اقتراح الشـاه عباس لأن الحكومة الانجليزية فى ذلك الوقت كانت قد أقامت علاقات ودية مع ملك أسبانيا من ناحية ، كما أن هجوم السفن التجارية للشركة على القلاع والاستحكامات العسكرية البرتغالية لم يكن أمرا سهلا من الناحية العسكرية • ولكنهم فى النهاية لم يجدوا مفرا من قبول اقتراح الشاه عباس، لأن أمام قلى خان أمير أمراء فارس كان قد أخطر مندوبى الشركة أنهم ان لم يساعدوا شـاه ايران فى حربه ضد البرتغاليين فانهم سيفقدون كل مالهم من حرير فى ايران ، كما ستنتهى كل الامتيازت التى كانوا قد حصلوا عليها، أما اذا اتحدوا مع ايران فانها ستدفع لهم خسائرهم فى الحرب ، كما ستهىء لهم كل ماسيحتاجونه من أسلحة ومؤونة وغيرها أثناء الحرب •

فى أول محرم ١٠٣١ هـ (١٦ نوفمبر ١٦٢١ م) عقد مديرو شركة الهند الشرقية اجتماعا برياسة توماس روستيل(١) فى سولى(٢) على مقربة من ميناء سورت على ساحل الهند وقرروا أن تتوجه خمس سفن وأربعة زوارق كبيرة بدون شراع الى الخليج للتصدى للسفن البرتغالية واذا التقت بسفن روى فريرا الحربية فعليها أن تدخل الحرب ضـدها •

فى نفس الوقت أرسل الشاه عباس أمرا الى أمام قلى خان أمير أمراء فارس لكى يحارب الترتغاليين ، ولكى يجد الذريعة لهذه الحرب ، فقد أوعز الى قنبر بك خان لار أن يدعى ملكية جزيرة هرمز وأن يعد الجزيرة تابعة لخراج لاركما كانت قبل حملة البوكيرك عليها ورد الحاكم البرتغالى لجزيرة هرمز ردا شديدا على هذا الادعاء وكان هذا ذريعة للحرب •

(١) Thomas Rostell (٢) Soualy

توجه أمام قلى خان بجيش كبير من شيراز الى لار وقام فى البداية بارسال أحد قواده الشجعان واسمه شاهقلى بك وثلاثة آلاف من الجنود الايرانيين والعرب للاستيلاء على جزيرة قشـم ، كما منع وصول وخروج السفن والقوارب من هرمز الى السواحل الايرانية والعكس ، ثم ذهب مع قائده أمام قلى بك من لار الى جمبرون وحين بلغه أن السفن الانجليزية وصلت من الهنـد الى ميناء جاسك أرسل مبعوثا الى ادوارد موفوكس(٣)مندوب انجلترا المقيم فى ايران والذى كان آنذاك موجودا فى ميناب وأخبره أنه سيذهب اليه لعقد اتفاقية اتحـــــاد بينهما •

فى يوم ١١ صفر ١٠٣١ هـ (٢٦ ديسمبر ١٦٢١ م) اصدر ادوارد مونوكس أمرا للسفن الانجليزية بأن تتوجه مزميناءجاسك الىميناء كوهستك الذى يقع جنوب ميناب • وفى اليوم التالى ذهب بنفسه مع جماعة من مندوبى انجلترا الى كوهستك لكى يتحدث مع قواد السفن عن المساعدات التى ستقدمها سفن الشركة للجيش الايرانى •

ولم يكن قواد سفن شركة الهند الشرقية يميلون أساسا للحرب ، ولكن مندوب الشركة المقيم فى ايران أرضاهم وبعد المفاوضات التى أجريت بينهم فى السفينة جوناس تمت الموافقة على مايلى :

١ ــ اذا انتصرت الحكومة الايرانية على البرتغاليين فى هرمز بمساعدة السفن الانجليزية فان غنائم الحرب يجب أن تقسم بالتساوى بين الطرفين •

٢ ــ يجب أن تسلم قلعة هرمز بكل مدافعها وذخائرها الحربية الى الى الانجليز واذا شاءت الحكومة الايرانية فيمكنها اقامة قلعة أخرى على نفقتهـا •

٣ ــ يجب أن تقسم ايرادات (جمرك الجزيرة) بعد هذا بالتساوى بين الحكومة الايرانية وشركة الهند الشرقية الانجليزية • كما تعفى البضائع الانجليزية بعد ذلك من الرسوم الجمركية وكل الرسوم الاخرى •

---

(٣) Edword monox

(٤) اسماء السفن وقوادها هم : السفينة لندن والسفينة بلا شراع Shillingتحت قيادة الكابتن Blithe والسفن Iion, Dolphin, Whale, Jouas والسفن بلا شراع Richard, Robert, Rose تحت قيادة الكابتن Weddel

٤ – بعد الحرب يسلم الاسرى المسيحيون لانجلترا والمسلمون لايران٠
٥ ــ تتحمل الحكومة الايرانية نصف نفقات السفن والمؤن وأجور العاملين عليها وخسائر الحرب ، كما أن عليها أن تعد البارود والمواد الحربية اللازمة للسفن ٠

وقد وصل أمام قلى خان يوم ٢٤ صفر ١٠٣١ هـ (٨ يناير ١٦٢٢ م) الى ميناء ميناب ومعه قائده أمام قلى بك وبدأ على الفور فى المحادثات مع مندوب الشركة لعقد المعاهدة الحربية ٠ وقد ووفق على المادة الاولى دون تغيير ٠ أما فيما يتعلق بالمادة الثانية فاتفق على أن يستولى الطرفان على قلعة جزيرة هرمز الى أن يتلقى أمام قلى خان تعليمات من الشاه عباس ٠ أما المادة الثالثة فقد أتفقا على أن يعفى من الجمارك كل ما يصل باسم الشاه عباس وخان فارس ٠ أما البضائع التى تصل للتجار فعلى الشركة أن تدفع الرسوم الجمركية لايران نظرا لان الشركة تحقق منورائها أرباحا طائلة٠

كما قبل أمام قلى خان المادة الرابعة بشرط أن يتعهد الحليف الانجليزى بتسليم روى فريبرا قائد السفن البرتغالية وسيمون دى ميلو (١) حاكم جزيرة هرمز اذا طلبت الحكومة الايرانية هذا ، كما اتفق الطرفان على ألا يجبرا أحدا من الاسرى أو المسجونين على تغيير دينه أو مذهبه ، وكذلك اتفقا على تحمل نفقات اعداد البارود والمواد الحربية الاخرى بالتساوى بينهما ٠

---

(١) Simon de melo

الاستيلاء على القلعة البرتغالية فى قشم

بعد عقد المعاهدة توجه أمام قلى خان الى ميناء جمبرون وأقلعت السفن الانجليزية فى السادس من ربيع الاول (١٩ يناير) وعليها « قائده» أمام قلى بك متوجهة الى هرمز وصلت فى التاسع من نفس الشهر الى الجزيرة ·

كان الاسطول البرتغالى فى جزيرة هرمز يتكون من خمس سفن حربية وسفينتين صغيرتين وكثير من الزوارق الشراعية الصغيرة والكبيرة · ومن بين هذه السفن سفينتان كبيرتان كل منهما مجهزة بثلاثين مدفعا وثلاثمائة مقاتل، كانت قد وصلت قبل هذا ببعض الوقت من مستعمرة جوا فى الهند بقيادة سيمون دى ميلو وذلك لمساعدة روى فريبرا وكان سيمون دى ميلو هذا فى ذاك الوقت يتولى حكم جزيرة هرمز بأمر من نائب الملك فى الهند بعد وفاة حاكمها فرانشيسكو دى صوصا ·

وكان قادة السفن الانجليزية يعتقدون أن الحرب ستنشب بينهم وبين القوات البحرية فى جزيرة هرمز ولكن على العكس من هذا ، فقد تجنب البرتغالون الحرب ، ولما انقضت عدة أيام على هذا الوضع توجهت السفن الانجليزية الى جزيرة قشم ·

كانت قلعة قشم فى هذه الاثناء قد حوصرت بواسطة شاهقلى بك وجنوده من ناحية البر ولم يكن قد بقى أمام المدافعين عن الجزيرة وهم نحو مائتى برتغالى ومائتين وخمسين عربيا سوى الفرار عن طريق البحر، وكان روى فريبرا — خلافا لرأيه ـ قد أنزل بعض المدافع من سفنه الى القلعة وأخذ فى الدفاع عنها · كما أرسل شخصا الى « أمام قلى خان » وطلب الصلح وأبدى استعداده لتحمل جميع نفقات الحرب التى كانت ايران قد أنفقتها حتى ذلك الوقت · ولكن خان شيراز لم يستطع قبول عرضه لانه لم تكن لديه تعليمات من الشاه عباس ·

وقد وصلت السفن الانجليزية تحت جنح الظلام الى جوار أسوار القلعة على ساحل قشم ، واستطاعت أن تنزل بعض مدفعيتها الى البر دون أن تصاب بأية اضرار من العدو ، ثم أخذت تطلق قنابلها على القلعة

البرتغالية لمدة ثلاثة أيام • وبمجرد أن انهار جزء من سـور القلعة وضاق الحصار على البرتغاليين من البر والبحر أضطر روى فريبرا الى التسليم وأبدى استعداده لترك القلعة للقواد الايرانيين والانجليز بشرط ألا يتعرضوا للبرتغاليين ويسمحوا لهم بالذهاب الى جزيرة هرمز حاملين أسـلحتهم وأموالهم • ويؤمنوا الجنود الايرانيين الذين انضموا للبرتغاليين أثناء الحرب •

وقد قبلت هذه الشروط ولكنها لم تنفذ تماما لان الجنود الايرانيين الذين أسروا بعد الاستيلاء على القلعة أعدموا بتهمة الخيانة والانضمام للاعداء • كما أخذت اموال البرتغاليين وأسلحتهم قبل نقلهم الى جزيرة هرمز •

وقد حمل الانجليز روى فريبرا وبعض قادة جيشه الى سفنهم وتحفظوا عليهم ، وعاملوهم باحترام وحب ، وكان هدفهم أن يرسلوهم الى مينـاء جوا أو أى مكان آخر بعيد عن هرمز • أما العرب الذين كانوا يتعاونون مع البرتغاليين فى جزيرة قشم وكان رئيسهم يلقب بالامير زين الدين محمد ، فقد قام صهره حاكم مغستان بقتلهم بناء على أوامر أمام قلى بك قـائد الجيش الايرانى •

وقد قتل فى حرب قشم ثلاثة من الجنود الانجليز وجرح شخصان ، وقد كان من بين القتلى البحار والمكتشف الانجليزى الشهير ويليام بافين(١) المعروف باكتشافاته القطبيـــة •

بعد الاستيلاء على قلعة قشم تولت جماعة من الجيش الايرانى مع أربعـة من الانجليز الحفاظ على القلعة وتوجهت السفن الانجليزية من قشـم الى ميناء جمبرون لكى تستكمل تجهيزها وتستعد للهجوم على جزيرة هرمز، كما أرسلو روى فريبرا ومرافقيه الى ميناء سورت مركز تجارة شركة الهند الشرقية الانجليزية فى الهنـــد •

---

(١) William Baffin

وصف جزيرة هرمز فى ذلك العصـــــر :

كتب مختلف السياح فى كتبهم الكثير عن وضع جزيرة هرمز الطبيعى وبنـــاء المدينة وقلعتها وطريقة حياة البرتغاليين وبقية سكان تلك الجزيرة ٠ وأغلب ماكتبوه متشابه لايختلف كثيرا ٠ ونكتفى هنا بنقل خلاصة ماكتبه دون جارسيا دى سيلفا فيجورا سفير اسبانيا اذ يقول :

« جزيرة هرمز على شكل مثلث تقريبا ويسميها العرب جرون وأطول ضلوعهـــا ناحيـــة الشرق والشمال الشرقىويمتد من ديـــر نوتردام دى لاسبرانس(١) حتى الرأس المقام عليها قلعة جزيرة هرمز ٠ وهى أقرب نقطة للساحل الايرانى والضلع الآخر وهو أقصر يمتد من الدير أى من الجنوب الشرقى الى الجنوب الغربى عنــد رأس كارو ثم يمتد من هنــــاك ناحية الغرب والشمال الغربى ويمثل قاعدة المثلث وأقصر أضلع الجزيرة هو الممتد من رأس كارو الى القلعة والذى يطل على مغستان أى ساحل ايران فى الجانب الشمالى الغربى للجزيرة ، ويبعد عن الساحل بنحو فرسخ ونصف (٩ كيلو مترات) ومساحة الجزيرة كلها نحو ١٤٤ كيلو مترا مربعا ٠

ويوجد فى جزيرة هرمز جبال بيضاء وأخرى حمراء يستخرجون منها الملح بكثرة وأرض الجزيرة غير صالحة للزراعة ولكن يرى فى بعض أنحائها بضع شجيرات ولا يوجد بها من الاشجار المثمرة الا بعض النخيل ٠

وعلى السفوح الجنوبية والشرقية للجبال بعض مجارى للانهار ولكن ماءها من الملوحة بحيث انها عندما تجف فى الصيف تترك كتلا من الملح ، وبغير هذه الانهار فان المـاء نادر فى الجزيرة ، كما أن الآبار لاتصلح للشرب لملوحتها ، ولكن كلما ابتعد البئر عن الجبال كلما قلت ملوحته ٠

وقد أقيم دير سانت لوتشيا(٢) بين دير نوتردام دى لاسبرانس ومدينـة هرمز ويحيط به بعض المنازل التى يلجأ اليها بعض سكان الجزيرة عندما يشتد الحر بها لان هذه المنازل وكل المنازل القريبة من الســـــاحل مصنوعة من القصب ومغطاة بسعف النخيل ٠

ويوجد منخفض واسع بين المدينة وسلسلة الجبال يبتدىء من ديــر سانت لوتشيا وقد حفروا فى هذا المنخفض آبارا للمياه تتجمع فيها ميـاه

---

(١) Notre-Dame de L' Esperance

(٢) Santa Lucia

الامطـار ، ثم يغلقون فوهاتها بعـد ذلك • أمـا باقى هـذا المنخفض فتشغله المقابر التى عـادة ماتخرج اليها النساء بعـد العصر للزيارة وتوزيع الصدقات والنزهة أيضا •

ويقع خلف الجبال فى الجزء الجنوبى الغربى والجنوبى للجزيرة قسـم يسمى توران باغ (حديقة توران) وهو أصغر من الجزء الآخر للجزيرة ولكنه يمتاز عنه بأنه كانت تشغله عمارات ملوك هرمز القدماء لوجود بئرين للميـاه العذبة به • ولكن هذه العمارات كثيرة ولكن لوجود بعض المنـازل الصغيرة المصنوعة من البوص وسعف النخيل حولها ، فقـد تحـول هـذا الجزء من الجزيرة الى قرية صغيرة •

أما فى ناحية رأس كارو فقد أقيمت بعض المنازل كما أقام قسس فرقة سان أغوسطين بعض المنازل البسيطة وحوضا جميـلا للسباحة وبعض خزانات المـاء لتخزين ميـاه الامطـار •

وتعد قلعة هرمز من آثار البوكيرك ، ومع أنها فى عهده لم تكن تزيد عن برجين فقط ، الا أن الحكام البرتغاليين من بعده أكملوا بناءها وأقاموا له تمثالا هـنـاك •

وتبتدىء مدينة هرمز بالميدان الواقع فى الفضاء المواجه للقلعة • وفى الجزء الاول بعض المنازل العالية التى يمتلكها أثرياء البرتغاليين • ويقع فى هذا الحى كنيسة المسيحيين ومسجد المسلمين ، ومع أن المسجد خرب الا أنه لايخلو من مظاهر العظمة • وفى هذا الجزء من المدينة يوجد برج اسمه القرآن أعلى من كل عمائر المدينة •

ومنذ مدة قام بعض المسئولين البرتغاليين المتغطرسين بهدم جزء من مسجد المسلمين المجاور للقلعة غير مقدرين أن هذا العمل سيترك حقـدا وضغينة فى قلوب الناس بل أنه سوف يثير عداوة الايرانيين المتعصبين بل أن مثل هذه الاعمال كانت سبب عداوة الايرانيين لهم حتى أنهم استولوا على كل ممتلكات البرتغاليين على السواحل الايرانية •

وأغلب منازل هرمز تتكون من ثلاثة أو أربعة أدوار والحوارى ضيقة حتى أن سير شخصين متجاورين يكون بصعوبة • وهم يبنون المنازل عاليـة والحوارى ضيقة حتى يكثر الظل ولاتؤذى الشمس السائرين فى هذه الطرقات •

ولكثير من هذه المنازل ملاقف للهواء ولهذا السبب تبدو المنازل أعلى من المعتاد ، وبعض منازل المدينة مبنية من الحجر والآجر ، وبعضها الآخر مبنى من البوص وسعف النخيل وتوجد بعض الدكاكين المبنية بالآجر وبعضها تحت خيام وينام أغلب الناس فوق السطوح(١) ، ويرتدى بعض السكان جلبابا من القطن وبعضهم يعيشون شبه عرايا ٠

ويتراوح عدد منازل هرمز بين الفين وخمسمائة وثلاثة آلاف منزل ، ولا يحيط بالكثير منها جدائق أو أفنية (٢)٠ ويتحدث الناس سواء منهم المسلم أو غير المسلم باللغة الفارسية ويقيم فى هرمز عدد كبير من الهنــود جاء أغلبهم من ولايات السند وبمباى وعدد سكان المدينة نحو أربعين ألفــا يعمل أغلبهم فى التجارة بين ايران والبلاد العربية كما توجد نحــو مائة أسره يهودية أغلبهم فقراء ٠

ولايتجاوز عدد البرتغاليين المقيمين فى هرمز مائتى أسرة غير الجنود الذين تزوجوا هناك ويتاجرون فى البضائع الهندية التى يبيعونها فى ايران والبصرة ٠ ولمــا كان حاكم هرمز البرتغالى يريد أن يحتكر كل تجـــــــارة هرمز لنفسه لهذا فان التجار البرتغاليين لايحصلون على أرباح كثيرة ٠ ويتمتع الحاكم بنفوذ وصلاحيات غير محدودة ، وكان يعيش كالملك ٠ويوجد كثير من العبيد والجارى فى منــــازل هرمز ٠٠٠ » ٠

احتــــلال جزيرة هرمــز

بواسطة القوات البرية والبحرية لايران وانجلترا

فى يوم ٢٧ ربيع الاول ١٠٣١ هـ (٩ فبراير ١٦٢٢ م) غادرت السفن الانجليزية ميناء جمبرون يرافقها مائتا زورق ايرانى وألقت مراسيها أمام جزيرة هرمز وكان القادة الايرانيون الذين كلفهم أمامقلى خازبالاستيلاء على جزيرة هرمز هم على قلى بك ، وبولاد بك وشاة قلى بك وشارق على محمد

---

(١) ينام أغلب سكان طهران ومدن المناطق الحارة فى ايران وكذلك العراق فوق الاسطح فى الصيف فرارا من الحرارة داخلالمنازل (المترجم)٠

(٢) كانت أغلب المنازل فى ايران والعراق عبارة عن دور أو دورين تحيط بها حــديقة وفناء ولكن بدأت تقام العمارات فيسكنها المضطرون خاصة بعد ادخال اجهزة التكييف التى تغنى عن النوم فى الهواء الطلق ٠

سلطان وعلى بك • وكان القائد الاخير هو حاكم ميناء جمبرون كما عسكر عدد كبير من القواد مع جنودهم فى ميناء جمبرون •

فى يوم ٢٨ ربيع الاول انزلت سفينتان انجليزيتان ثلاثة آلاف جندى ايرانى بقيادة أمام قلى خان على ساحل جزيرة هرمز وأخذوا على الفور فى بناء استحكامات لمواقعهم ، ثم استولوا بسهولة على المدينة وأخذوا فى ضرب قلعة هرمز بالمدفعية •

أخذ البرتغاليون الذين تركوا المدينة واحتموا بالقلعة فى الدفاع عن أنفسهم حتى أنهم خرجوا مرة من القلعة وهجموا على القوات الايرانية فقتلوا منها نحو ثلثمائة شخص ولكن المدفعية الايرانية استطاعت فى هذه الاثناء أن تهدم أحد أبراج القلعة واستمر القتال بين الجانبين •

وفى يوم ١٢ ربيع الثانى (٢٤ فبراير) هجمت السفن البريطانية على سفن روى فريبرا المكونة من ٥ سفن كبيرة وعشرين سفينة شراعية ، ولأن السفن البرتغالية لم تتحرك ، فقد أضرموا النار فى سفينة القيادة المسماة سان بدرو(١) وكانت حمولتها ١٥٩٠ طنا ، وقد اضطر البرتغاليون الى قطع حبال السفينة وتركها للرياح حتى لا تسرى منها النار الى بقية سفنهم • وقد وقعت هذه السفينة فى أيدى مجموعة من الجنود الايرانيين على مقربة من جزيرة لارك واستولوا على حمولتها التى كانت من المدافع والاسلحة والمهمات الحربية •

وفى يوم ٤ جماد (١٧ مارس) تمكن الجنود الايرانيون من هدم جزء كبير من القلعة بالبارود ثم هجموا من هناك على المحاصرين ، ولكن البرتغاليين دافعوا برجولة ودارت معركة شديدة وبعد ٩ ساعات من القتال الدموى أنهزم البرتغاليون ولجأوا الى داخل القلعة ، وفى نفس الوقت أشعل الجنود الايرانيون النار فى مدينة هرمز بناء على أوامر أمام قلى خان •

بعد تقهقر البرتغاليين هجمت مجموعة من الجنود الايرانيين على أبراج القلعة وسورها لاحتلالها ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم بسبب المقاومة الشديدة للبرتغاليين بل أن جماعة منهم قتلت(٢) • وحينما رأى شاه قلى

---

(١) San Pedro

(٢) يقدر السير توماس هيربرت الذى جاء بعد هذه المعركة بأربع سنوات الى ايران عدد القتلى الايرانيين بألف قتيل وقد يكون مبالغا •

بك القائد الايرانى هذا الوضع اندفع مــع نحو مائتين من خيرة جنوده وسط نيران المدافع والبنادق ووصلوا الى أحد الابراج واستولوا عليها ولكنه لم يستطع الاحتفاظ به أكثر من نصف ساعة لقلة من كانوا معه واضطر للتقهقر ·

وفى العاشر من جمادى الاول تمكنت السفن الانجليزية من اغراق سفينتين أخريين من السفن البرتغالية · واضطر البرتغاليون المحاصرون بعد بضعة أيام الى اللجوء الى الصلح بعد أن نفذت مؤونتهم وتفشت بينهم بعض الامراض · وفى الخامس عشر من جمادى الاولى أرسلوا شخصين الى معسكر ايران لطلب الصلح أبديا استعداد البرتغاليين لدفع مائتى ألف تومان نقدا · ومائة وأربعين ألف أكو برتغالى الى الحكومة الايرانية اذا فك الجيش الايرانى الحصار عن القلعة ، وكان غرضهم الخفى من طلب الصلح هو كسب الوقت لعل المساعدات تصلهم من الهند · وقد أدرك أمام قلى خان هدفهم ولم يقبل عرضهم ومقترحاتهم وقال أنهم اذا دفعوا خمسمائة ألف تومان نقدا ومائتى ألف تومان كخراج سنوى فانه سيخرج جنوده من الجزيرة · فلما يئس البرتغاليون من الايرانيين التجأوا الى الانجليز على أساس أنهم مسيحيون وأن الدولتين على دين واحد ، وأن ملكى البلدين تربطهما الصداقة والعلاقات الودية · وأبدوا استعدادهم لتعويض شركة الهنــد الشرقيــة الانجليزية عن كل الخسائر التى كانت قــد لحقت بها قبل هــذا ، ولــكن الانجليز لم يقبلوا الصلح أما خوفا من الايرانيين أو للحقد القديم بين الانجليز والبرتغاليين ·

وفى ١٨ جمادى الاولى استطاع الانجليز نسف جزء كبير آخر من حائط القلعة بالبارود وحدثت فتحة كبيرة تؤدى الى داخلها ، ومع هذا استطاع البرتغاليون الصمود رغــم ماكانوا يعانونه من قلة المــاء والطعام وانتشار الامراض المختلفة بينهم ، ومنعوا دخول الايرانيين الى القلعة ·

وفى الثانى من جمادى الثانية (١٤ ابريل) ظهرت قرب هرمز سفينة عليها جماعة من العرب كانت قادمة لمساعدة البرتغاليين ، وحين أحست بالخطر أخذت فى العــودة ولكن القوات الايرانية تمكنت من أسرها وضربوا أعناق ثمانين عربيا كانوا عليها · ·

بعد ثلاثة أيام أخرى تمكنت القوات الايرانية والانجليزية من تحطيم جزء آخر من سور القلعة ، وفى اليوم التالى تمكنت مجموعة من الجنـــود

الايرانيين من الاستيلاء على أحد الابراج • وفى هذه الاثناء جاء اثنان من المحاصرين فى القلعة وأطلعا القواد الايرانيين على ضعف العدو وصعوبة وضع الجنود البرتغاليين بسبب قلة المــاء والمؤن وكثرة القتلى والمرضى فزاد هذا من جرأة الايرانيين ودفعهم فى السابع من ذلك الشهر الى الاستيلاء على السور الخارجي للقلعة ودفع عدوهم الى داخل مبنى القلعة • وفى النهاية وفى التاسع من الشهر لجأ البرتغاليون الى القادة الانجليز وأبدوا استعدادهم للتسليم بشرط الحفاظ على أرواحهم وأن تحملهم جميعا السفن البريطانية الى مسقط أو الهند ، وقبل القائد الانجليزى هذه الشروط فسلم البرتغاليون القلعة فى اليوم الحادى عشر من جمادى الثانى (٢٣ ابريل) وأنزل العلم البرتغالى الى الابد بعد أن ظل يرفرف على قلعة البوكيرك نحو قرن من الزمن•

كان عدد الجنود الايرانيين فى حرب جزيرة هرمز نحو ٤٠ أو ٥٠ الفا قتل منهم أو جرح أكثر من ألف شخص ، بينما لم يتجاوز عدد القتلى من الانجليز عشرين شخصــــا •

بعد تسليم القلعة حملت السفن الانجليزية البرتغاليين الــذين كانوا فى الجزيرة مع نسائهم وأطفالهم ويبلغ عددهم نحو ثلاثة الاف شخص الى مسقط والموانى الساحلية لعمان ، ولكن ماتت جماعة منهم نتيجة لامراض مختلفة • كما سلم المدافعون المسلمون عن القلعة من عرب وايرانيين الى القائد الايرانى ، وتحفظ الجانبان الايرانى والانجليزى على الغنــائم من أسلحة ومؤن واموال نقدية كانت تبلغ نحو مليونى أكوُ اسبانى ، بينما أخذ الجنود الايرانيون والانجليز فى نهب المدينة(١) ، وقد وقعت أكثر الغنائم فى أيدى الايرانيين ، كما اضطر الجنود الانجليز لبيع نصيبهم بثمن بخس لعدم وجود من يشتريه منهم ، وبلغ ماحصلوا عليه نحو عشرين الف جنيه استرلينى •

استولى أمام قلى خان على قلعــة هرمز خلافا للمعاهدة التى كان قد وقعها مع مندوبى شركة الهند الشرقية وترك لهم نصف مدينة هرمز فقط(٢)•

---

(١) جاء فى تاريخ القسس الكرمليين أن الايرانيين قتلوا نحو ستين أو سبعين برتغاليا وقيدوا من بقى فى سلاسل طافوا بهم أنحاء ايران ، جـ ١ ص ٢١٢ •

(٢) كتب بيترو دلا فاليه أن أمام قلى خان أعد الاتفاقية باللغــة

وكان عدد المدافع فى القلعة ٥٠ مدفعا كبيرا من البرونز على عجل وأربعة مدافع برونزية صغيرة وخمسة عشر قاذفا وبعض المجانيق ونحو مائة وخمسين عربة مدفع صغيرة وكبيرة يقال أنها قسمت بالتساوى بين الجانبين. وقد حمل الايرانيين نصيبهم الى ميناء جمبرون ولار وشيراز بل وحتى الى اصفهان وبغداد ومن بينها خمسين عربة مدفع كبير وصغير كانت موجودة فى ميدان نقش جهان حتى عصر الشاه سليمان وآخر العصر الصفوى(١).

وكان من بين الغنائم الايرانية ناقوسان حصلوا عليهما من كنيسة هرمز ، وكانت نساء البرتغاليين فى هرمز قد تبرعن بهما الى الكنيسة سنة ١٦٠٩ م (١٠١٧ هـ) ، وكان منقوشا عليهما عبارة « أدعوا لنا نحن النساء رحم الله أعقابكم » . وبجوارها نقشوا كلمة المسيح بخط أكبر . كما كان بين الغنائم ساعة كبيرة حملوها الى اصفهان ونصبوها على بـــاب ســوق القيصرية(٢) .

وقد أسر ملك هرمز وكان اسمه محمود شــاه مع وزيره ومستوفيه والرئيس نور الدين قاضى الجزيرة فارسلهم أمام قلى خان الى شـــيراز وعند بداية الحصار عرض ملك هرمز على البرتغالين أن يترك لهم كل أمواله بشرط أن ينقلوه الى مسقط أو مستعمرتهم فى جوا(٣) ، كما عــرض الرئيس نور الدين نفس الشرط مقابل دفع نصف مليون أكورولكن البرتغاليين لم

=

الفارسية فقط ، وطبقــا لمــا كان يريد وعندما استولى على القلعة اعترض مندوبو شركة الهند الشرقية بان هذا خلاف للاتفاقية فذكر الخان أنه طبقا للاتفاقية ليس لهم الا نصف المدينة ولمــا ترجموا الاتفاقية بواسطة مترجم اتضح لهم صحتها ، جـ ٦ ص ٢٠٤ .

(١) انتهت الدولة الصفوية سنة ١١٤٨ هـ (المترجم) .

(٢) سوق القيصرية لازالت مستعملة للان فى العراق وغيرها وتطلق على سوق القماش وربما كانت مشتقة من القصار أى الخياط (المترجم).

(٣) كتب بيترو دلا فاليه « أن ملك هرمز عند بداية الحرب كان يريد أن يرسل كل النساء والصناع والتجار وأمثالهم مع كل الاموال والثروات والسفن الى مسقط أو أى مكان بعيد حتى يكونوا فى أمان من حملة الانجليز والايرانيين ، وبذلك يقلل من عدد سكان القلعة ويقلل من استهلاك المــاء والاغذية كما يؤدى هذا الى يأس الاعداء الذين يقاتلون على أساس الـ فى الغنـــائم والاموال ولكن القادة البرتغاليين لم يوافقوا على رأيه هـــذا . جـ ٦ ص ٣٤ ، ٣٥ .

يقبلوا ، وبعد أن شلم البرتغاليون القلعة لم يحملوهم معهم وتركوُهم للاعداء، وتوفى وزير ملك هرمز قبل أن يصل الى شيراز • أما المستوفى فقد قتله أمام قلى خان فى شيراز ، وكتب المؤرخون والسياح أن هذين الشخصين كانا على اطلاع كامل على الاموال والثروات التى كانت فى هرمز ، ولهذا قتلهما خان فارس حتى لايعرف الشـاه عباس منهما الرقـم الحقيقى للغنـائم التى استولى عليها أمام قلى خان (١) •

أما ملك هرمز فقد احتفظ به أمام قلى خان فى مدينة شيراز وخصص له راتبـا شهريا •

بعد الاستيلاء على جزيرة هرمز ، أراد الشـاه عباس أن يجعل ميناء جمبرون مركزا للتجارة فى الخليج ، ولهذا لم يهتم بتعمير مدينة هرمز فحل الخراب بها بعد أن كانت تعد من أجمل (مدن الشرق) واشتهرت فى العالم بثروتها وتجارتها ، حتى أن الجنود الانجليز والايرانيين نهبوا أبواب ونوافذ العمارات بل حتى أخشاب الاسقف ولم تبن بها سوى قلعة جـديدة بجوار القلعة البرتغالية بناء على أوامر أمام قلى خان ، وعين أحد قـواد القزلباشية اسمه ولدخان سلطان لحكم للجزيرة وتولى المحافظة عليهـا وعلى قلعتها مع مائتين من الجنـود •

أقامت الحكومة الايرانية قلعة جديدة فى ميناء جمبرون غير القلعة التى كانت قد شيدتها بعيدا عن الساحل وجعلت هذا الميناء مرفا للسـفن الانجليزية والهولندية القادمة من الهند الى ايران وغيرت اسم الميناء الى بنـدر عبـاس •

بعد هذا أراد الشاه عباس الاستيلاء على كل السواحل على الجانب الايرانى لبحر عمـان الى ماوراء رأس جاسك ولكن أمير جاسك قاوم ولم يقبل الا أن يصبح تابعا لشـاه ايران ويدفع له الخراج وقد قبل شاه ايران هذا العرض ، وظل أمير جاسك يرسل الخراج كل عام الى خزانة الشـاه عباس حتى آخـر عمـره(٢) •

---

(١) هناك مؤلفات كثيرة عن حصار هرمز واحتلالها للعديد من السياح مثل مونوكس وروى فريبرا وتافرنيه وبيترو دلا فاليه وغيرهم ولكن أكملها من تأليف فاريا سوزا البرتغالى •

(٢) نلاحظ أن هذه المناطق لم تكن خاضعة للحكومة المركزية منذ زمن بعيد بل كانت تتمتع باستقلال ذاتى •

بعد فتح هرمز تفشت الأمراض المختلفة بين الملاحين الانجليز ، وتوفى عــدد منهم ولهذا رأت السفن الانجليزية ضرورة مغادرة سواحل هرمز والعودة الى الهند ، متوجهت الى مينــاء سورت ٠

يتضح من كتب التاريخ أن الانجليز لم يحصلوا على فائدة ذات قيمة من حرب هرمز وكان اشتراكهم فى الحرب الايرانية البرتغالية بسبب المنافسة التجارية فقط ، وحفظ مصالحهم فى تجارة حرير ايران ٠ ولم يكن لهـــــا أى سبب سياسى لانه عندما اتحد المسئولون فى شركة الهند الشرقيـــة الانجليزية مع ايران ضد البرتغاليين فى هرمز كانت الحكومتان الانجليزية والاسبانية فى حالة صداقة وســلام ٠

ولهذا فعندما علم ملك أسبانيا بهذه الحادثة ، احتج بشدة عــلى الحكومة الانجليزية وكادت الحكومة البريطانية أن تدين شركة الهنـــــد الشرقية بسبب هذا الاجراء المنفرد الخاطىء ، وتعد موظفى تلك الشركة ضمن القراصنة ، ولكن الشركة جاهدت من أجل تبرئة مسئوليها وموظفيها ، وذهب مونوكس مندوب الشركة وقائد السفن الانجليزية الى انجلترا وقدم أدلة كثيرة على براءته وعدم تورطه ، وفى النهاية قدمت الشركة عشرة الاف جنيه الى جيمس الاول ملك انجلترا وعشرة آلاف جنيه أخرى الى قـــائد البحرية الانجليزية ، وحصلت على أمر بالعفو العام عن الاشخاص الذين اشتركوا فى تلك المعركه ، وحصلت على تصريح بأن تستولى على كـــل مايحصل عليه مندوبوها من بحـــار المشرق ٠

العلاقات الايرانية البرتغالية
بعد الاستيلاء على هرمز

ذكر ألفونسو دى البوكيرك القائد البحرى البرتغالى المشهور أن المراكز الرئيسية للعلاقات التجارية فى آسيا والهند هى ثلاث نقاط : أحداها مضيق مالاكا ، والثانى مضيق عدن ، والثالث هو مضيق هرمز ، وهو أهمها، وبالاستيلاء على هذه المضايق الثلاثة عدت الحكومة البرتغالية نفسها مالكة للدنيا كلها . وكان يقصد من هذا أنه بامتلاك هذه الاماكن الثلاثة تصير تجارة الهند وايران وكل دول آسيا تحت تصرف البرتغاليين وفى احتكارهم، ولكن البرتغاليين فقدوا هرمز بسبب سوء سلوكهم وخشونتهم وسياستهم الخاطئة فى ادارة مستعمراتهم ، وفى اثرها فقدوا بقية مستعمراتهم ومراكزهم التجارية بالتدريج .

بعد سقوط جزيرة هرمز جعل البرتغاليون ميناء مسقط على ساحل عمان مركزا لتجارتهم ، وشيدوا هناك عدة قلاع ، ولكن مسقط كانت دائما عرضة لهجمات العرب العمانيين ، ولهذا كان البرتغاليون دائما فى عذاب وخطر ، ثم استولوا بعد فترة على ميناء البصرة ، وأقاموا هناك مركزا تجاريا ودارا للعلم وظلوا هناك الى حوالى عام ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) ينافسون انجلترا .

وقد حاول البرتغاليون عدة مرات الهجوم على جزيرة هرمز واعادتها ، من ذلك مرة سنة ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) ، ومرة أخرى عامى ١٠٣٩ و١٠٤٠هـ (١٦٤٠ م) حين أرسلوا سفنهم الى سواحل ايران خاصة الى ميناء جاسك وجزيرة هرمز ، وحاصروها عدة مرات ، ولكن مساعيهم فشلت ولم يتحقق هدفهم .

بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز ، أرد أن يستولى أيضا على ميناء مسقط ويكف أيدى البرتغاليين عنه ، ولهذا أرسل جيشا الى هناك ، واستولى على سحار وخور فكان على الساحل العمانى ، ولكن رؤى فريبرا القائد البرتغالى الذى كان قد هرب من أسر الانجليز وصل مع بضعة

سفن لمساعدة القوات البحرية البرتغالية ، بل وقام البرتغاليون - كما سبق أن ذكرنا - ببعض الهجمات على موانى جاسك وجمبرون وبعض المناطق الساحلية الاخرى • ولخوف الايرانيين من ان يقطع الاعداد صلتهم بالوطن الأم ، فقد انسحبوا من المناطق التى كانوا قد استولوا عليها فى ساحل عمان•

فى عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) - أى بعد ثلاث سنوات من سقوط هرمز، وعندما يئس البرتغاليون من استردادها - لجأوا الى مصادقة الشاه عباس وصرفوا النظر رسميا عما كان فى أيديهم من سواحل الخليج الفارسى ، وبدلا من ذلك أخذوا موافقة من الشــاه باقامة قلعة ومركز تجارى فى ميناء كنج(١)، ومزاولة صيد اللؤلؤ فى البحرين • وطبقا للاتفاقية بين الجانبين تقرر اعفاء البضائع البرتغالية فى هذا الميناء من الرسوم والجمارك ، ابتداء من ذلك التاريخ • كما يحصلون على نصف ايراد ميناء كنج • وكان الشاه عباس يهدف من وراء ترضية البرتغاليين وعقد هذه الاتفاقية معهم الى هــدف سياسى وهو أن يظل صديقا للدولتين الاسبانية والبرتغالية حتى يمكنه عند اللزم الاستعانة بسفنهم ضد التجار الانجليز والهولنديين الذين كان نفوذهم قد ازداد فى الخليج •

وقد ظلت مواد هذه الاتفاقية نافذة طيلة بقاء السيطرة البرتغالية على مسقط ، ولكن الحكومة الايرانية رفضت العمل بمقتضاها منذ ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) ، أثناء حـكم الشاه عباس الثانى حينما خرجت مسقط من تحت سيطرتهم(٢) ، وخاصة فيما يتعلق بالرسوم الجمركية من ميناء كنج والتى لم تدفع للبرتغاليين منها الا مبلغا ضئيلا لايتجاوز عشرة الاف تومان •

---

(١) كنج بضم الكاف : كان ميناء فى الشمال الشرقى لميناء لنجــه وهو اليوم قريه ساحليه صغيرة لايتجاوز عدد سكانها ألفى شخص ، وكانت بقايا جدران القلعة البرتغالية مازالت موجودة الى نحو خمسين سنة مضت•

(٢) فى أواخر ١٠٥٩ هـ استطاع العرب الذين هاجموا مسقط عدة مرات محاصرة تلك المدينة وعجز البرتغاليون عن الدفاع عنها ودخلها العــرب واستولوا على قلعة المدينة ومركز التجارة البرتغالى فيها ، وفى ٢٠ محرم ١٠٦٠ هـ ٢٣ يناير ١٦٥٠ م ، سلم الحاكم البرتغالى لمسقط ، وكان نائب الملك فى الهند قد أرسل عدة سفن لمساعدة البرتغاليين فى مسقط ، ولــكن السفن وصلت متأخرة ، وكان البرتغاليين قد غادروا ساحل عمان وفقدوا قلاعهم فى شبه الجزيرة العربية أيضا • (الخليج الفارسى - سيرأرنولد ويلسون) •

وفى النهاية أرسل نائب الملك فى الهند سفيرا الى الشاه عباس الثانى واتفقت الدولتان على أن تدفع ايران كل عام مبلغ خمسة عشر ألف أكو (حوالى ٣٠ ألف تومان) الى البرتغاليين تحت عنوان دخل جمرك ميناء كنج فى مقابل تغاضى البرتغاليين نهائيا عن كل حقوقهم على سواحل الخليج ولما لم ترد أية أشارة الى صيد اللؤلؤ حول جزر البحرين ، فقد ادعى البرتغاليون أن صيد اللؤلؤ فى تلك النواحى من حقهم وليس لاحد حق صيد اللؤلؤ حول البحرين دون اذن خاص منهم(١) ٠

فى ذلك الوقت كان نفوذ الشركات التجارية الانجليزية والهولندية فى بحار المشرق يزداد وينمو وأخذت قوة البرتغاليين على مدى القرن الحادى عشر تضمحل من السند وملوك مالاكا وسرنديب (سيلان) والسواحل الهندية ورأس الرجاء فى جنوب أفريقيا ٠ وقد استولى الهولنديون على جزء من مستعمراتهم وفقد الجزء الثانى بسبب عداوة العرب والوطنيين والهنود لهم ٠ وفى النهاية فقدوا ميناء كنج ـ المكان الوحيد الذى كان قد تبقى لسفنهم فى الخليج(٢) ٠

---

(١) فى عام ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م) أدرك ملك أسبانيا مدى الخسارة التى لحقته من جراء ضياع البحرين من أيديهم ، ولهذا أمر نائبه فى الهند بالعمل قدر استطاعته لاستعادة هذه الجزيرة حتى لو أمكنه ارضاء حاكم الجزيرة الايرانى بتسليم الجزيرة عن طريق الرشوة ٠

(٢) كتب الرحالة شاردان الذى كان فى ايران سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥م) فى أحداث تلك السنة : « وصل مبعوث خاص من ميناء كنج ، وذكرأن بعض السفن البرتغالية وصلت للميناء وصادرت ثلاث سفن هندية ، وعليها تلتم.. حاج ايرانى ، وكثير من البضائع وكان هدفهم أرغام الحكومة الايرانية على دفع نصف ايرادات جمرك ذلك الميناء عن عامين بناء على اتفاقية سنة ١٠٣٤ هـ ٠ وقد أرسل الشاه ميرزا شفيع الخازندار الى ذلك الميناء وأصدر اليه تعليمات بأن يدفع لهم ١٠ ألف أكو عن العام السابق و ١٥ عن ذلك العام ، فاذا لم يقبلوا قام بتخريب الميناء ونقل أهله الى الموانى الاخرى، وقبل وصول ميرزا شفيع كان حاكم الميناء الايرانى قد تصالح من البرتغاليين ودفع لهم مبلغا من المال فاطلقوا سراح السفن والحجاج ٠ ولما نزلوا جميعا وأفرغت البضائع من السفن قال لهم الحاكم أنه لن يدفع لهم أية أموال أخرى دون اذن من الشاه رغم ما أعلنوه من تهديد ووعيد فلما وصل ميرزا شفيع قال لهم أن من الافضل لهم أن يرسلوا مندوبا عنهم الى الشاه فى اصفهان لحل هذه الخلافات ٠

ومن أهم أسباب زوال قوة البرتغاليين ونفوذهم فى المشرق سوء سلوكهم وقسوة طباعهم مع شعوب الشرق · وثانيا الخلاف بين المسئولين البرتغاليين ونفاقهم بعضهم لبعض · ولما كانت الشئون التجارية الاسبانية والبرتغالية محتكرة للدولة ، فانها لم تستطع الصمود أو منافسة التجارة الحرة للشركات الانجليزية والهولندية ·

وقد استطاع الاسبان والبرتغاليون الحفاظ على نفوذهم واستعمارهم بعض الوقت مستندين الى قوتهم العسكرية ، ولكن لنقص المسئولين الذين يمكنهم ادارة هذه المستعمرات بالحكمة والسياسة فقد ضعف نفوذهم ثم انتهى ·

مراجع هذا الفصل

١ ـ كتاب رحلة ماركو بولو marcoPolo التاجر البندقى .

٢ ـ كتاب رحلة بيترو دلفاليه الايطالى ، ٨ أجزاء طبعة روين Rouen ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م . وهو الذى زار ايران سنة ١٠٢٥ هـ .

٣ ـ مقدمة شارل شيفر Charles Schefer لكتاب «وضع ايران فى عام ١٦٦٠ م» Estat de la Perse en 1660 تأليف رفاييل دى مانس Raphael du mans طبع باريس ١٨٩٠ م .

٤ ـ دون جوان ايران Don Juan of Persia ترجمة المستشرق الانجليزى لوسترانج مع مقدمة سيردينس روس ، سنة ١٩٢٦ م .

٥ ـ الخليج الفارسى ، تأليف سيرارنولد ويلسون ، طبعة اكسفورد ١٩٢٨ م . ترجمة للفارسية محمد سعيدى .

٦ ـ رحلة الاخوان شيرلى The Three Brothers طبع لندن ١٨٢٥م. وترجمتها للفارسية .

٧ ـ الشاه عباس تأليف لوسين لويس بلان Lucien-Louis Bellan باريس ١٩٣٢ م .

٨ ـ رحلة شاردان Charden الفرنسى ، ١٠ مجلدات طبع باريس ١٨١٩ .

٩ رحلة جان بايتيست تفارينه Jean-Bapteste Tavernier فى جزئين ، طبع باريس ١٦٩٢ م (١١٠٣ هـ) .

١٠ ـ رحلة دون جارسيا دى سيلفا فيجورا فى ايران والهند والتى استغرقت من ١٦١٤ ـ ١٦٢٤ م .

١١ ـ عالم آراى عباسى ـ اسكندر بك تركمان طبع طهران سنة ١٣١٤ هـ .

١٢ ـ منتظم ناصرى ـ تأليف محمد حسن خان صنيع الدولة .

١٣ ـ رحلة سيرتوماس هربرت Sir Thormas Herber لندن ١٦٧٧.

١٤ ـ حالة الدولة الفارسية Elat du Rayaunede Perse تاليف Sanson القس المبشر المسيحى الذى جاء ايران سنة ١٦٨٣ م٠

١٥ ـ مراسلات الشاه عباس محفوظة فى المكتبة الوطنية فى نابولى جمعها القس جان تاديه ٠

١٦ ـ رحلة انطونيو دى جوفيا طبع روين سنة ١٩٤٦ م ٠

١٧ ـ تاريخ القسس الكرمليين فى ايران ، لندن ١٩٣٩ ، فى مجلدين ٠

١٨ ـ رحلة ماندلسلو J.A. mandelslo الترجمة الفرنسية طبع باريس ، ١٦٧٩ م ٠

الفصل الثانى

العلاقات الايرانية الانجليزية

العلاقات الايرانيــة الانجليزية فى العصر الصفـــوى

بــداية العـــلاقات الايرانيـــة الانجليزية

بينما سيطرت الحكومتان البرتغالية والاسبانية على أعــالى البحار وقوت مستعمراتها فى افريقيا واســيا سعى التجار الانجليز لفتح طريق الى آسيا عن طريق بحارشمالأوربا ففى ٩٦٠ هـ (١٥٥٣م) سافر أحد الانجليز اسمه ريتشارد شانسلر للسياحة قاصدا أراضى لابونى(١) فى اسكندنافيا فالقت الرياح بسفينته فى ميناء أرخانجاسك وقد أسس شركة فى موســكو باسم شركة مسكو باذن من ايفان المرعب قيصر روسيا • وبعد وفاته سنة ٩٦٤ هـ أصبح انطونى جينكينسن (٢)ـ أحدمعاونيهومرافقيه ـ رئيسا عاما لسفن الشركة وقد كلف مع اثنين من الاعضاء الانجليز بفتح طريق للتجــارة بين روسيا ودول وسط آسيا عن طريق بحر الخزر ويبدو أنه كلف بمهمة سياسية فى بخارى من قبل القيصر الروسى •

بعد عودة جينكينسن من هذه الرحلة صممت شركة مسكو على ارساله الى ايران لعله يستطيع اقامة علاقات اقتصادية مع ولايات شمال ايران الواقعة على ساحل بحر الخزر والتى كانت مركز تجهيز الحرير لينافس فى هذا التجار البرتغاليين الذين يحتكرون تجارة الحرير الايرانى والذى يحملونه الى أوربا عن طريق الخليج وجنوب افريقيا • وقد استطاع جينكينسن أن يحصل من ايفان المرعب قيصر روسيا (٩٤٠ – ٩٩٢هـ / ١٥٣٣ ـ ١٥٨٤ م) ومن اليزابيت ملكة انجلترا (٩٤٠ ـ ١٠١٢ هـ / ١٥٣٣ ـ ١٦٠٣ م) على صفة السفارة وجاء الى ايران سنة ٩٦٩ هـ •

وتحمل جينكينسن معه خطابا من ملكة انجلترا الى الشــاه طهماسب الاول مضمون جزء منه ما يلى :

« من اليزابيث ملكة انجلترا المؤيدة بالتاييد الالهى الى الامير العالى القوى الصوفى الكبير ملك ملوك ايران وشعب مادوبارث وجرجان وكرمان

---

(١) Laponie (٢) Archa ngelsk

(٣) Jenkinson

ومرو والقبائل على شاطىء دجله وكل الشعوب التى تقطن مابين بحر الخزر والخليج الفارسى أبعث وافر السلام وأمانى السعادة والاقبال ٠

من رحمة الله التى لاتحد أن أصبحت الامتان الايرانية والانجليزية صديقتين عن طريق المراسلة رغم المسافة التى تفصل بينهما من بحـــار وأرض وفتحتا أبواب التراسل والمكاتبة فى سبيل حفظ المصالح الانسانية ومنافع الطرفين ، ولهذا فان تابعنا العزيز الوفى أنطونى جينكينسن الذى يحمل هذه الرسالة باذننا ومراحمنا وبعون الله ينوى السفر من بلادنا الى ايران وباقى المناطق التابعة لنفوذكم ٠ ولما كان هدفه اقامة علاقات تجارية مع رعاياكم وبقية التجار الذين يعملون فى بلدكم بالتجارة ٠ لهذا أردت أن أطلب من جلالتكم أن تتفضلوا باصدار تصاريح المرور اللازمة له ولمرافقيه والتسهيلات الاخرى حتى لايواجهوا أية مشاكل فى تنقلاتهم أو اقامتهم فى ايران ٠٠٠ » ٠

كتب فى انجلترا بمدينة لنـدن الكبيرة فى الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٥٢٣ والسنة الثالثة لملكنا ٠

وصل جينكينسن الى ميناء دربند فى القفقاز الذى كان آنذاك ضمن الاراضى الايرانية ومن هناك توجه الى قزوين عاصمة الشـاه طهماسب الذى استقبله واطلع على مضمون خطاب الملكة اليزابيث وعرف الغرض من مهمته٠ ولما لم يكن جينكينسن يعرف العـادات والتقاليد الايرانية فانه لم يستطع أن يحقق هدفه كما كان يريد وعاد الى مسكو دون عقد أى اتفاق بين ايران وروسيا أو انجلترا لتشجيع التجـــارة بينها ٠

كتب أحـد الساسة الانجليز فى هذا الشـــأن يقول « حينمـــا التقى جينكينسن بالشـاه طهماسب الاول فى قزوين قدم اليه رسالة ملكة انجلترا ، فقال له الملك نعم أنتم الكفرة لاحاجة لنا بصداقتكم »(١) ثم أذن له بالعودة ويقول جينكينسن فى كتاب رحلته « بعد أن عدت من ملاقاة الشاه قام أحـد خدم القصر ومعه وعاء مملوء بالتراب وسار خلفى حتى باب مقر الملك وكان ينثر التراب على مواضع أقدامي لتطهيرها » ٠

---

(١) كان الاوربيون قد بدأوا الاتصال بأبيه الشاه اسماعيل لمهاجمة العثمانيين من الجانبين وقد وافقهم على هذا ولكن توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، وكان طهماسب متعصبا ضد المسيحين ٠

قضى جينينسن شتاء ٩٧٠ هـ فى موسكو ثم عاد الى ايران ومعه شخصان آخران هما توماس الكوك(١) وريتشارد شنى(٢) أرسلتهما شركة موسكو • ولم يوفق هذه المرة أيضا لان عبد الله خان والى شروان الذى عامله فى رحلته الاولى بمحبة وصداقة امتنع عن حمايته ومساعدته هو ومرافقيه هذه المرة لان أحد المسلمين كان قد قتل على يد أحد الرعايا الروس ونتيجة لهذا قتل توماس الكوك فى أثناء الطريق •

وبعد ست سنوات أى فى ذى الحجة سنة ٩٧٤ هـ جاءت هيئة أخرى من شركة موسكو برياسة آرثر ادوارد(٣) وريتشارد ويلز(٤) ولكن جماعة من أعضاء هذه الهيئة ماتوا قبل أن يصلوا الى قزوين فاستقبل الشاه طهماسب من تبقى منهم بمحبة وأبدى ميله لارتداء الاقمشة اللندنية وأصدر أمرا أعفى بموجبه موظفى شركة موسكو من الرسوم الجمركية ورسوم الحراسة فى الطرق ومنح التجار حق التجول فى ايران بحرية تامة ومزاولة التجارة •

وجاء فى أحد الوثائق السياسية الانجليزية عن أول لقاء بين أرثر ادواردز والشـــاه طهماسب الاول :

فى أول مرة عندما دخل مع مترجمه لملاقاة الشـــاه الصفوى وقف بعيدا عن العرش الذى جلس عليه الملك وأحاط به جمع من عظماء وجنود ايران • وطلب منه الشـــاه أن يقترب من العرش ثم سأله من أى دولة جـــاء ؟ فأجاب من انجلتر • فاستفسر الشاه من العظماء الذين كانوا يقفون بجواره عن أيهم يعرف شيئا عن هذه الدولة ، وحين رأى ادواردز أن أحدا منهم لايعرف شيئا عن بلده ذكر اسمها باللغة الايطالية وهو « انجلتررا» وآنذاك ذكر أحد الحاضرين اسم مدينة لندن التى تشتهر عن غيرها من مدن انجلترا فى الدول المسيحية ، فقال ادواردز للشاه أن لندن هى عاصمة انجلترا كما كانت تبريز قبل ذلك عاصمة لايران • فأخذ الشاه يسأل عن كثير من الاشياء فى انجلترا وأبدى دهشته من وجود جزيرة بهذا الثراء وتلك القوة فى بلاد الفرنج • وبينما كان ادواردز يتحدث عن قوة انجلترا وثروتها وُرؤاج تجارتهـا وقوانينها وآدابها وعاداتها كان الشاه طهماسب يكرر قول « بارك الله »

---

(١) Thomas Alcock (٢) Richard Chenie

(٣) Arthur Edwards (٤) Richard Wills

متعجبا • ثم سأل الشاه السفير عن السبب وراء مجيئه الى ايران • وعندما رد عليه بأنه جاء لعقد صفقات تجارية • استفسر منه عن أنواع البضائع التى يطلبونها • فقال السفير للشـاه : « أن فى بلدكم كثيرا من التجـار البندقيين يذهبون كل عام من ايران الى لندن والبندقية (فينيسيا) والمـدن العثمانية وحلب وطرابلس والشام ويعودون الى ايران مع أحمـال من البضائع » فسأله الشاه ماهذه البضائع ؟ فأجابه ادواردز : « انها من الجوخ اللطيف الرقيق والاقمشة الصوفية وما شابه ذلك • فسأله الشاه وأنت عن أى طريق تريد أن تحضر هذه البضائع الى ايران ؟ فرد عليه : « عن طريق موسكو (روسيا) لأنه أقل خطورة وأقصر من الطريق الذى يسلكه تجـار البندقية من انجلترا ثم الدولة العثمانية فايران •

وقد طلب ادواردز من الشاه فى هذا اللقـاء أن يعطى للتجار الانجليز اذنا بالتجارة فى ايران حتى يمكنهم التنقل فى كل انحاء البلاد بحرية تامة وفى أمن على أروجهم وأموالهم وقال أن التجـار الانجليز سوف يقدمون للايرانيين بضائع أحسن وأرخص •

وقد استمر الحديث بين الشاه وادواردز نحو ساعتين حصل فى نهايتها سفير انجلترا على ما كان يريد من امتيازات تجارية من الشاه طهماسب ، وكتبت كل هذه الشروط على ورق أحمر مذهب وختمها كاتب الشاه الخاص بختمه وتوقيعه وقـال هـذا الكاتب الخاص الذى كان يدعى قـوج خليفه للسفيران أن كتابة وختم مثل هذه الوثيقة من قبل الشاه تعد تفضلا ومنة عظيمة منه • أما بقية الشروط التجارية فقد اتفق على أن تكتب فى وثيقة أخرى تسلم الى لورنس شابمان أحد أعضاء البعثة •

وكانت مواد الوثيقة الثانية التى تتعلق بالتجار الانجليز وسلمت الى لورنس شابيمان على النحو التالى :

١ ــ للتجار الانجليز الحرية فى السفر حسب رغبتهم سواء الى جيلان أو أى مكان آخر من أمـلاك شـاه ايران •

٢ ــ اذا حدث وتعرضت احدى سفنهم للغرق فى بحر الخزر فان رعايا ايران سوف يهبون لمساعدة الغرقى وينقذون أموالهم وأرواحهم اذا طلبوا المسـاعدة •

٣ ـ اذا توفى أحد التجار فى مدينة ايرانية فان حكام ايران مكلفون بالمحافظة على أمواله • وعليهم تسليمها للتاجر الآخر الذى يطالب بها •

٤ ـ للتجار الانجليز حرية اختيار الجمالين الذين يعملون معهم ، وليس لأى من القزلباشية حق مضايقتهم ، ويصبح الجمالون مسئولين عن أموال التجارة والجمال والخيل التى تسلم لهم •

٥ ـ ليس للحمالين حق مطالبتهم الا بما هو متعارف عليه من أجر •

٦ ـ اذا شاء أحد التجار أثناء سفره الاقامة فى أحد الاماكن فيمكنه الاحتفاظ ببضائعه ويسرح العاملين معه •

٧ ـ يمكن للتجار تهيئة المنازل والاطعمة اللازمة ولمرافقيهم فى أية مدينة أو قرية •

٨ ـ يحق للتجار الانجليز شراء أو بناء المنازل اللازمة لعملهم ، ولايحق لاى شخص منعهم أو الاضرار بهم •

وبهذه الامتيازات التى منحها الشاه طهماسب الاول كان يرجى أن تزدهر التجارة عن طريق روسيا الى ايران وتؤدى الى كساد سوق البرتغاليين مع الهند الشرقية وايران • لان التجارالانجليز كان يمكنهم المجىء الى ايران مرة واحدة على الاقل كل سنة عن طريق روسيا • أما ذهاب البرتغاليين عن طريق البحر من هرمز الى الهند وجنوب افريقيا الى أوربا ثم العودة للهند وايران فلم يكن متاحا قبل عامين •

العلاقات الايرانية الانجليزية

فى عصر الشاه عباس الأول

بعد وفاة الشـاه طهماسب قطعت العـلاقات بين ايران والـدول الاوروبية نتيجة للانقلابات والخـلافات على خليفته ، وكذلك بسبب المشكلات الداخلية والخارجية المختلفة التى حدثت حتى تولية الشـاه عباس ، بل وحتى السنوات الاولى من حكمه • واذا كان قد جاء الى ايران سفراء أو مبعوثون فانهم لم يحصلوا على نتيجة من وراء مهامهم فى ايران ، كما حدث فى عصر الشاه محمد خدابنده والد الشـاه عباس ، اذ جاء آرثر ادواردز مع بعثة من شركة موسكو وقدم اليه رسالة من الملكة اليزابيث (٩٨٧ هـ ١٥٧٩ م) ولكنه لم يحصل على نتيجة تذكر من بعثته هذه •

بعد ان ثبت الشـاه عباس أساس حكمه وانتصر على اعدائه فى الداخـل والخارج وذاعت شهرته فى كل دول أوربا ازدهرت العلاقات بين ايران وأوربا مرة أخرى وجاء كثير من السياح والسفراء من كل دولة لعقـد معاهدات سياسية أو اقامة علاقات تجارية مع ايران •

وصول الاخوين شيرلى الى ايـران

فى السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر الميـلادى أى فى السنوات ١٠٠٧ - ١٠٠٨ هـ (١٥٩٨ - ١٥٩٩ م) وصلت الى ايران جماعة من خمسة وعشرين انجليزيا برئاسة شخص اسمه السير أنطونى شيرلى وكان برفقته أخوه الاصغر روبرت شيرلى •

وقد ولد السير أنطونى شيرلى فى ويستون بانجلتر سنة ١٥٦٨ م (٩٧٥ هـ) ، وهو ينحدر من أسرة معروفة ومشهورة • وبعد أن أنهى دراسته فى جامعة أكسفورد انخرط فى الجيش واشترك فى الحرب التى كانت قد نشبت بين أسبانيا وهولنـدا فى أواخر القرن السادس عشر واشتهر بشجاعته ، ثم التحق بخدمة كونت اسكس أحد عظماء انجلترا وقاد له حملة عسكرية على الجزر التابعة لاسبانيا فى أمريكا ، وبعد سنتين كلفه الكونت بالذهاب

الى ايطاليا لمساعدة سزار دى استه(١) دوق فيرارا الذى كان على خلاف مع البابا كليمنت الثامن بسبب الدوقية فى فيرارا ولكن البابا كان قد استولى على فيرارا قبل وصول أنطونى شيرلى فأصبحت مهمته بلا فائدة ، فطلب منه كونت اسكس الذهاب الى ايران ليحرض الشاه عباس على محاربة الدولة العثمانية والاتحاد مع الدول المسيحية الاوربية والحصول منه على امتيازات خاصـــــة للتجـار الانجليز ٠

وقد كتب أحد مرافقى شيرلى واسمه جورج مانواريـنج(٢) عن الهدف من وراء مهمة شيرلى فقال :

« عندما كنا فى مدينة البندقية (فينيسيا) تعرفنا على تاجر ايرانى كان قد أرسله الشاه عباس الى هناك لشراء الجوخ الانجليزى والاقمشـة الصوفية والكتانية وما الى ذلك ٠ وقد أشاد هذا التاجر بهيبة ملكة وجلاله مما جعل السير أنطونى يتعلق بايران ، ولكنه لم يفكر فى السفر ، ولكن سائحا اسمه أنجلو كان قد وصل حديثا من ايران جاء لزيارة السير أنطونى وتحدث عن عظمة شـاه ايران وشجاعته وهيبته ومحبته للاوربيين مما جعل السير أنطونى يصمم على السفر الى ايــران ٠

تحرك السير أنطونى يوم ١٧ شوال ١٠٠٦ هـ (٢٤ مايو ١٥٩٨ م) مع مرافقية من ميناء فينيسيا صوب الاراضى العثمانية وكان من بين مرافقية أخوه روبرت شيرلى وباول(٣) الذى حصل فيما بعد على لقب فـارس من جيمس الاول ملك انجلترا وشخصان آخران أحدهما جان هوارد وجـــان بارت(٤) وأحد رجال المدفعية الذى كان يمتاز بمهارة فى صب المدافع وصنعها ٠

وقد غادر أنطونى شيرلى ومرافقوه السفينة فى ميناء الاسكندرونه أحد الموانى العثمانية ، وذهبوا الى حلب بعد أن تحملوا كثيرا من المشاق والمتاعب وبعد البقاء فيها بعض الوقت توجه الى بغداد عن طريق صحراء الشـام ، ومن هناك الى ايران ولما كان الشاه عباس فى قزوين فى ذلك الوقت فقد توجه الى هناك ٠ وكتب جورج مانواريـنج يصف وصولهم الى قزوين وترتيبات استقبال الشـــاه للبعثة الانجليزية فقـــال :

---

(١) Sesard' este

(٢) Jeorge Manworing

(٣) Bawel

(٤) Jahn Howard & Jahn Parot

« على مقربة من قزوين ارسل السير أنطونى أثنين من مرافقيه همـا انجلو وجـان هوارد وقبل وصوله بأربعة أيام الى هناك حتى يعدا له منزلا ويعودا لاستقباله وارشاده الى المدينة وأوصاهما بتكتم وصوله قدر الامكان لأنه لم يكن يحمل ما يناسب من الهدايا والتشريفات، اذ كان كل شيء قد فقدمنهم بسبب طول الرحلة والسفر ، ولكنهما لم يتمكنا من ذلك لأن حاكم قزوين وناظر الشـاه أرسلا اليهما شخصا يسألا نهما عن اسم وصفات السير أنطونى شيرلى وسبب مجيئه ، فاضطر هذان المرافقان الى افشاء السر ولكنهما أخفيا يوم وصول الوفد مما أغضب الحاكم والناظر بل وأهل المدينة لأنهم جميعا كانوا يرغبون فى استقبالنا على الطريقة المتبعة فى ايران آنذاك ٠

دخلنا قزوين أثناء الليل ، وفى اليوم التالى جاء ناظر الشـاه مـع جمع من عظماء المدينة الى منزلنا وأبدى كثيرا من الحب والعطف نحو السير أنطونى، ثم وضع أمامه عشرين جنيها ذهبا وقال له« أرجوأن تتقبل هـذه الهدية المتواضعة من ملكى وولى نعمتى الذى يحارب التاتار الآن لأنك قادم من سفر طويل وأنت غريب فى بلدنا ومن الممكن ألا تستطيع القيام بحاجتك على الوجه الاكمل ، ولما كنت أعجز عن القيام بواجب الضيافة كما يجب فاننى أرجو المعذرة ٠٠٠ » ثم أضاف أنه سيدفع مثل هذا المبلغ كل يوم لنفقات السير أنطونى اليومية وقال : « أننى أقدم هذا المبلغ من مالى ولاشك أن الشاه عندما يعود من سفره سوف يقدم ثلاثة أضعاف هذا المبلغ » ولـكن السير أنطونى شيرلى امتنع عن قبول هذا المبلغ وأبعده بقدمه وقال« أيها الاخ الايرانى الكريم ، اعلم أننى لم آت الى ملككم للسؤال ، ولكن شجاعته وشهرته هى التى أحضرتنى الى هنـا وأريد أن احظى برؤيته وتقبيل يده واقدم روحى فداء له فى حروبه ٠٠٠ » ٠

أثر كلام سير أنطونى فى الناظر تأثيرا شديدا حتى أنه ارتد بضـع خطوات للخلف وأخذ يحنى رأسه بضع مرات للتعظيم وقال : « أرجو أن تصفح عنى فالآن أدركت أنك أمير عظيم ٠٠٠ » وبعد المجاملات المعتـادة استأذن من السير أنطونى وخرج مع رفاقه ٠

بعد هذا جاء حاكم قزوين أيضا لزيارة السير أنطونى وقال أنه لن يتوانى عن تقديم أية خدمة وعاد بعد المجاملات المعتادة أيضا ٠ وفى هـذه الليلة أرسلا الى سير أنطونى من الهدايا ما أدى الى التعجب ٠ ثم كانا يتنافسان

فى الاحتفاء بنا ، وبعد خمسة أو ستة أيام وكنا قد أصبحنا ذوى ملابس فاخرة وخيول ممتازه استضاف الناظر السير أنطونى ورفاقه فى القصر الملكى وقبل السير أنطونى دعوته ، وحين توجهنا الى هناك جاء الناظر مع أربعين شخصا من اعيان المدينة لاستقبالنا فى منتصف الطريق على خيولهم واستقبلونا استقبالا ملكيا • وحين وصلنا الى باب الديوان الملكى المزين بالجواهر الثمينة قال الناظر للسير أنطونى : « جرت العادة على أن يقبل عتبة هذا الباب كل شخص يدخل منه وهذه العادة خاصة بالنسبة للاجانب الذين يأتون الى ايران ••• فاجابه السير أنطونى : أننى أحترم هذه العادة احتراما للشـــاه وحتى رأسه هو وأخوه روبرت، شيرلى احتراما ولكن الجميع قبلوا عتبة باب الديوان •

كان القصر من الداخل فى غاية الجمال والجلال ، وقد علقت عـــلى الجدران أقمشة محلاة بالذهب وفرشت الارض ببسط جميلة ، ولن أصف ألوان الطعام واكتفى بالقول أن أغلبها كانت من الأرز وقد صنعوا كلا منها بلون ، كانت أحدى فرق الموسيقى الملكية تعزف أثناء هذه الضيافة ، كما كان لنا فى منزلنا فرقة خاصة للعزف كما كانت هناك عشر راقصات جميلات بملابسهن الغالية يرقصن على الطريقة الايرانية طوال الضيافة • ولـــا آن لنـــا أن ننصرف ودعنا جمع من أعيان المدينة ••• » •

بعد بضعة أيام وصل رسول من بلاد التركستان يحمل أمرا من الشاه عباس كتبه بخط يده وقد قرأه أحد كبار رجال قزوين على أهل المدينة وقد حضرنا جميعا للاستماع اليه • وكان مضمونه : « يجب أن يستقبل ضيوفنا الفرنج استقبالا كاملا وأن يعد لهم مايحتاجون اليه من خيل أو خدم وغيرها • وكل من يخالف هذا الامر فانه سيعرض روحه للخطر • واذا أساء أحد الى أقل رفاقهم فان رأسه سوف تقطع لامحالة • وبمجرد أن قرىء أمر الشـــاه قـــام الحاضرون جميعا بتقبيله » •

بعد هذا كتب وصفا لمراسم وصول الشاه عباس لقزوين واستعدادت استقباله للسير أنطونى شيرلى خلاصته ما يلى :

« قبل وصول الشاه عباس الى قزوين ببضعة أيام أرسل رســـولا للناظر امره كى يعطينا خيولا ممتازة لكى نخرج مع الحاكم لنستقبله عى بعد أربعة فراسخ من المدينة وكانت ملابسنا على النحو التالى :

كان السير أنطونى يرتدى ملابس غالية موشاة بالذهب ويعلق وسطه سيفا قيمة غمده نحو ألف جنيه وكان مزينا بالماس واللؤلؤ ، وكان يضع على رأسه عمامة قيمتها نحو عشرين جنيها ، ويلبس حذاء مزينا بالياقوت واللؤلؤ ، وبعده كان أخوه روبرت شيرلى يلبس ملابس موشاة وعلى رأسه عمامه فاخرة أما مترجم سير أنطونى وهو « انجلو »فكان يلبس ملابسه حريرية بيضاء وكان أربعة منا يلبسون جببا حريرية وأربعة يلبسون جببا من القطيفة الحمراء مع قمصان حريرية وأربعة آخرون جببا صوفية وقمصانا من التافتاه والاربعة الباقون يلبسون جببا صفراء مع قمصان من الحـرير الايرانى ٠

على هذا النحو أسرعنا لمقابلة شـاه ايران وكان السير أنطونى وأخوه يسيران جنبا الى جنب ، وكان الناظر يسير على يمينهم والحاكم على يسارهم وكان الباقون يركبون خلفهم اثنين اثنين ، وكنت أنا أسير أمام السير أنطونى وأحمل فى يدى عصـا من الفضـة لأن السير أنطونى كان قد جعلنى رئيس فراشيه لأن الرجال العظام فى ايران كانوا يسيرون ومعهم رؤساء فراشـيهم ٠

وما كدنا نبتعد عن المدينة نحو نصف فرسخ حتى ظهر لنـا موكب الشـاه وكان فى المقدمة نحو عشرة آلاف جندى مسلح ومن خلفهم جماعة من حملة الابواق الموسيقية ينفخون فى أبواقهم فيبعثون أصواتا غريبة ، وبعدهم يأتى الطبالون وكانت طبولهم من الصفر(١) ومحمولة على الجمال٠ ثم ستة من حملة الاعلام واثنى عشر غلاما فى يد كل منهم حربة وبعد مسافة طويلة ظهر الشـاه الذى كان يسير بمفرده وفى يده حربة وفى كتفه قوس وفى وسطه سيف وخنجر ، وكان قصير القامة ولكنه قوى وقمحى اللون ٠ وبعد الشـاه كان يركب قواد الجيش وبعدهم أصحاب المناصب العسكرية واثنى عشر فارسـا ٠

وعندما اقترب منا الشاه نزل السير أنطونى وشقيقه عن فرسيهما وتقدما لتقبيل قدمه فألقى الشاه نظرة مشوبة بالغرور اليهما وتطلع الينا ودون

(١) الصفر هو النحاس وخاصة الاصفر منه وصانعه هو الصفار ، ومازالت هذه الطبول موجودة للان وتشاهد فى بعض القرى عند الاحتفال بقدوم شهر رمضان فى مصر (المترجم) ٠

أن يتكلم مع السير أنطونى أمر قواده أن يجعلوا له مكانا فى المعسكر الملكى. ثم حث فرسه وابتعد عنا ثم سـار السير أنطونى وأخوه مع القائد والناظر. وبعد ساعة عـاد الشـاه راكضا كانت تركض خلفه ست عشرة سـيدة على خيل ممتازة وعندما وصل الى السير أنطونى أطلقت النسوة أصواتا خاصة جعلتنا فى حيرة (يبدو أنها زغاريد) ثم توقف الجميع وتقدم الشاه ثم قبل السير أنطونى وشقيقه وأخذ يد السير أنطونى ثم أقسم أن يجعل السير انطونى كأخيه دائما وأنه منذ الآن سيخاطبه بلقب الاخ ، وتوجه الشاه صوب المدينة وقد جعل السير أنطونى عن يمينه .

تزاحم جمع غفير من الاهالى خـارج قزوين ومر الشـاه من بينهم ، وكانوا أثناء مروره ينحنون ويقبلون الأرض ، وقبل دخولنا المدينة كان الشاه قد أعلن فيها أن أى جندى يدخلها ستقطع رقبته فيما عدا من كان أصله من أهلها ، وكان يهدف من وراء هذا ألا يتسبب الجنـد فى مضايقة الناس أو ايذائهم ، ثم سمح للجنود جميعا بالعودة لاوطانهم .

حين وصلنا للمدينة عبرنا كثيرا من الازقة ودخلنا أحدى العمارات الخاصة بالشـاه وقد اصطحب الشـاه السير أنطونى الى احدى القاعات الفخمة المزينة حيث عرض السير أنطونى على الشـاه أسباب سفره الى ايران ، ومصاعب الطريق وسوء معاملة المسئولين العثمانيين له ولرفاقه . وكان الشاه ينصت باهتمام الى حديثه حتى انتهى منه فقال له : « ياأخى أننى آسف كثيرا للاحداث السيئة التى حدثت لكم فى الطريق ولـكننى سـعيد لأنكم وصلتم بالسلامة الى بلاطى ، وأقدامكم فوق أعيننا(١) ..».

ثم أقيم مجلس طرب استمر ساعتين فى سرور وسعادة وفى نهاية المجلس طلب الشـاه من السير أنطونى أن يشاهده من النافذة وهو يلعب بالصولجان، وكان أمام القصر ميدان واسع جميل كانوا قد أعدوه لسباق الخيل فذهب الشاه الى هناك وركب فرسه . وعندما ركب نفخت الابواق ودقت الطبول أيضا . وقد لعب الشاه مع أحد عشر شخصا وكان هذا اللعب بالصولجان يشبه لعبنا فى انجلترا الى حـد كبير .

وقد سـعد الشـاه عباس الذى كان يريد دائما أن يتحد ملوك أوربا ضـد السلطان العثمانى بقدوم الاخوين شيرلى واستقبلهم بحفاوة بالغـة ،

---

(١) تعبير ايرانى للاعراب عن الترحيب الشديد بالضيف أو العزيز .

وبعد أن استضافهما مدة فى قزوين اصطحبهم جميعا معه عن طريق مدينة كاشان الى اصفهان التى أختيرت فى ذلك العام عاصمة لايران ، وكان يعامل الاخين بمحبة كأنهما أخويه ، وقد كتب أحد مرافقى شيرلى شرحا مفصلا عن محبة حفاوة الشاه عباس للاخين شيرلى خلاصة جزء منه هى :

« ليس فى ايران كراسى ، وكنا نجلس فى ايران على البسط ، ولما كنت لا استطيع الجلوس على ركبتى فقد جلست القرفصاء ، فذكر السفير العثمانى الذى كان حاضرا المجلس أن الانجليز عادة يجلسون على كراسى وأن جلوسهم على الارض صعب عليهم ، فنهض الشاه عباس على الفـــور وانتقل الى قاعة أخرى وأمر أحد الغلماء باحضار منضدة من التى يضعون عليها زجاجات الشراب ، ثم أمر فوضعوا فوقها سجادة ثم أمرنى بالجلوس عليها وبعد ذلك طلب الشراب وشرب نخب سلامتى وقال أنه يفضل نعل حذاء أى مسيحى على أكبر رجل عثمانى(١) » • وفى مساء ذلك اليوم دعانا بعد تناول العشاء للتجول معه فى سوق قزوين •

فى وسط مدينة قزوين مكان يسمى البازار وهو ثلاثة أمثال سوق لندن، وكانت كل الدكاكين قد زينت وأضيئت بناء على تعليمات من الملك ، وكانوا قد أقاموا فى وسط السوق منصة كبيرة تقوم على ستة أعمدة وفرشوها بالبسط الثمينة المقصبة ووضعوا هناك كرسيا فضيا مزينا بالفيـــروز والياقوت والماس الكبير لكى يجلس عليه الشاه فأشار الملك الى أنطـونى شيرلى كى يجلس على هذا الكرسى فركع أنطونى شيرلى واعتذر قائلا أن الاتكاء على أماكن العظام من سوء الادب ولكن الشاه لم يقتنع وأقســم برأس « على المرتضى(٢) » كى يطيعه وقال أن أى ايرانى يبدى الكراهيـة للجلوس مكان الشاه تقطع رقبته مهما كان عزيزا ، ثم أخذ أنطونى شيرلى وأجلسه على الكرسى ثم أمر باحضار كرسى آخر لروبرت شيرلى • أما نحن جميعا فقد جلسنا متربعين على البسط »•

بعد هذا أحضروا موائد صغيرة للطعام بينما كانت تقرع الطبـول

---

(١) هكذا بلغ عداء الشـاه عباس للاتراك العثمانيين لأنهم سنة •

(٢) هو الرضا بن موسى الكاظم المدفون مع الخليفة هارون الرشيد فى قصر حميد بن قحطبه الطائى فى ضواحى مدينة طوس القديمة والذى تحول قبره الى مزار من أكبر مزارات الشيعه صارت مدينة مشهد اليوم (المترجـــم)

والدفوف ، وبعد ذلك دخلت المطربات الى المجلس وكن عشرين أمراة يلبسن ملابس غالية جميلة ، وكن يغنين وهن يرقصن على أنغام الموسيقى ، وبعد أن انتهى هذا الحفل أخذ الشاه يد السير أنطونى شيرلى وأخذا يسيران يدا فى يد فى السوق والازقة بينما الراقصات تتقدمنهما وهن يرقصن ويغنين ...

استقبلنا الشاه عباس على هذا النحو لمدة ثمانية أيام ، وبعد ذلك أرسل الى السير أنطونى شيرلى ثلاث سرادقات كبيرة مع كل لوازمها واثنى عشر جملا وستة عشر بغلا كلها بسروج قيمة وأربع قطع من السجاد الحريرى الفاخر والمحلى بالذهب وست قطع من السجاد الصوف الخالص مع بسط جميلة أخرى وأربعة عشر حصانا كريما بالسروج والآلة الثمينة من بينها سرجين وآلتين للحصانين الخاصين بالاخوين شيرلى مطعمين بالذهب ومزينين بالفيروز والياقوت وسرجين آخرين محليين بالذهب والباقى من القطيفة الفاخرة البيضاء مع كمية كبيرة من النقود الفضية وطلب من السير أنطونى شيرلى أن يقبل هذا المبلغ البسيط لنفقات شهر واحد ...» .

على هذا النحو اصطحب الشاه عباس السير أنطونى شيرلى ومرافقيه الى أصفهان ثم صحبه عند وصولهم الى اصفهان حتى المنزل الذى اختير لاقامته فى تلك المدينة ، وفى اليوم التالى استبدل ملابسه وذهب الى منزل السير أنطونى وقدم اليه العزاء فى أحد خدمه الايرانيين والذى كان قد قتل خطأ بيده أثناء معاقبة جماعة من الجنود .

كان الشاه عباس قد منح أنطونى شيرلى أمير « ميرزا » وكان يخاطبه بلقب ميرزا أنطونيو وقد استطاع ميرزا أنطونيو خلال الستة أشهر التى أقامها فى اصفهان - كما سبق أن ذكرنا - أن يجعل الشاه يعتقد فى صدقه واخلاصه كما استطاع أن يعلم مجموعة من الجنود الايرانيين فنون الحرب الحديثة كما كانت آنذاك فى الدول الأوربية باستخدام الاسلحة النارية (١)

---

(١) كتب صامويل بيرشاس Samuel Purchas القس الانجليزى الذى سافر للشرق فيما بين ١٦١٣ ، ١٦٢٦ م (١٠٢٢ - ١٠٣٧ هـ) فى كتاب رحلته يقول : « الدولة العثمانية التى كانت باعث رعب وفزع للعالم المسيحى أصبحت الآن فى رعب وخوف على مستقبلها من رجل انجليزى (السير أنطونى شيرلى) فقد تعلم الايرانيون فنون الحرب من شيرلى ، وبينما لم يكن لديهم علم عن استخدام المدافع أصبح لديهم الآن خمسمائة عربة مدفع برونزى وستون ألف بندقية ، ولهذا فان الايرانيين كانوا حتى الآن مبعث قلق العثمانيين وخوفهم وهم بالسيوف ألقوا الرعب والفزع فى قلوبهم الآن بقذائف المدافع » .

وذلك بمساعدة الله وردى خان قائد جيش ايران وكان مسيحيا جـــديد الاســــــلام ٠

وبعد هذا ـ وكما سبق أن ذكرنا فى الفصل الخاص بعلاقة الشـــاه عباس بالبرتغال وأسبانيا ـ فقد اقترح على الشاه عباس أن يرسل سفيرا الى بلاط ملوك أوربا ليتحد معهم ضد الدولة العثمانية ٠ وقد اختار الشاه عباس أحد قواده وهو حسين على بك بيات كسفير وتطوع السير أنطونى لمرافقته الى اوربا وترك أخاه مع بعض المرافقين فى ايران ٠

وقد سافر أنطونى شيرلى مع حسين على بيات الى أوربا عن طريق بحر الخزر وروسيا ٠ ولم يعد الى ايران بعد هذا ، وقد فصلنا أخبـــــار سفارته الى المانيا وأيطاليا وأسبانيا فى الفصل السابق ٠

ســيرة روبرت شــيرلى

سبق أن أشرنا الى أن السير أنطونى شيرلى عندما كلف بالسفارة الى أوربا من قبل الشاه عباس ترك أخاه روبرت شيرلى فى ايران ، وكان روبرت شيرلى آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره شابا مؤدبا محبا للعلم عفيفا الى جانب الشجاعة وحسن السيرة والجمال والقامة الفارعة ، ولم يكن يطلق لحيته أبدا • كما كان قد أتم دراسته فى دار الفنون باكسفورد ، كما كان يدين بالمذهب الكاثوليكى على عكس مواطنيه ، وقد اختاره الشاه عباس تابعا خاصا له ومنحه لقب بك وجعل له ألفى أشرفى كراتب سنوى ، وفى بداية خدمته اختاره لقيادة مجموعة من الجيش الايرانى ، وحين دخل فى الحرب مع الحكومة العثمانية أرسله لميدان القتال •



وكان روبرت شيرلى يرتدى الملابس الايرانية دائما ويضع على رأسه عمامة القزلباشية ولأنه كان مسيحيا فقد كان يضع عليها صليبا صغيرا كما كان قد ثقب أحدى أذنيه وعلق فيها حلقا به ماسة كبيرة تتلألأ •



أحد القزلباشية صورة محفورة على النحاس سنة ١٥٨١ (٩٨٩ هـ

وقد كتب أخوه السير أنطونى عن سبب بقائه فى ايران فقال : « قبل أن أرد على عطف الشاه وتفضله على ، فان أخى الذى كان فكره يتجه للاعمال العظيمة يريد الاقامة فى ايران ٠ ولم يكن أخى من الذين اذا وصلوا الى الشهرة والمنصب انصرفوا عن كسب العلم واختار الكسل واللهو واللعب ، بل كان منذ طفولته يجتهد فى كسب العلم والمعرفة والكمال ، ويسعى الى اظهار تفوقه فى معدنه الطيب ويقوى طبيعته البشرية فى مواجهة الاحداث والمصاعب ٠٠٠ ولم يكن يخشى أبدا من أى خطر قد يواجهه » ٠

ولما كان الشاه عباس يريد أن يبقى أخى فى ايران اثناء غيابى عنها ، فقد قال اننا نحن الاثنين تجمع بيننا الوحدة بحيث لايوجد أى فرق فى آرائنا وأفكارنا ونحن متشابهان فى علاقتنا بصاحب الجلالة وميلنا لخدمته ٠ ومع أن وعود البذل والعطاء من المخدوم لخادمه مما يبعث على السرور وتجعل اطاعة الاوامر الملكية لازمة بل واجبة ، ولكننا بسبب ايماننا واعتقادنا فى آراء وعقائد الشاه فان كل مايراه ويطلبه منا نعده خيرا للدولة وصلاحا لانفسنا ونعد طاعته واجبة علينا ٠٠٠ والآن وقد أمرتم جلالتكم أن يبقى أحدنا فى ايران فاننى أطيع هذا الامر بكل الترحيب ، بل ان هذا الأمر يمكن أن يعد باعثا على زيادة محبة الشاه لنا ٠

ويبدو أن السبب الاصلى لرغبة روبرت شيرلى فى البقاء فى ايران كان هيامه الشديد باحدى الفتيات فى الحرم الملكى ٠ وكانت بنت أحد الامراء الشركس الذى أسلم حوالى عام ١٠٠٢ هـ وتسمى باسماعيل خان وتزوج الشــاه عباس من أخته ٠ فلما دخلت هذه السيدة الى الحرم الملكى أخذت معها ابنة أخيها وكان اسمها « سامبسونيا(١)» واهتمت بتربيتها فلمـــا بلغت سامبسونيا سن الرشد أصبحت فتاة جميلة فاتنة وتفوقت على اقرانها فى ركوب الخيل والتطريز والرسم فجمعت الفن الى الجمال وأصبحت قبلة العشاق ومطمح الامراء ونظرا لان روبرت شيرلى كان نديما للشـــــاه عباس يصاحبه فى حضره وسفره ، فقد وقع فى حب هذه الفتاة وعـــاش سنوات يطمع فى وصالها حتى تزوجها فى النهاية باذن الشاه عباس ٠

---

(١) Sampsonia

بناء على ماسبق فان روبرت شيرلى بقى فى ايران مع خمســـة من المرافقين الانجليز بعد سفر شقيقه السير انطونى الى أوربا ، ولما كان شابا ذا ارادة حسن السيرة جميل الطلعة فقد ازدادت محبة الشاه عباس له ، وكانت أول مهمة كلفه بها الشاه عباس هى تعيينه قائدا لجمــاعة من القزلباشية وارساله لحرب العثمانيين • وقد بذل روبرت فى هذه المهمة كل الاخلاص والشجاعة وجرح ثلاث مرات فى المعارك التى خاضها الشـــاه عباس مـع الاتراك العثمانيين فى عامى ١٠١٣ ، ١٠١٤ هـ وننقل هنا خلاصة ماجاء فى نسخة خطية من كتاب « الاخوان شيرلى » عن تفصيل اشتراكه فى الحروب الايرانية العثمانية :

« بعد سفر أنطونى شيرلى اختير أخوه روبرت لمنصب قيادى ، ونال فى الحرب الايرانية العثمانية رتبا عالية • وقد أبدى من الشجاعة والاقدام ماجعل الايرانيين يمنحونه تاج القزلباشية تذكارا لانتصاراته • فيوم واجه الاتراك أخذ حربه فى يده وهجم على الاتراك هجوما جعلهم يدهشون من شجاعته ويلوذون بالفرار وقد اقتدى به جنوده وأخذوا فى قتل أعدائهم بسيوفهم ، وقد أبقى روبرت شيرلى وحده على حياة ثلاثين من قادة الجيش العثمانى وحملهم الى حضره الشاه ثم كتب (رســـالة) الى المسئولين العثمانيين قائلا « أن أطلقتم سراح أخى السير توماس شيرلى فاننى سأطلق فى مقابله سراح أسراكم الثلاثين ولكن الاتراك لم يقبلوا طلبه وردوا عليــه ردا جافا • ومع أن روبرت شيرلى كان يعلم مدى تعب جنوده وأن الحرب الاخيره قد أنهكتهم الا أنه لم يخف أو يتردد وأمر جنوده فقطعوا رؤس أسراه الثلاثين الذين كانوا جميعا من قادة الجيش العثمانى وأمرهم فجعلوها على أسنة الرماح وطافوا بها فى الاسواق ، ثم أقسم أما أن يفنى عدوه أو يكون جثة فى ميدان القتـــال » •

ثم أخذ فى ترتيب الجيش ، وحينما شعر أن الخوف يستولى على جنده لكثرة عدد جيش اعدائه توجه اليهم قائلا : « أيها الجنود الشجعان الايرانيين أنني أعرف أنه لا حاجة للخطب الطويلة لاثارة حميتكم وتشجيعكم فمثل هذا

مثل من يسكب الزيت على النار أو يهمز الفرس الجامحة المتحفزة فان ثباتكم وشجاعتكم فى المعارك السابقة خاصة فى الحرب الاخيرة قد اثبتت لى أن عدد الاعداء حتى ولو كان أضعاف عددهم الآن فان الفصر سيكون لنـا وحميتى تقتضى أن تقدمكم فى هجوم اليوم وسأقاتل حتى آخر نفس وأجاهد طالمـا لم يحل الموت بينى وبين أداء الواجب فاجعلونى قدوة لكم فى التضحية واتبعونى فى جرأة واطمئنوا أن النصر لنـا » ٠

ثم أسدل نقاب خوذته وهمز فرسه وهجم على العدو بعنف وغضب وأسرع الجنود الايرانيون خلفه وكانوا فى عجب من شجاعته اذ كان يهاجم فى كل اتجاه وصوب كالاسـد الجسور فيقتل كل من يراه من الأعداء ، ففر الاتراك خوفا من شجاعته وجرأته وبعضهم ترك سلاحه وسلم ، وفى هـذه الحملة أسر ستين من قادة الجيش العثمانى أيضا ، فكتب رسالة أخرى لقائد الجيش التركى لانقاذ أخيه لديهم فى مقابلهم ٠

وكانت شجاعة روبرت شيرلى واخلاصه سببا فى أن منحه الشاه عباس تاج القزلباشية ــ كما سبق أن ذكرنا ــ كما سمح له أن يرتدى الملابس الايرانية ، ثم أذن له فيما بعد أن يتزوج من سامبسونيا ــ بنت أحد كبار الشركس واسمه اسماعيل خان ــ وفى أحد الأوامر التى صدرت باسم وختم الشاه أشير الى روبرت على أنه « قد أدى مايكفيه فخرا حتى آخر العمر » ٠

وكتب بيترو دلا فاليه السائح الايطالى ــ الذى جاء الى ايران سنة ١٠٢٥ هـ وبقى فيها خمس سنوات ــ يقول فى هذا الصدد : « كان الشـــاه عباس أحيانا يعطى درجة القزلباشية الى الاجانب الذين كان ينظر اليهم بعين العطف والرعاية ، وكان يشرفهم باعطاء تاج القزلباشية ، ولكن هذه المكرمة كانت نادرة الوقوع ، وقد علمت من أحد الثقات الذى قضى فى ايران خمسة عشر عاما أنه لم يشرف أحدا بهذا الفخر الا لواحد فقط وليس لهذا الامر مراسم أو تشريفات خاصة سوى أن يضع الشاه التاج على رأسه مع بعض كلمات المحبة والعطف ٠

ولم يحظ بتاج القزلباشية من الاوربيين الا روبرت شيرلى الانجليزى الذى ارسل منذ بضع سنوات فى سفارة الى أيطاليا مبعوثا من قبل الشـــاه

وذهب الى بلاط البابا وهو الآن يقوم بهذه المهمة لدى باقى ملوك أوربا ، وقد سمعت أن هذا الانجليزى هو الذى طلب تاج القزلباشة من الشاه وأصر على هذا كثيرا ويقولون أن روبرت شيرلى وضع على طرف عمامته الحمراء صليبا صغيرا • كى لا يعرض نفسه لسب الاوربيين ولومهم •

بعد أن ظل روبرت شيرلى فى ايران مدة عشر سنوات صمم على العودة الى وطنه لان أخاه أنطونى لم يعد لايران ، ولكن هذا الامر كان غير ممكن دون موافقة الشاه عباس واذنه ، كما أن حبه لسامبسونيا ابنة الشركسى المسلم كان يؤرق مضجعه ، ولهذا أوعز الى أحد أقاربه فى انجلترا أن يبعث له برسالة يقول له فيها أن أخاه أنطونى قد عين قائدا لاحدى الفرق الاسبانية من قبل الملك فيليب الثالث ، وعندما وصلت هذه الرسالة الى أصفهان طلب من القسس الكرمليين هناك أن يصدقوا على هذه الرسالة ، ثم عرضها على الشاه عباس ، وقال له طالما كان أخى قد وصل الى هذا المنصب الرفيع والى صداقة ملوك أوربا فان على الشاه عباس أن يرسل سفيرا جديدا الى أوربا حتى يثير ملوك أوربا ضد العثمانيين بمساعدة السير أنطونى شيرلى ثم تطوع لكى يقوم بهذه المهمة بنفسه •

وقد وافق الشاه عباس على اقتراحه نظرا لما كان قد قدمه من خدمات فى الحروب الايرانية العثمانية ، كما سمح له بالزواج من حبيبته سامبسونيا(١) وأخذها معه الى أوربا •

وقد تم زواج روبرت شيرلى وسامبسونيا يوم ١٥ شوال سنة ١٠١٦هـ (فبراير ١٦٠٨م) وغيرت الفتاة الشركسية الحسناء التى كانت قد عمدت على يد راهبات جماعة الكرمليين المسيحية اسمها الى تريزا تيمنا باسم القديسة تريزا أحدى مصلحات وراهبات هذه الجماعة •

وقد توجه روبرت شيرلى ــ كما ذكرنا فى الفصل السابق ــ فى يوم ٢٤ شوال ١٠١٦ هـ ــ أى بعد تسعة أيام من زفافه ــ مع بعض الايرانيين فى سفارة الى أوربا عن طريق بحر الخزر وروسيا ، وكان هذا الانجليزى أثناء اقامته فى ايران قد استطاع أن يكتسب صداقة الشاه عباس وجماعة من

---

(١) Sampsonia

أعيان وزعماء ايران · الا أنه كان يوجد كثير من الاعداء بين رجال الـدين والمتعصبين الايرانيين ، ولهذا السبب هاجمت جماعة من أعدائه قافلته أثناء سفره وبعد أن استولت على أسلحة مرافقيه ربطوه الى شـــجرة ، وكانوا على وشك اعطائه السم ولكن فى هذه الاثناء سقط سيف أحد قطاع الطريق ، واستطاعت تريزا زوجة روبرت شيرلى أن تلتقط السيف بمهارة وهاجمت اللصوص بشجاعة وقتلت أحدهم وأنقذت زوجها من القيد وواصلت القافلة السير ·

أول سفارة لروبرت شيرلى فى انجلترا

بعد سفر طويل لروبرت شيرلى فى روسيا وبولندا والمانيا وايطاليا واسبانيا ، والقيام بمهمته فى بلاط البابا وملوك الدول المذكورة ، صمم على الذهاب من أسبانيا الى انجلترا وتقديم مقترحاته ـ فيما يتعلق بتجارة ايران وانجلترا ـ الى ملكها جيمس الاول ·

يتضح من الرسالة التى كتبها كانينجتون ـ سفير انجلترا فى أسبانيا بتاريخ ١٨ شوال ١٠١٩ هـ (٥ يناير ١٦١١ م) الى اللوردسالزبورى وزير خارجية الملك جيمس الاول ، أن روبرت شيرلى كان غير مرتاح من سلوك ملك انجلترا تجاهه · فلن يستقبله الملك بالتشريفات والمراسم التى يستقبل بها السفراء الاجانب · ومن هنا فانه سيصبت مذنبا ومسئولا أمام شاه ايران، كما أن روبرت شيرلى اعتقد ان بلاط أسبانيا يعارض ذهابه الى انجلترا ، وكان يريد أن يعرف ماذا سيفعل ملك انجلترا للحصول له على اذن بمغادرة أسبانيا ، ولهذا فقد اطلع السفير الانجليزى على موجز للموضوعات التى كان يريد ابلاغها باسم الشاه عباس الى ملك انجلترا · وبناء على مقترحاته فان الشاه عباس كان مستعدا لعقد اتفاقية صداقة مع انجلترا ، ويمنح رعاياها تسهيلات تجارية فى ايران ويسمح للتجار الانجليز بتأسيس مراكز تجارية فى ميناءين من موانى جنوب ايران · ويكون لانجلترا فى هذين الميناءين مندوبون سياسيون ، ويصبح المسئولون فى شركة الهند الشرقية الانجليزية احرارا فى المسائل التجارية فى هذين الميناءين حرية تامة · كما كان الشاه عباس يريد شراء بعض السفن من انجلترا وكان يرغب فى أن تحمل أجزاء هذه السفن على السفن الانجليزية الى موانى جنوب ايران على الخليج حيث يجرى تجميعها وتكميلها ويدفع ثمنا مجزيا لها ·

كما أن شاه ايران كان على استعداد لان يصدر الحرير الايرانى على السفن الانجليزية فقط وبواسطة التجار الانجليز عن طريق الخليج الفارسى وجنوب أفريقيا الى انجلترا وباقى دول أوربا بشروط عادلة بعد أن كان أغلبه يصدر الى أوربا عن طريق الاراضى العثمانية ، وأن يستورد بدلا منه بضائع انجليزية عن نفس الطريق الى موانى الخليج حيث تحمل بعد ذلك

الى داخل ايران وبهذا يصل الحرير وباقى البضائع الايرانية والشرقية الى أوربا بثمن أقل • ولكى يحرم التجار وعمال الدول العثمانية من المكاسب الوفيرة التى كانوا يحصلون عليها من هذا الطريق • كما أن الشاه عباس كان أيضا على استعداد لعقد معاهدة عسكرية مع ملك انجلترا وأن يمده فى أى وقت يشاء بما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألف جندى • ويبدو أن هدف الشاه عباس من وراء الاقتراح الاخير هو تهيئة الجو لاتحاد انجلترا وايران ضد البرتغاليين والاسبان فى سواحل الخليج وخاصة فى جزيرة هرمز •

ويتضح من هذا أن الهدف الرئيسى من وراء ذهاب شيرلى الى انجلترا هو عقد معاهده تجارية مع الملك جيمس الاول بناء على أوامر الشاه عباس لكى ينشىء طريقا جديدا لتصدير الحرير ومختلف البضائع الايرانية الى أوربا حتى لايضطر التجار الايرانيين الى تصدير بضائعهم عن طريق الاراضى العثمانية ، وبهذا يحرم السلطان العثمانى من الجمارك والرسوم التى كان يحصلها على البضائع الايرانية •

بقى روبرت شيرلى معطلا فى أسبانيا مدة طويلة بسبب المشاكل والموانع المختلفة التى واجهته ـ كما سبق أن أشرنا ـ وفى ربيع الثانى سنة ١٠٢٠ هـ (يونيو ١٦١١م) توجه بالسفينة الى انجلترا • وبعد رحلة استغرقت شهرين مع زوجته تريزا اتيح له أن يرى بيت آبائه فى انجلترا، وفى يوم ٢٣ رجب من نفس العام (أول أكتوبر ١٦١١ م) استقبله ملك انجلترا فى قصر « هامبتون كورت » واطلع على خطابات الاعتماد وقدم روبرت شيرلى اليه رسائل الشاه عباس ، وقد جاء فى أحدى رسائل الشاه عباس المؤرخة فى ١٩ رمضان ١٠١٩ هـ بعد المجاملات الملكية « أنه لما كان بعض كبار حكام أوربا قد أرسلوا الينا بعض القسس ورجال الدين لعقد معاهدات واقامة علاقات صداقة أخوية معنا ، لهذا رأينا أن نرسل روبرت شيرلى الانجليزى الذى أمضى سنوات فى خدمتنا ، كما أنه رجل لائق وعزيز ومورد اعتماد وثقه لدينا كسفير الى الملوك المسيحيين بدلا من أرسال أحد رعايانا • وبما أنه منا ومنكم أيضا فقد أرسلناه اليكم والى جميع الملوك المسيحيين » •

وأشار بعد هذا الى أن مبعوثى ملوك أوربا كانوا قد اقترحوا عليه أن الامبراطورية العثمانية يجب أن تهاجم من الجانبين حتى يقضى عليها تماما ، وأنه قد وافق على هذا الاقتراح وكتب اليهم أن يهاجموا الاراضى العثمانية بأسرع ما يمكن من جهة الشام وحلب أو أية ناحية أخرى يرونها مناسبة • حتى يقوم هو بدوره بالهجوم عليها من ناحية ديار بكر والولايات الغربية الايرانية كما كان قد فعل هذا عدة مرات فى ذلك الوقت •

أما فيما يتعلق بروبرت شيرلى فقد كتب الشاه عباس الى ملك انجلترا أن روبرت قد خدمة عدة سنوات فى غاية الاخلاص والصدق وأنه موضع ثقته ورضاه ، وهو يتوقع الا يتوانى الملك عن رعايته وبذل المعونة له كما طلب أيضا أن تتبادل الدولتان السفراء المقيمين حتى تقف الدولتان على رغباتها وأحوالها عن طريقهما •

وبعد أثنى عشر يوما كلف أربعة من التجار الانجليز المتعاونين مع شركة الهند الشرقية بالنظر فى مقترحات شيرلى وبحثها ، وقد كتب أحدهم فى الرسالة التى بعث بها الى السير ددلى كارلتون(١) ــ أحد رجال البلاط الانجليزى ــ يعرض وجهة نظره فقال : « أن مقترحات روبرت شيرلى تبدو غير قابلة للتنفيذ نظرا لطول الطريق كما أن العلاقات التجارية الايرانية الانجليزية تافهة ، كما أن قبول مقترحاته ستؤدى الى قطع العلاقات التجارية الانجليزية مع العثمانيين •

وقد عارض التجار الانجليز الذين كانت لهم علاقات تجارية مع العثمانين مقترحات شيرلى وحالوا بينه وبين تحقيق مساعيه ، ومع كل هذا فان جيمس الاول أبدى استعداده لعقد معاهدات صداقة وتجارة مع ايران يلتزم بها ويلتزم بها من يخلفه ، كما أنعم على روبرت شيرلى برتبة فارس فى البلاط ، ولهذا أصبح لقبه منذ ذلك الحين السير روبرت شيرلى •

بعد اقامة السير روبرت شيرلى فى انجلترا لمدة عام ونصف غادرها متوجها لايران وقد أمر جيمس الاول احدى السفن الانجليزية كان اسم مالكها هنرى ثاين(٢) وقائدها الربان نيوبورت بحمله هو وزوجته ومرافقيه

---

(١) Sir Dudley Carleton (٢) Henry Thynue

عن طريق أفريقيا الى الهند وقد أبدى مالك السفينة استعداده لنقل السفير الايرانى ومرافقيه الذين لم يكن عددهم يتجاوز ٢٥ شخصا الى الخليج والبقاء فى ايران ثمانية أشهر حتى يعد شيرلى فى هذه المدة البضائع التى تكفى حمولة هذه السفينة وهى نحو مائة طن من الحرير الخام والقطن والمنسوجات المختلفة والسجاد والنيلة ويعفيها من جميع الجمارك والرسوم ٠ وبناء على الاتفاق الذى عقد بين هنرى ثاين وروبرت شيرلى ، فان ثلثى أرباح هذه الصفقة يكون لمالك السفينة وثلثه لروبرت شيرلى ، كما أن السفير الايرانى كان قد تعهد بأن يحصل من الشــاه عباس على منحــة للعاملين على السفينة ٠

وقد منح جيمس الاول مبلغ خمسمائة جنيه الى شيرلى لنفقات بقية الطريق من الهند الى ايران ، وأعطاه رسالة للشــاه عباس ٠ وقد وصــل السفير الايرانى وزوجته(١) ومرافقوه الى ميناء دوفر فى ذى القعدة سنة ١٠٢١ (يناير ١٦١٣ م) وركب الوفد السفينة متوجهين الى ايـــران ، ووصل فى أواخر سنة ١٠٢٣ هـ الى ساحل ولاية السند فى الهند وذهب الى مدينة تهته وقد حرض البرتغاليون الذين كانوا غير راضين عن سفارته ، جماعة من الناس هناك فضربوا منزله بالمدافع وأزالوه من مكانه ، ولـــكن شيرلى ورفاقه صمدوا للهجوم الذى قتل فيه اثنان من مرافقيه ٠ ولما كان شيرلى مكلفا من الشــاه عباس بالذهاب الى بلاط نور الدين محمد جهانجير الملك الجوركانى لهذا فقد غادر تهته وتوجه الى أجره ، وبعد الانتهاء من مهمته عاد الى ايران حاملا هدايا الملك جهانجير التى كان من بينها زوج من الافيال ٠ فوصل الى اصفهان فى شهر جمادى الاول سنة ١٠٢٤ هـ ٠

---

(١) كانت تريزا قد أنجبت ولدا أثناء اقامتها فى انجلترا أســموه هنرى ، وقد تركاه هناك عند عودتهما الى ايران ٠

رســالة ملك انجلترا الى الشــاه عباس

« بعد واجب الدعــاء ، فانه ربما اتضح لجلالتكم أننا تعجبنا من أن ملكا عظيما مثلكم يرسل الينا رسولا هو فى الاصل تابع لنــا كما أنه خادم لــكم ٠٠٠ ولمــا كان البك الاعظم (شيرلى) قد جاء سفيرا من قبلكم الى عرش ملوك أوربا والينا ، فقد استبقيناه لدينا بعض الوقت ٠ ولمــا كان المذكور من أبناء هذه البلاد ومن أبناء العظماء ، فقد قدمنا له كل الاحترام والاعزاز وذلك لما بيننا وبينكم من وحدة وصداقة ، بالنسبة للخــدمات التى قدمها جلالتكم للبك فاننا سوف نردها أضعافا مضاعفة وهنــاك موضوعات لم نستطع ذكرها فى هذا الرسالة سوف يعرضها عليكم شفاها ونحن نتوقع الا تزول محبتنا من ذاكرتكم كما نبذل الروح فى سبيل صداقتكم ونحن نرجو حين يذهب أتباعنا الى بلادكم الاتحرموهم من عزتكم وحمايتكم والله يعلم أن البك (شيرلى) قد قام بسفارته لدى ملوك أوربا على النحو لايتسع المجال فى هذه الرسالة لذكره ، وأنا ادعو لكم ليل نهار بالنصر والفتح دائما وأن يزول عدوكم ويفنى وينهزم الروم (الاتراك) الشؤم ونرجو أن ينفذ كل أمر قد تطلبونه منا ولانطيل عليكم ولتدم أيام المحبة ٠ (١) »

عندما عاد السير روبرت شيرلى الى أصفهان بعد ما يقرب من ثمانى سنوات قضاها بعيدا عن ايران استقبله الشاه عباس بكثير من اللطف والمحبة ، وهيأ له فى الليلة الاولى لوصوله مكانا فى المخدع الملكى وكــان شيرلى بعد هذه الرحلة يريد البقاء فى اصفهان ولايغادر ايران ولكن الشاه بعد فترة قصيرة طلب منه العودة الى أوربا فى سفارة جديدة ، وعلى الرغم من الامتناع عن قبول هذا الامر متذرعا بعدم استعداده وزوجته لهذا السفر الطويل مرة ثانية الا أن شــاه أصر على أمره ٠

أشرنا فيما سبق الى أن الشــاه عباس كان فى ذلك الوقت قد استولى على جزر البحرين وكيش وميناء جمبرون من البرتغاليين ، وكان يفكر فى الاستيلاء على هرمز أيضا من ناحية أخرى كان فيليب الثالث ملك أسبانيا

---

(١) مجموعة رسائل الشاه عباس بالمكتبة الوطنية بنابولى ٠

قد طلب من الشــاه عباس أن يغض بصره عما كان قد استولى عليه فى الخليج وسواحل ايران ، فأراد الشاه عباس أن يرسل روبرت شيرلى الى أوربا آملا فى أن يقوم فيليب الثالث بمحاربة الدولة العثمانية وفى اقـــامة اتحـــاد مع البــابا والملوك المسيحيين ٠

رضخ روبرت شيرلى فى النهاية لقبول هذه السفارة ، وحينما وصل هذا الخبر للشــاه عباس بلغ به الفرح والسرور أن أقسم على رأسه أن أى شىء يطلبه منه شيرلى سيلبيه له فى الحال ، فرجاه روبرت شيرلى أن يرسل معه أحـد القسس الكرمليين اسمه رديمتو دلا كروز كان يعيش مع القس جان تاديه فى أصفهان ، وقد وافق الشاه عباس على طلبه وأصدر أمرا خاصا فى هذا الشأن ننقله عينا هنا ٠ وقد توجه روبرت شيرلى مرة ثانية الى أوربا آملا فى أن يقوم فيليب الثالث بمحاربة الدولة العثمانية وفى اقـــامة فيما بعـــد ٠

أمـــر الشـــاه عبـــاس
بخصوص أرسال القس رديمتو دلا كروز
مرافقــا للسير روبرت شيرلى الى أوربا
الملـــك للــــــه

صـــدر الامر الهمـــايونى

لمـــا كان الابوان الكبيران عميدا الزهاد(١) المسيحية الاب جــــون والأب رديمتو قد جاءا من بلاد الفرنج لخدمتنا وأقاما فى هذه الديار وفى هذا الوقت الذى أرسلنا فيه صاحب العزة البك الاعظم الدون روبرت شيرلى كسفير ورسول الى بلاد الفرنج وخدمة ملوك الفرنج العظام وقررنا أن الاب العظيم جوان (تاديه) يرسل رفيقه الاب رديمتو بدواعى الثقة مع البك المذكور الى حضرة ملوك أوربا ويبلغا رسائل من قبلنا وقد كان هنـــاك قبل هذا فى خدمتنا وقام المشار اليه بارسال الاب ديمتو مع البك المذكور حسب أمرنا وأبقينا هنا الأب جوان فيجب على الاب المذكور حينما يصل الى أى مكان وأية ولاية من مملكتنا أن يقدم له الحـــكام والمسئولون عن الأمن وجميع الناس كل الترحيب وكمال الاحترام ، وألا يمنعوه من أى مكان وقد أعلموا حتى يتجنبوا التقصير ٠ تحريرا فى شهر رمضان المبارك ١٠٢٤هـ

(١) يقصـــد الرهبـــان ٠

بداية العلاقات السياسية والتجارية
الايرانية مع شركة الهنـد الشرقيـة

بداية تأسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية :

بعد أن وصل البرتغاليون الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وأقاموا هناك مراكز تجارية لهم ، صمم التجار الانجليز على الوصول الى الهند حتى لايحرموا من أرباح التجارة مع هذه البلاد التى تدر الذهب ٠

وقد حاول البحارة الانجليز فى البداية الوصول الى الهند عن طريق الممر الشمالى الغربى – أى طريق شمال أمريكا الشمالية – فلما لهم يصلوا عن طريقة الى هدفهم حاولوا الوصول عن طريق روسيا ، وكان من بين هـذه المحاولات رحلات أنطونى جينكينسين الذى تحدثنا عنه قبل هذا ، والتى كانت تهدف لنفس الغرض ٠

كان أول من سافر الى الهند لايجاد علاقات تجارية شاب اسمه توماس ستيفينس(١) من طلبة كلية اكسفورد سافر سنة ٩٨٧ هـ (١٥٧٩م) الى ميناء جوا وأصبح رئيس مدرسة اليسوعيين(٢) هناك ، وأرسل هذا الشاب رسالة الى أبيه كان انتشارها بين التجار الانجليز سببا فى ايجاد رغبة شديدة لاقامة تجارية مباشرة مع الهنـد ٠

وفى سنة ٩٩٥ هـ (١٥٨٧ م) وقعت احدى السفن البرتغالية واسمها سان فيليب اسيرة فى يد البحار الانجليزى الشهير فرانسيس دريك ، وقد استطاع التجار الانجليز الحصول على معلومات أكثر وأدق عن التجـارة الهندية وذلك من الوثائق والمستندات التى وقعت فى ايديهم من السفينة فزادت هذه المعلومات رغبتهم فى اقامة الروابط التجارية المباشرة مع الهند ٠

---

(١) Thomas

(٢) اليسوعيين أو الجزويت Les Jesuites أو جمعية عيسى Campagnie de Tesus اسسها أحد القديسين المسيحيين اسمه سان ايناس دى ليولا San Ignace de Loyola سنة ٩٤٢ هـ للتبشير للمسيحية ، ومن بين المبادىء الدينية لهذه الجماعة الطاعة التامة للبابا ٠

وبعد ذلك أيضا وعندما حطم الاسطول الانجليزى اسطول فيليب الثانى ملك أسبانيا « الذى لايهزم » سنة ١٥٨٨ م اطمأن الانجليز الى قوتهم البحرية ، وأدركوا أن مقاومة القوات البحرية الاسبانية البرتغالية أمر غير محال ، ولهذا رأى تجار لندن أن يقللوا من نفوذ البرتغاليين وقدرتهم فى المحيط الهندى حتى المقدور ويحصلوا على نصيب من تجارة الهند المربحة ٠

وقبل المعركة البحرية بين الانجليز والاسبان بخمس سنوات ـ أى فى سنة ٩٩١ هـ ـ (١٥٨٣ م) كان أربعة من السياح الانجليز هم رالف فيتش ووليام ديدز وجان نيوبرى وجيمس ستورى(١) قد كلفوا بدراسة الاوضاع الاقتصادية والتجارية لدول المشرق ، وقد حملوا معهم رسائل من الملكة اليزابيث الى ملوك الهند وامبراطور الصين ٠

وقد سافر هؤلاء السياح من طرابلس الى بغداد والبصرة والخليج ثم جزيرة هرمز ، وهناك اعتقلهم البرتغاليون بتهمة التجسس وأرسلوهم الى ميناء جوا(٢) ـ مركزهم التجارى فى الهند ـ والقوهم فى السجن ، ولكنهم تمكنوا من الهرب سنة ٩٩٣ هـ (١٥٨٥ م) ٠

وقد تمكن رالف فيتش وحده من العودة الى انجلترا بعد جولة فى جزء كبير من الهند وبورما والملايو وسيام وأخذ فى كتابة رحلته التى تضمنت موضوعات مثيرة عن ثراء وقدرة الشرق الدائمة ، مما جعل التجار الانجليز يصممون على الاستفادة من هذه الثروة وإخراجها من احتكار البرتغاليين ٠

وفى ٢٤ جمادى الثانى ١٠٠٩ هـ (٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م) أسست شركة الهند الشرقية الانجليزية تحت اسم « شركة تجار لندن الذين يتاجرون مع الهند الشرقية » بأمر من الملكة اليزابيث وبدأت هذه الشركة مزاولة أعمالها فارسلت بعض السفن التجارية الى الشرق ٠ ففى المدة من ١٠٠٩ الى ١٠٢٠ هـ (١٦٠٠ ـ ١٦١٢ م) ذهبت اثنتا عشر سفينة تجارية الى الهند وافتتحت تجارة انجلترا مع تلك البلاد ٠

---

(١) James Story, John hewbury - William Deedes - Ralph Fitch

(٢) كتب فيتش يقول « ٠٠٠ بعد وصولنا الى جزيرة هرموز القوا القبض علينا وصادر حاكم الجزيرة وكان اسمه ماتياس دى البوكيرك كل اموالنا ونقلنا يوم ١١ اكتوبر سنة ١٥٨٣ بالسفينة الى نائب الملك فى مستعمرة جوا بالهند ٠

فى سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) وصلت أول سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية بقيادة ويليام هوكينز(١) الى ميناء سورت على الساحل الغربى للهند ، وكان هذا الربان يحمل رسالة توصية من جيمس الاول ملك انجلترا الى نور الدين محمد جهانجيز ملك الهند ، وقد وفق الى حد ما فى مهمته ٠ وبعد أربع سنوات وصلت ثلاث سفن انجليزية أخرى بقيادة توماس بست(٢) وقد وفق هذا الرجل الى عقد معاهدات تجارية مع المسئولين المحليين فى ميناء سورت ، كما تمكن بعد ذلك من تأسيس مركز تجارى فى ذلك الميناء

وبعد ثلاث سنوات رأت شركة الهند الشرقية أن يذهب ممثل سياسى من انجلترا الى بلاط ملك الهند الجوركانى للمحافظة على مصالح الشركة فى الهند من المضايقات العلنية التى تثيرها البرتغال فى وجه مصالح الشركة وقد وافق جيمس الاول على هذا الموضوع وأرسل أحد الانجليز المحنكين اسمه سير تماس رو(٣) عرف بكثرة اسفاره والمامه بآداب وتقاليد البلاد ـ كسفير الى بلاط الشـاه سليم ٠

وقد تضمن الامر الصادر من الملك جيمس الاول فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٦١٤ م التعليمات الآتية بشـأن هذه السفارة :

« يكلف السير توماس رو الذى يذهب بناء على أوامرنا الى بـلاط المغولى الكبير أمبراطور الهند بأن يحترم حيثيتنا ومقامنا الملكى فى كل مكان وزمان لاننا أولياء نعمته ، كما أننا ندين بدين المسيح وعليه أن يعمل على تقدم شأن شركة تجـارة الهند وألا يحيد عن أوامرها لاننا نرسله أساسا لهذا الغرض ٠ واذا سأله المغولى الكبير لماذا لايترك البرتغاليون جوا وماحولها لرعايانا ويعادونهم دائما ويعارضونهم فعليه أن يجيب بأن البرتغاليين يريدون اغتصاب تجارة الهند واحتكارها ، ومع أن انجلترا ليست عاجزة عن تحطيم قواتهم ، الا أن صاحب الجلالة ملك انجلترا لايريد اللجوء الى الحرب أو وسائل القوة والعنف » ٠

على هذا النحو قامت شركة الهند الشرقية الانجليزية على أسـاس محكم قوى وأدى هذا الى تقدم عظيم فى النواحى السياسية والاجتماعية

---

(١) William Hawkins

(٢) Thomas Best

(٣) Sirthomas Roe

فى القرون السابع عشر والثامن عشروالتاسع عشر فى انجلترا كما يتضح من تاريخها • أما شرح الاجراءات التى قامت بها شركة الهند الشرقية وبيان مدارج رقيها فى الهند فانه يخرج عن موضوع هذا الكتاب ، ولهذا فاننا نتجاوزها الى الجزء الذى يرتبط بالعلاقات السياسية والتجارية الايرانية ارتباطا مباشرا •

بعد أن ازدهرت شركة الهند الشرقية فى الهند ، راجت فيها البضائع الانجليزية خاصة الجوخ فهذا ارسل المسؤلية عن الشركة مقادير وامره من البضائع الانجليزية الى الهند مما أدى الى زيادة العرض على الطلب فظلت فى المخازن ، مما اضطر رئيس المركز التجارى الانجليزى وكان اسمه توماس الدوورث(١) الى البحث عن أسواق جديدة •

فى هذا الوقت وصل الى ميناء سورت شاب انجليزى اسمه ريتشارد ستيل(٢) كان قد سافر الى ايران سنة ١٠٢٣ هـ (١٦١٤ م)للبحث عن أحد المدينين له ، ومن هناك ذهب الى سورت وتحدث مع رئيس المركز التجارى عن استعداد ايران للتجارة مع شركة الهند الشرقية وحاجة هذه الدولة الى الجوخ الانجليزى خاصة لبرودة جوها ، وقد الح على هـذا الموضوع حتى أن مندوب الشركة صمم على اقامة علاقات تجارية مع ايران وأرسل ستيل مع شخص انجليزى اخر اسمه جون كروثر(٣) الى عاصمة ايران حتى يحصلا له على المعلومات اللازمة عن التجارة الايرانية واذا تمكنا من أخذ أمر من الشاه عباس يتيح لسفن الشركة حرية الملاحة فى الخليج وموانى ايران لتقوم بالتجارة دون موانع •

وفى هذا الوقت كان السير روبرت شيرلى قد عاد من أول سفارة له فى أوربا (جمادى الاولى ١٠٢٤ هـ) وكان ستيل وكروثر يحملان اليه خطابات توصية من الشركة ، ولكن شيرلى استقبلهما فى بداية الامر ببرود ولم يهتم بطلباتهما ، ولكنهما تمكنا فى سنة ١٠٢٥ هـ(١٦١٦م) من تحقيق أهدافهما وأصدر الشاه عباس أمرا خاصا طلب فيه من رعاياه فى كل مقام ورتبه أن يعاملوا التجار والمسافرين الانجليز معاملة طيبة ومضمون هذا الامر هو :

---

(١) Thomas Aldworlh	(٢) Richard Steele
(٣) John Crawther

« الى كل رعايانا من كل مقام كبيرهم وصغيرهم الى رؤساء الدولة وأعيانها آمرهم جميعا عندما تدخل أية سفينة تابعة للانجليز ميناء جاسك أو أى ميناء آخر فى مملكتنا أن يعاملوا الانجليز بكل حب واحترام ويحملوهم بما معهم من بضائع الى أى مكان يرغبون الذهاب اليه ، وعليهم أن يدافعوا عنهم وعن أموالهم فى مواجهة اعتداءات أى فرنجى اخر كما يجب . هذه ارادتنا كما نأمر كل رعايانا باتباع هذا . كتب فى العاصمة الملكية بتاريخ شهر رمضان ١٠٢٤ هـ (سبتمبر / أكتوبر ١٦١٦ م) .

الى جانب هذا كلفت شركة الهند الشرقية مبعوثيها ستيل وكروثر بالسفر الى موانى الخليج ليختارا أنسبها لرسو السفن وتفريغ وحمل البضائع . وبعد رحلة الى موانى جاسك وجمبرون وريشهر (بوشهر) والبحرين وقع اختيارهما على ميناء جاسك الذى يقع على بعد ٩٠ ميلاشرق جزيرة هرمز وكتبا للشركة أن ميناء جاسك يقع على مقربة من مدخل الخليج، ولهذا فهو غير معرض لتهديد السفن البرتغالية أو هجومها مثل جزر البحرين، كما أنه أنسب لرسو السفن .

بعد أن وصل أمر الشاه عباس لمسئولى شركة الهند الشرقية فى الهند بدأوا فى الاستفادة منه ، وكان السير توماس رو يعتقد أن أمر الشاه عباس لايمكن الاستفادة منه على الوجه المطلوب لخلوه من الاشاره الى اقامة قلاع واستحكامات فى مقابل الاستحكامات البرتغالية القوية فى هرمز ، كما أنه لم يخصص ميناء معينا للتجارة الانجليزية . وكان يرغب فى أن ترسله الشركة مندوبا عنها لبلاط الشاه عباس لبحث الاوضاع التجارية والاقتصادية فى ايران .

فى نفس ذلك العام ارسل السير توماس رو رسالة الى شركة الهند الشرقية مضمون جزء منها ما يلى :

« تجارنا لايعرفون مايجب عمله فى التجارة مع ايران ، فميناء جاسك ليس مكانا مناسبا لبيع تجارتنا ، وما أرسل الى هناك لم يتم بيعه للآن الى جانب أن روبرت شيرلى ذهب الى أسبانيا كسفير من قبل الشاه عباس ليعقد اتفاقا مع ملك أسبانيا والبرتغال يتيح لتجار هاتين الدولتين اقامة

مراكز تجارية فى ميناء جمبرون ، وكل النقط الساحلية على الخليج واحتكار شراء وتصدير البضائع الايرانية ، ويرسلوا الى ايران كل عام عـدة سفن محملة بالتوابل والكتان الهندى لبيعها هناك مقابل ذلك • فاذا وفـق شيرلى فى مهمته فان نشاط رجالنا وجهودهم ستتعرض للفشل » •

وفى نفس الوقت كتب رسالة الى الشـاه عباس وضمن شكره على الامر الذى أصدره للشركة لمح فيها الى أن عقد اتفاق جديد مع الحـكومة الاسبانية والاذن بحرية التجارة لجميع التجار المسيحيين تتعارض مـع نصوص ذلك الامر • واذا أعطت الحكومة الايرانية حق احتكار التجارة لشعب آخر فان الانجليز سيضطرون للجوء لقواتهم الحربية ، ومن المـكن أن يعرض هـذا أمن الخليج وهـدوء للخطـر •

ولم يوافق التجار الانجليز فى ميناء سورت الهندى على أفكار السير توماس رو وكانوا يريدون اقامة مراكز للتجارة فى ايران بأسرع مايمكن ، وكان الاسراع فى اقامة علاقات تجارية مع الايرانيين واجبـا فى نظرهـم للاسباب التالية :

أولا : أن روبرت شيرلى كان بعيدا عن ايران آنذاك ، ولهذا رأوا أن جهودهم ستكون أكثر مناسبة لانه كان من الممكن بعـد عودته من أوربـا أن يعمل على معارضة نشاط شركة الهند الشرقية أو يقوم بأكثر من هذا•

ثانيا : لمـا كانت العلاقات التجارية بين ايران وأوربا قد قطعت بسبب الحرب الايرانية العثمانية ، وقلت الاقمشـة الاوربية فى ايران فيجب اغتنام الفرصـة •

ثالثا : لابد من ايجاد أسواق جديدة لتصريف البضائع المكدسة فى مخـازن مينـاء سـورت •

سفارة ادوارد كنوك(١) الى ايـران :

فى النهاية استطاع التجار الانجليز فى سورت الحصول على موافقـة شركة الهند الشرقية لبدء التجارة مع ايران خلافا لرأى السير توماس رو

(١) Edward Conaock

وفى ذى الحجة ١٠٢٥ هـ (نوفمبر ١٦١٦ م) ارسلوا أول سفينة تجارية انجليزية وكان اسمها جيمس من ميناء سورت قاصدة ميناء جاسك ، والى جانب حمولة السفينة من البضائع الكثيرة وصلت عليها بعثة(٢) لمقابلة الشـاه عباس لتقوية العلاقات التجارية بين الدولتين ، وكان على رأس هذه البعثة ادوارد كنوك أحد التجار المحنكين والخبراء الانجليز ، وسبق له الاشتغال مرات عديدة بالتجارة مع الدولة العثمانية ، وبعد سبعة وعشرين يوما وصلت السفينة « جيمس » الى ساحل ايران رغم المصاعب والمشاكل التى أثارها البرتغاليون فى طريقها • ووصل ادوارد كنوك يوم ٢٢ ربيع الأول ١٠٢٦ هـ (مـارس ١٦١٧ م) الى اصفهـــان واستقبله المسئولون فى الحكومة الايرانية بالترحيب والاحترام ونظرا لان الشــاه عباس لم يكن فى أصفهان وكان يحارب فى جورجيا ، لهذا توجه ادوارد كنوك الى آذربيجان وجورجيا بعد أن بقى بعض الوقت فى اصفهان •

استقبل الشاه عباس مندوب شركة الهند الشرقية بالترحيب ولقب ملك انجلترا بلقب « الأخ الكبير » وشرب نخب صحته وسلامته • وقد اقترح ادوارد كنوك ـ نيابة عن ملك انجلترا وشركة الهند الشرقية ـ أن يرسل السفن الى ايران طوال العام لتحمل حرير ايران الى جانب التجارة الاخرى من موانى الجنوب وتنقله الى أوربا عن طريق البحر بدلا من نقله عن طريق الاراضى العثمانية •

وقد سمح الشــاه عباس للسفير الانجليزى بانشاء مراكز تجـــارية فى كل من أصفهان وشيراز ، ووعد بأن يترك لمندوبى الشركة ميناء جاســك أو أى ميناء آخر تراه شركة الهند الشرقية مناسـبا لها • كما أصدر فرمانا وافق فيه على أن ترسل الحكومة الانجليزية مندوبا سياسيا الى بلاط ايران وتعطى الحرية التامة لموظفى الشركة فى مزاولة التجارة فى جميع أرجـــاء ايران • كما اشير فى هذا الامر الى أن الرعايا الانجليز لهم الحرية التامة فى القيام بشئونهم الدينية طبقا لعاداتهم وآدابهم • كما يمكنهم حمــل

---

(٢) أعضاء هذه البعثة هم :

George Rley-Thomas Barker - William Bell William Tracye - Edward Peters - Mathew Pepwell.

السلاح معهم دائما لكى يستخدموه فى حالة الدفاع عن النفس كما أن لمندوب انجلترا الحق فى ارسال مندوبين وموظفين الى أنحاء ايران المختلفة للعمل على تنشيط التجارة وتوسيع مجالها ٠

كان الشاه عباس يريد أن يجد أسواقا جديدة للحرير الايرانى الذى يحتكر تجارته لنفسه ، ويجد طريقا آخر لنقله عبر طريق الاراضى العثمانية ولم يكن راضيا عن البرتغاليين للاسباب التى سبق أن ذكرناها وكان ينتظر الفرصة المواتية لكى يكف أيديهم عن سواحل جنوب ايران التى استعمروها وأخذوا يعاملونه فى الشئون التجارية والسياسية بجرأة واستهتار كان يتحين الفرصة ليخرجهم من موانى وجزر الخليج ، ولكن لم تكن لديه القوات البحرية الكافية ولهذا رأى أن الصداقة مع شعوب مثل الانجليز والهولندين لازمة له وضرورية لما كان لهما من قوات بحرية تتساوى مع قوات البرتغاليين فى القوة ٠

لهذا السبب استقبل الشاه عباس مندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية بترحيب بالغ وأبدى اهتمامه وتلهفه على منح التسهيلات التجارية لهذه الشركة ، ولم تفلح جهود المسئولين الاسبان والبرتغاليين فى الاضرار بعلاقات الشاه عباس وشركة الهند الشرقية(١) ٠

أسس ادوارد كنوك مراكز تجارية فى اصفهان وشيراز بتصريح من الشاه عباس وذلك فى سنة ١٠٢٦ هـ (١٦١٧ م) وسافر بعد ذلك الى جزيرة هرمز لكى يستقبل السفن التجارية الانجليزية التى كانت قد وصلت من الهند محملة بكثير من البضائع ويشرف على نقل هذه البضائع الى داخل ايران ولكنه توفى فجأه بالقرب من هرمز مع بعض رفاقه ووصل خبر الى البلاط الايرانى يفيد أن البرتغاليين هم الذين سموه وأصحابه ٠

---

(١) كتب بيترو دلافاليه السائح الايطالى الذى كان آنذاك فى أصفهان يقول « عندما توجه ادوار كنوك الى جورجيا لمقابلة الشاه عباس أسرع الراهب مليكور ديزاتج أحد قسس جماعة سان أغوسطين ومندوب أسبانيا لدى الشاه الى هناك أيضا لكى يحذره من قبول المقترحات الانجليزية وينبهه الى الصدام الذى قد يحدث فى الخليج بين الدولتين ولكن الشاه عباس لم يهتم بوجهة نظرة ٠

سفارة روبرت شيرلى الثانية الى أوربا

سبق أن قلنا أن الشاه عباس كلف السير روبرت شيرلى مرة ثانية بالتوجه كسفير الى بلاط ملوك أوربا سنة ١٠٢٤ هـ ٠ وبعد أن توقف شهرين فى الهند وصل فى صيف ١٠٢٦ هـ الى ميناء ليشبونه عاصمة البرتغال ومن هناك ذهب الى أسبانيا وظل هناك حتى سنة ١٠٣١ هـ ٠ وقد فصلنا تقرير سفارة روبرت شيرلى الثانية الى بلاط أسبانيا فى الفصل الخاص بالعلاقات الايرانية الاسبانية والبرتغالية ولا حاجة لتكراره ٠

وقد وصل شيرلى فى أواخر ١٠٣١ هـ الى مدينة روما ومن هناك توجه الى انجلترا فوصل فى ربيع الاول ١٠٣٢ هـ الى لندن واستقبله الملك جيمس الاول كسفير لايران ٠ وكتب السير جون فينيت(١) رئيس الديوان الملكى الانجليزى الذى كان مكلفا باستقباله تقريرا عن هذه الزيارة خلاصته هى:

« فى يوم ١٩ يونيو ١٦٢٣ م (ربيع الاول ١٠٣٢ هـ) صدرت لى الأوامر أن اذهب الى نيوماركت لاستقبل السير روبرت شيرلى سفير ملك ايران واهيء وسائل الراحة له فى منزلى فى ساكس هام ، وكان روبرت شيرلى بعد رحلة طويلة فى البحر والبر قد اختار الاقامة فى هذا المكان وكتبت الى أخته الليدى كروفتس(٢) من هناك رسالة تطلب منى أن أعد وسائل اقامة أخيها من طرف الملك ٠

بعد ثمانية أيام ذهبت بالعربة ذات الخيول الملكية وخمسة من خاصة الخدم الملكيين الى سكسهام ، ولما كان البلاط قد أبلغنى أن الملك سوف يستقبل السفير بعد ظهر نفس اليوم ، فقد اصطحبت السفير فى العربة الملكية الى القصر الملكى قبل الظهر بساعتين وأجلسته فى غرفة الخلوة الملكية ثم أصطحبه ايرل أف اينجل سى(٣) الى المخدع الملكى لملاقاة الملك ، وكان روبرت شيرلى قد جاء بملابس ايرانية من قدمه حتى رأسه وكان يلبس عمامة فلما وصل أمام الملك حنى رأسه مرتين وطبقا للعادات الايرانية خلع

---

(١) Sir John Finnett

(٢) Lady Crofts

(٣) Earl of Angle Sea

عمامته ووضعها أمام قدمى الملك ثم جلس على ركبتيه وتكلم فلما أذن له الشـــــاه بالنهوض وقف ولبس عمامته وقـــدم خطـــابات اعتماده التى كانت مكتوبة باللغـة الفارسية ولـما لم يعثر فى انجلترا كلها على شخص يعرف اللغـة الفارسية فقد ظل مضمون رسائله مجهولا وتحدث الملك بعض أحاديث المجامله مع السفير ثم أذن له بالعوده ... » ٠

وفى ١٤ فبراير صدرت الاوامر ثانية كى يلتقى السفير بالملك فى قصر ســان جيمس ولهذا توجهت بالعربة الملكية وبعض الخدم الىبيته واصطحبته الى قصر ســان جيمس ٠ وكان الملك واقفا فى قاعة الاستقبال ينتظر وصول السفير ، فلما دخل روبرت شيرلى حنى رأسه بالعمامة للتعظيم ثم وضع يده اليمنى على الارض ورفعها الى جبهته فلما اقترب من الملك جلس عــلى ركبتيه ولكن الملك أوقفه وعرض السفير موجزا لمهمته وُقدم مؤجزا مكتوبا لـما ذكر ثم عاد بنفس المراسم التى جاء بها ... » ٠

وقد استقبل جيمس الاول السير روبرت شيرلى بالترحيب وأبـــدى استعداده لعقد معاهدة سياسية وصداقة مع ايران تقوم على الاسس التالية:

١ ـ تتعهد الحكومة الانجليزية بأن تضع تحت تصرف الحـــكومة الايرانية كل سفنها فى الخليج للهجوم على رجال الحكومتين الاسبانية والبرتغالية اللتان استوليتا على جزر هرمز وقشم ويضايقون ايران وشركة الهند الشرقية الانجليزية فى المسائل التجارية بشرط أن تتحمل الحـــكومة الايرانية نفقات هذه السفن ٠

٢ ـ تتعهد ايران بامداد الحكومة الانجليزية بخمسة وعشرين ألف جندى نظامى مسلح عندما تطلب ذلك منها ٠

٣ ـ تسمح الحكومة الانجليزية للتجار الايرانيين بحمـل بضائعهم الى انجلترا على السفن الانجليزية بعد دفع الاجور العادية الانجليزية ولا يؤخذ من التجار الايرانيين الا ما يدفعه بقية التجار من مختلف الشعوب من الرسوم والجمارك الى جانب منح التجار الايرانيين حرية احضار الذهب والفضة الى انجلترا أو تصديرها منها ولا تأخذ منهم أية حقوق جمركيةعنها٠

وعلى هذا النحوحلمرضـوع تصدير البضائعالايرانية وخاصة الحرير

الى أوربا طبقا لهذه المعاهدة التى بمقتضاها يستطيع التجار الايرانيون نقل بضائعهم على السفن الانجليزية الى انجلترا ومنها الى بقية الـــدول الاوربية لبيعها هناك ٠ كما أن التعهد السياسى واتحاد القوات البحرية والبرية للدولتين كان يحمى المراكز التجارية الانجليزية وموانى جنوب ايران من تهديد هجوم السفن الاسبانية والبرتغالية ولكن قبل أن توقــع هذه المعاهدة توفى جيمس الاول فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ م وخلفه ابنه تشارلز الاول وتأخر التوقيع على المعاهدة كما حدث فى نفس الوقت حادث آخــر أضاع كل جهود روبرت شيرلى نذكره فيما يلى :

ســفارة نقـــد على بـــك :



بينما كان روبرت شيرلى مشغولا بالمحادثات مع ممثلى الملك الجديد وأوشك على الوصول الى هدفه وصل الى انجلترا سفير ايرانى جديد هــو نقد على بك وكان الشاه عباس قد أرسله بايعاز من مندوبى شركة الهنـــد الشرقية الانجليزية الذين كانوا ينظرون الى بعثة مواطنهم روبرت شيرلى

بعين الشك والريبة • وكان نقد على بك قد وصل فى أول فبراير ١٦٢٦ م (الثانى من جمادى الاول ١٠٣٥ هـ) الى الساحل الانجليزى على السفينة « ستار » •

حينما وصل نقد على بك الى لندن أنكر سفارة روبرت شيرلى بناء على تحريض من رجال شركة الهند الشرقية بل أنه شتمه فى أحد المجالس وصفعه صفعة قوية على وجهه وأعلن أن خطابات اعتماده مزورة ومزقها مما جعل البلاط الانجليزى ينظر بريب الى سفارة شيرلى ولايتم محادثاته معه•

وقد أشار السير جون فينيت رئيس ديوان جيمس الاول والذى كان مكلفا باستقبال السفيرين روبرت شيرلى ونقد على بك الى الخلافات بينهما فى مذكراته فقال :

« فى أواسط فبراير ١٦٢٦ م (جمادى الاولى ١٠٣٥ هـ) أخبر التجار الانجليز الملك أن سفينة قد وصلت الى ميناء بورتثموث وأن عليها سفيرا ايرانيا جاء الى انجلترا فصدرت لى الاوامر أن أرسل العربة الملكية وبعض المضيفين لاستقبال السفير فى كينج ستون واحضاره من الميناء الى لندن وكان تجار الهند الشرقية قد أفرطوا فى الترحيب بهذا السفير الجديد ولجأوا الى بعض الوسائل حتى أرسلت بعربة ملكية تجرها ثمانية خيول لاستقباله وقد وصل السفير الى لندن يوم ١٩ فبراير وتحمل المسئولون فى شركة الهند جميع نفقاته وأعدوا منزلا لاقامته وبعد يومين من وصول السفير طلب التشرف بمقابلة الملك •

ولكى يقف السير روبرت شيرلى على حقيقة الهدف من حضور السفير الجديد فقد طلب من أحد أقاربه وهو أيرل كليفلاند(١) أن يرافقه فى الذهاب الى السفير الجديد للترحيب بوصوله وكان السير روبرت يقصد أن يخبره السفير الجديد بالغرض من حضوره ولهذا فقد كان قد استأذن الملك واسترد من البلاط أوراق الاعتماد التى كان قد قدمها للملك فى أول يوم وذهب فى العربة الملكية مع ايرل كليفلاند وبعض رجال البلاط ، وكنت من بينهم ، الى منزل السفير الجديد فى نفس اليوم الذى أراد فيه مقابلة الملك •

(١) Earl of Clevlan Clevland

وكنت قد اقترحت أن نرسل شخصا للسفير قبل ذهابنا اليه ونخبره برغبتنا فى زيارته فرد عليه السفير دون أية مجاملات بقوله « فليأتوا » ٠

حين دخلنا غرفة السفير وجدناه متربعا على كرسى كعادة الايرانيين وحين رآنا لم يبد أى اهتمام ٠ والقى سير روبرت السلام عليه وجلس على كرسى بالقرب منه وذكر ايرل كليفلاند للسفير سبب مجىء روبرت شيرلى ونحن معه عن طريق المترجم وقد ذكرت أنا المترجم السفير مقام ايرل كليفلاند وأهميته فلما عرف السفير هذا أنزل رجليه من على الكرسى وقال بعض كلمات المجاملة ٠

بعد هذا أخرج روبرت شيرلى خطابات اعتماده وعلى عادة الايرانيين وضعها على عينيه وجبهته ثم قبلها وسلمها للسفير حتى يقبلها بـــدوره ويقرأها ولكن السفير نهض فجأة من على الكرسى وذهب ناحية روبرت شيرلى وجذب الخطابات من يديه ومزقها ثم صفعه قوية على وجهـــه ٠

وقف ايرل كليفلاند بينهما ليحول دون تماسكهما ولكن ابن سفير ايران الذى كان واقفا فى جانب الغرفة هجم على روبرت شيرلى وصفعه صفعتين أخريين وأوقعه على الارض ولكن ايرل كليفلاند أبعد هذا الشاب أيضا ثم لام السفير على هذا السلوك السىء وقال له لولا رعاية احترام الشاه عباس ملك ايران العظيم لما خرج أحد منكم حيا من هذه الغرفة ، وعندئذ ظهرت آثار الندم على وجه السفير وقال اننى أسف جدا على ماحدث ولكن سببه أن هذا الرجل (يقصد شيرلى) زور خطاب ولى نعمتنا وادعى كذبا أنه سفيره لان رسائل شـــاه ايران تختم عادة فى اعلاها أما فى خطاب اعتماد هذا الرجل فقد ختم من ظهره بالاضافة الى أنه يقول أنه تزوج بنت أخت الشـــاه عباس وهذا كذب محض ٠

ابتعد السير روبرت شيرلى الذى أحس بالاهانة والخجل الى ناحية من الغرفة فلما سمع كلام السفير الايرانى تقدم اليه وقال اننى لم أقل أبدا أننى متزوج من بنت أخت الشاه عباس ولكن زوجتى من أقارب زوجة الشـــــاه أما فيما يتعلق بختم خطاب الاعتماد فصحيح أن شـاه ايران يختم جميع أوامره فى طرفها الاعلى ولكن حين يكون سفيره من الاجانب فانه عادة يختم ظهر الامر ويوقع عليه حتى يعرف أنه من طرف أى شخص قبل أن يفضوه ٠

رد السفير الايرانى على هذا الكلام بنظرة احتقار ولم يقل شيئا ٠ بعد هذا غادرنا منزله وأوصلنا السير روبرت شيرلى الى منزله وذهبنا الى البلاط الملكى وقدمنا تقريرا للملك عما حدث فى هذا اللقـاء ٠

حين علم تجار شركة الهند الشرقية بحادثة لقاء شيرلى ونقد عـلى وصفعه عدو شيرلى مذنبا وكان دليلهم أن شيرلى لو لم يكن مذنبا لرد على نقـد على بك له ، ولمـا وقف ساكتا أمام صفعاته ٠ ولكن شيرلى كتب تقريرا للملك وطلب مع اذن العودة لايران أن يعلقوا خطابات اعتماده فى رقبتـــه ويعيدوه مع رسول خاص لايران حتى تتضح له الحقيقة ٠

أمر الملك بدوره مندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية أن يحملوه على أحدى سفنهم الى ايران حتى يتضح صدق أقواله أو كذبها فاطاعوا أمر الملك ولكنهم رجوه أن يستقبل سفير ايران فى أسرع وقت ممكن ٠

فى السادس من مارس من ذلك العام (١٦٢٦م/١٠٣٥ هـ) استقبل تشارلز الاول الذى جلس على العرش بعد أبيه جيمس الاول السفير الايرانى وكتب السير جون فينيت عن أول لقاء بين السفير وملك انجلترا فقال :

« دخل السفير الى قاعة الضيافة التى كان الملك واقفا بها فى انتظاره وتقدم دون أن يحنى رأسه أو يؤدى أى احترام فلما اقترب من الملك قبل أوراق اعتماده واحدة واحـدة ثم سلمها للملك ولم يحن رأسه أيضا أثناء تقديمها وبعد أن قام بهذا أعطى ظهره للملك وتأخر نحو عشرين قدما ثم استدار ناحية الملك وأشار بيده الى الاشخاص الذين كانوا يقفون بينه وبين الملك لكى يتنحوا جانبا ثم حنى رأسه ثلاث مرات حيث كان يقف ثم غادر القاعة٠ وقد اراد السفير أن يقابل الملكة أيضا ولكنها لم تكن فى القصر الملكى ، ولهذا جلس فى العربة وظل يتجول فى حديقة سان جيمس حتى عادت الملكة للقصر»٠

كان الملك قد أمر ــ كما ذكرنا ــ أن يعود السفيران الى ايران على السفن التى كانت ستبحر فى شهر مايو من ذلك العام الى الهند وأرسل معهما رجلا انجليزيا هو السير دورمر قطن(١) للقيام بمهمتين الاولى أن يتأكد من أن السير روبرت شيرلى كان سفيرا لشاه ايران أم لا ، والثانية أن يعقـد معاهدة تجارية مع شـاه ايران ٠

---

(١) Sir Dormer Cotton

لم يتح للسفيرين الرحيل فى شهر مايو لان سفن شركة الهند الشرقية كانت قد أقلعت قبل وصولهما الى الميناء فاضطرا للبقاء فى انجلترا وبعد عشرة اشهر توجها الى الهند وايران عن طريق رأس الرجاء الصالح ٠

أقدم نقد على بك على الانتحار خوفا من مؤاخذة الشاه عباس له فسم نفسه بالافيون على الساحل الشرقى لافريقيا ٠ ووصل روبرت شيرلى ودورمر قطن فى ربيع الثانى ١٠٣٧ هـ (يناير ١٦٢٨ م) الى ميناء جمبرون بعد رحلة استغرقت أحد عشر شهرا ٠ وكان الشاه عباس آنذاك فى أشرف (بهشهر حاليا) فى مازندران فاضطر السير دورمر للسفر عبر ايران كلها من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال ، وسنذكر أحوال السير دورمر وروبرت شيرلى فى الصفحات التالية ٠

سفارة توماس باركر وجيلز هابس

قلنا أن ادوار كنوك مندوب شركة الهند الشرقية وبعض مرافقيه توفوا فجأة بالقرب من جزيرة هرمز سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٧ م) وفى قول أن البرتغاليين سموهم ولهذا عينت الشركة معاونه توماس باركر مندوبا لها فى ايران فبدأ باجراء محادثات مع الحكومة الايرانية لعقد اتفاقية لشراء الحرير وأبدى الشاه عباس استعداده لعقد اتفاقية مع شركة الهند الشرقية فى هذا الشأن بشرط قيام مندوبى الشركة بشراء ستمائه عدل(العدل ١٣٥ كجم) حرير من ايران كل عام ودفع ثمنه أما نقدا أو بضائع ولايحق لهم تصدير الحرير مالم يدفعوا كل ثمنه ٠

فى نفس هذا العام أيضا جاء مبعوث آخر لشركة الهند الشرقية اسمه جيلز هابس(١) يحمل رسالة للشاه عباس ولكنه وصل الى ايران عن طريق روسيا٠ وبعد أن تشاور توماس باركر(٢) مع المبعوث الجديد قبل شروط الشاه عباس بل تقرر أن تقصر ايران بيع كل حريرها لمندوبى شركة الهند الشرقية فقط ولاتبيع حريرا للتجار الاسبان البرتغاليين ولاترسل شيئا عن طريق الاراضى العثمانية الى أوربا ووافق الشاه عباس على هذه الشروط ووعد بالمحافظة عليها والتمسك بها طالما كان على قيد الحياه اذا ظل الانجليز على وعدهم ولكن قبل أن يأخذ هذا الاتفاق شكله الرسمى والفعلى اعترض عليه أرامنة جلفا لان جزءا من حرير ايران كان يصدر بمعاونتهم الى أوربا عن طريق الاراضى العثمانية وكان هذا الاتفاق الجديد الذى يوقف تصدير الحرير عن طريق الاراضى العثمانية يلحق بهم أضرارا جسيمة ٠

بعد هذا الاعتراض على الاتفاق الجديد أمر الشاه عباس أن يجتمع مندبون أسبانيا والشركة الانجليزية والارمن فى مقر الحكومة حيث يعرض الحرير الايرانى بالمزاد ليباع لمن يدفع أعلى ثمن ، ولم يتحدث مندوب أسبانيا فى هذا الاجتماع بحجة أنه لم يتلق تعليمات من دولته لتحديد سعر الحرير ٠ كما أن الانجليز صمتوا لانهم لم يرغبوا فى التعامل فى الحرير على

---

(١) Gyles Habbes

(٢) Thomas Parker

أساس المزايدات وعرض الارمن وحدهم الذين كانوا يرغبون فى اخراج الآخرين من السوق ثمنا باهظا لم يسبق له مثيل وهو خمسين تومانا لكل ٣٦ من ملكى ولهذا باع لهم الشاه كل انتاج ايران من الحرير فى ذلك العام(١)٠

حينما رأى مندوبون شركة الهند الشرقية أن الاتجار فى الحرير مع الأرمن بعد ما حدث لن يفيدهم توقفوا عن شرائه وتصديره فى ذلك العام ٠ ولما كان الارمن قد علموا - بطرقهم الخاصة - أن الاتجار فى كل البضائع الايرانية فى أوربا يدر أرباحا وفيرة فقد اشتروا كميات من الاقمشة المختلفة والبسط والبضائع الاخرى وحملوها بالسفن الى أوربا ٠

توفى توماس باركر فى أواخر عام ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) فى اصفهان وتوجه ادوارد مونوكس - الذى ذكرناه فى الفصول السابقة - الى اصفهان فى ربيع الثانى ١٠٢٩ هـ (مارس ١٦٢٠ م) ليحل محله مندوبا لشركة الهند الشرقيـــة ٠

فى هذه الاثناء كان الشاه عباس قد تصالح مع السلطان العثمانى وصمم على أن يكف يد الاسبان والبرتغاليين عن جزيرة هرمز ولهذا أظهر عداوته لهم ، ولما كان يريد أن يقوم بهذا العمل بمساعدة السفن الانجليزية - كما سبق أن ذكرنا - فقد أخذ فى التقرب الى مندوبى شركة الهند الشرقية ووافق على التعامل معهم فى الحرير مثلما حدث سنة ١٠٢٩ هـ حينما سمح لمندوب الشركة بالذهاب بنفسه الى جيلان واختيار مايعجبه أو يناسبه من الحرير حتى يحمله مندوبو الشاه الى اصفهان وعلى نفقته هو لـــكى يسلم الى المركز التجارى الانجليزى ٠ ولما رأت الشركة الانجليزية أن الشاه يميل اليها فى التعامل فى الحرير أرسلت سفنها الى ايران لنقله فوصلت الى ميناء جاسك فى ذلك العام خمس سفن تحمل مختلف البضائع الانجليزية والهندية وبعض الهدايا للشاه عباس ٠ وكان لدى هذه السفن أوامر بأن تتوجه الى ميناء جمبرون بعد أن تفرغ حمولتها فى ميناء جاسك لكى تقوم

---

(١) كان الشاه عباس يحتكر تجارة حرير ايران كما سبق أن ذكرنا فكان مندوبوه يجمعون الحرير من كل أنحاء ايران بثمن رخيص ويضعونه فى مخازن الشاه الذى يتولى بيعه بالثمن الذى يحدده ســـواء للاســـبان والبرتغاليين الذين يصدرونه عن طريق الجنوب أو الارمن الذين يصدرونه عن طريق الاراضى العثمانية ٠

بدراسة عن ذلك الميناء من ناحية موقعه الطبيعى لرسو السفن وامكانياته للشحن والتفريغ لان الشاه عباس كان قد أذن لشركة الهند الشرقية الانجليزية باقامة مركز تجارى فى جمبرون رغم معارضة البرتغاليين ٠

كان بعض رجال البلاط وحكام ايران الذين كانوا يحصلون على أرباح طائلة من تهريب الحرير أو الاتجار فيه من التجار الايرانيين غير راضين عن سلوك الشاه عباس الودى مع مندوبى شركة الهند الشرقية واحتكار واحتكار بيع الحرير لهـــــا ٠

وكتب بيترودلافالية الذى كان آنذاك فى ايران يقول :

« كان الانجليز قد أحضروا عشرين عدلا (العدل ١٣٥ كجم) من حرير جيلان الى اصفهان وكانوا قد دفعوا بعض ثمنه ويأملون فى دفع بقية الثمن من بيع بعض بضائعهم التى كانت فى اصفهان ولكن وقع بينهم وبيـــن قرجقاى خان الذى كان يتولى حراسة طرق ايران خلاف لانهم امتنعوا عن دفع رسوم حراسة الطريق الذى كان مبلغا تافها والحقيقة أن الايرانيين كانوا ينظرون للانجليز بعين الحقد لانهم بشرائهم للحرير حرموا كثيرا من التجار الايرانيين والوزراء والاعيان الذين كانوا يحصلون على أرباح كبيرة من هـذه التجارة ٠

وقد أدت الكراهية الى سوء معاملتهم بتحريض من رؤساء وكبار رجال الدولة بل وصل الامر الى حد جذب وجرح بعض المندوبين والموظفين الانجليز وقد أوكل هذا الامر الى قطاع الطريق واللصوص كما أن الشاه فى مجالسه الخاصة لم يكن يشير اليهم بالخير لأنه كان يعلم أنهم قراصنة البحار والسرقة فى ايران من الاعمال المذمومة ٠

وكان مندوبو شركة الهند الشرقية يريدون خديعة الشـــاه بشرائهم لحرير جيـــلان ثم يشترون حرير كل مناطق ايران مهربا بثمن زهيـــد ويصدرونه ولكننى سمعت أنهم هم الذين خدعوا اذ أن الشاه عباس بحجة أنه لايوجد غير هذا الحرير باع لهم بعض الحرير السيء الصلب كالخشب ثم طالبهم بثمن حرير ممتاز (١) ٠

---

(١) بيترودلافاليه ج ٥ ص ١٨٥ ـ ١٨٨ ٠

ومن بين الهدايا التى كانت سفن الهند الشرقية قد أحضرتها للشاه عباس عربة جميلة يجرها ستة جياد وكانت هذه العربة من الداخل وكذلك ملابس سائقيها وزينة خيولها كلها من المخمل (القطيفة) كما زينت من الداخل والخارج بالذهب ولم يحضروا معها خيولا من انجلترا ولكنهم اشتروها من شيراز وربوها ودربوها هناك وكانت هذه العربة التى لم يسبق وجود مثلها فى ايران هدية من شارلز الاول ملك انجلترا ولان الاستفادة بها لم تكن ميسرة فى طرق ايران آنذاك فانها لم ترق لعينى الشاه بل أنه لم يعرضها على الناس كما جرت العادة فى مثل هذه الهدايا .

اتحاد ايران مع شركة الهند الشرقية الانجليزية
ضد رعايا البرتغال واسبانيا

كما ذكرنا فى الفصل الخاص بعلاقات الشاه عباس بالبرتغال وأسبانيا ، فان مندوبى الشاه عقدوا اتفاقا مع شركة الهند الشرقية ضد البرتغاليين فى هرمز وذلك فى صفر ١٠٣١ هـ (يناير ١٦٢٢ م) واستطاعت ايران بمساعدة الشركة الاستيلاء على جزر قشم وهرمز وكف يد المسئولين البرتغاليين والاسبان عن سواحل الخليج ولكن شركة الهند لم تحصل فى مقابل هذا على نتيجة تذكر ومع أن الحكومة الايرانية طبقا للاتفاق كانت قد قبلت دفع نصف دخل جمرك هرمز الى الشركة فانها لم تف بهذا الوعد الا بضع سنين لان المبادلات التجارية كانت قد انتقلت الى ميناء جمبرون فتوقفت ايران عن الدفع مدعية أن الشركة ليس لها العدد الكافى من السفن للمحافظة على أمن الخليج مما شجع اللصوص والقراصنة • ثم قبل مندوبو الشركة سنة ١٠٨٧ هـ وفى عهد الشاه سليمان الصفوى أن يأخذوا ألف تومان سنويا فى مقابل نصيبهم من دخل ميناء بندر عباس (جمبرون القديم) واستمرت هذه الحال بضع سنين •

بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز نفذ الاتفاق الذى كان قد عقده مع ادوارد كنوك سنة ١٠٢٦ هـ وسمح لمندوبى شركة الهند الشرقية بشراء أية كمية من الحرير تلزمهم من أى منطقة فى ايران وتصديره منها دون دفع أية رسوم أو أموال ومنذ ذلك الحين قويت شركة التجارة الانجليز فى الخليج وتحولت تجارة الهند الشرقية وايران الى أيدى الانجليز والهولنديين • ولم يهتم الشاه عباس بجزيرة هرمز بعد ذلك بل أقام قلعة جديدة فى ميناء جمبرون وجعل هذا الميناء مرفأ للسفن القادمة من الهند وأطلق عليه اسم بندر عباس وحصلت شركة الهند الشرقية على اذن باقامة عمارتين لفرع مركزها التجارى هناك ولم تحصل على اذن لبناء مساكن متعددة لموظفيها لأنه كان من الممكن أن تتحول مجموعة المساكن الى قلعة • كما منح الشاه بعض المنازل للشركات الانجليزية والهولندية فى شيراز واصفهان لتكون مساكن أو مراكز تجارية لموظفيها وقد كتب الرحالة الفرنسى

شاردان الذى كان فى ايران فى عصر الشاه عباس الثانى والشاه سليمان الصفوى، يقول :

« يقع سوق لله بك على الجانب الايمن لميدان نقش جهان (فى اصفهان) ويقع المركز التجارى لشركة الهند الشرقية فى نهاية هذا السوق وهو عبارة عن حديقة واسعة عظيمة بوسطها ثلاثة أبنية وهذه العمارات من أملاك الشارشى باشى الذى كان الشاه عباس الكبير قد غضب عليه وصادر أمواله ولما كان مندوب شركة الهند الشرقية قد وصل الى ايران فى ذلك الحين فان الشاه قد منحه هذه العمارات التى كانت فى وسط المركز التجارى وعلى مقربة من مقر الحكومة وكانت زينة السقف الذهبية ونقوش الابواب والجدران فى غاية الروعة والجمال ولكن للاسف فانها آيلة للخراب لان الشركة الانجليزية ليست لها تجارة قوية مع ايران كما قل عدد موظفيها جدا عما كانوا عليه فى زمن الشاه عباس وقد تحولت هذه العمارات الى مصايف يقضى بها الموظفون الانجليز فى بندر عباس فصل الصيف .

سفارة السير دورمر قطن

ذكرنا فى الصفحات السابقة أن السير دورمر قطن سفير تشارلز الاول ملك انجلترا وصل مع السير روبرت شيرلى الى ميناء جمبرون عن طريق الهند فى ٢٧ ربيع الثانى ١٠٣٧ هـ (٦ يناير ١٦٢٨ م) ٠

وكان نقد على بك سفير الشاه عباس قد انتحر فى الطريق فلم يصل معهما الى ايران وقد وصف السير توماس هيربرت أحد مرافقى السير دورمر انتحار نقد على بك فقال :

« فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٦٢٧ م (٢٠ ربيع الاول ١٠٣٧ هـ) القينا مراسينا فى سوولى رود(١) وقد توفى نقد على بك سفير أيران ومنافس السير روبرت شيرلى ، وقد ذكروا لنا أنه تعاطى الأفيون أربعة أيام متتالية فسمم نفسه ويبدو أنه انتحر خوفا من عقاب الشاه عباس لسلوكه السىء فى لندن مع السير روبرت شيرلى ٠ وقد ضاعف السفير الايرانى كمية الافيون التى عادة مايتناولها الايرانيون يوميا ولم يستطيع الطبيب عمل شىء على الرغم من تحذيره من هذا العمل ٠ وكان ابنه مدفوعا بعاطفة حب الابوة قد أخفى عنه الأفيون فلما علم نقد على بك بهذا هجم على ابنه شاهرا سيفه وكاد يفصل رأسه عن جسده لولا أن الابن استطاع بخفة ومهارة أن يلتجىء الى أحد الاركان ويحتمى به ٠

وقد ذهب السير دورمر قطن وشيرلى ومرافقوهما الى اصفهان عن طريق لار وشيراز وقد اضطر السفير الانجليزى الى الذهاب للشمال لان الشاه عباس انذاك كان يقيم فى مدينة أشرف فى مازندران فوصل الى هناك فى رمضان من نفس العام ٠

وكان السفير الانجليزى يحمل أوامر محددة من الملك تشارلز الاول بخصوص مهمته لدى الشاه عباس الأول ملك ايران ملخصها ما يلى :

---

(١) Swolly Rood

« لقد قدمت الينا مقترحات من شاه ايران عن طريق سفيره السير روبرت شيرلى فيما يتعلق بتقوية العلاقات التجارية بين الدولتين والدول التابعة لهما ولكن وقعت أحداث مؤسفة بوصول السفير الايرانى الثانى مما جعلنا نتردد فى مقترحات شـاه ايران وعقد الاتفاقيات اللازمة ولتوضيح هذا الامر فقد اخترناك واضعين فى الاعتبار سابق خدمتك وطريق سلوكك حتى ترافق السير روبرت شيرلى الى شاه ايران ، وتذكر له ماحدث هنا بين السفيرين وتتحدث معه طبقا لما يلى :

بعد ان تقدم أوراق اعتمادك الى شاه ايران تعبره أن السير روبرت شيرلى كان قد جاء الينا سفيرا ثم جاء مرة أخرى فى مهمة ثانية وقد تلقاه أبى الفقيد العزيز ـ خلد الله روحه ـ كسفير للشاه وقد بذلنا له من جانبنا نفس الرعاية والاحترام وقد تقدم الينا السير روبرت بمقترحات على أساس المصالح المتبادلة للدولتين . وبعد هذا وصل الى انجلترا سفير ثان من قبل شاه ايران اسمه نقد على بك وبعد قليل من وصوله أهان السير روبرت شيرلى أمام بعض أعيان الدولة ورجالها الذين كانوا قد ذهبوا لزيارته ومزق أوراق اعتماده وصفعه على وجهه وهذا السلوك تجاه أحد نجباء انجلترا مخالف لكل الاصول والقواعد الاخلاقية لنا ولولا رعاية احترام شـاه ايران ـ الذى يعد سفيرا له أيضا ـ لمـا ظل تصرفه هذا دون جـزاء وادع فى هذه الدولة التى ترعى العدالة والحضارة بكل دقة وشدة ، ولما كان حضور سفيرين لحاكم واحد ومعارضة واحد منهما للاخر أمرا غير عادى ، لهذا فنحن نأمركم بعرض هذا على شاه ايران ليتبين أيهما كان على حـق .

كذلك فقد تقدم الينا السير روبرت شيرلى بمقترحات سيقدم لـكم سكرتيرنا الخاص نسخة منها فاعرضها على شاه ايران فاذا وافق عليها وأراد أن ننفذها فعليك أن تقف على وجهة نظر شاه ايران ورغباته وتعرضها علينـا .

ويمكنك أن تتحدث باسمنا وتتعهد بأن نقبل من صميم قلبنا كـل اقتراح منطقى يناسب العلاقات بين الدولتين ويؤدى الى تقوية الروابط بينهما وتحكيم مصالحهما مما قد يقترحه الشـاه

وفى النهاية فان رغبتنا القلبية هى ألا تقبل أى لقب أو مقام من شاه ايران والا تتدخل فى شئون التجار الانجليز الذين يتعاملون مع ايران . وأن

تسلك طبقا لهذا الامر دون ايجاد أية مشقة أو مضايقة أو نفقات لتجارنا ومخالفة هذا الامر سيؤدى الى اراقة دمك ٠

(وايت هول صدر فى – ١٥ ابريل ١٦٢٦)

وقد استقبل الشاه عباس السير دورمر قطن والسير روبرت شـــيرلى ومرافقيهما فى القصر الملكى فى أشرف يوم ١٩ رمضان ١٠٣٧ هـ وفى قــول آخر يوم عيــد الفطر ٠ وقد كتب السير تؤماس هيربرت أحد مرافقى السفير الانجليزى فى مذكراته عن هذه الرحلة وماجرى فى هذا اللقاء والمحادثات فقال :

« فى يوم الاحد ٢٥ مايو ١٦٢٨ المقارن لاواخر شهر رمضان استقبلنا الشــاه حتى يتجنب الضيافة والاستقبالات التى يجب أن تقام فى مثل هذه الاحوال(١) وكان سفيرنا يصطحب معه السير روبرت شيرلى ، كما كنت ومعى نحو سبعة أو ثمانية من الانجليز برفقته ولم يرسل البلاط الايرانى أى قائد أو تشريفاتى لزيارة السفير سوى أحد اتباع محمـــد على بيـــك(٢) (ناظر القصر وخازن الشاه) الذى جاء للسفير وقام ببعض المجاملات البسيطة وعندما وصلنا الى قصر الحكومة ونزلنا عن جيادنا جاء أحد رجال البلاط واستقبلنا بالعبارة العادية التركية « مرحبا »(٣) وقادنا الى حجرة صغيرة تقع فى وسط فناء واسع ، وكان هناك بعض الجند ولم يكن بالغرفة من الاثاث سوى خمس قطع من السجاد الايرانى وكان فى وسطها حوض من المرمر الابيض مملؤ بالماء وقد وقفنا هناك نحو ساعتين قدم لنا خلالهما الشراب الذى لم يكن جيدا وان كانت الاقداح والصوانى والاباريق كلها من الذهب الخـــالص ٠

بعد هــذا اصطحبنا بعض المسئولين عبر حديقة تشرح القلب وتسر العين الى مبنى آخر مزين بنقوش بارزة مذهبة يطل من ناحية على بحر الخز ومن الناحية الاخرى على جبل البرز حيث المناظر الخلابة ودخلنا الى

---

(١) السير تماس هابرت والدكتور جوتش القسيس هما الوحيدان من مرافقى السيردورمر قطن اللذان انتقدا وذما لقاء الشاه عباس للبعثة ولايوجد لاقوالهما شبيه فى مذكرات أى واحد من المرافقين الآخرين ٠

(٢) يقصد محمد على بك جرجيراق الاصفهانى ٠

(٣) بالتركية خوش كلدى ٠

قاعة مربعة كبيرة مزينة بنقوش ذهبيه والارض مفروشة ببسط من الصوف وخيوط الذهب وفى وسط القاعة حوض من المرمر مملؤ بالماء الصافى حوله أقداح وأوانى رفنابين وغيرها وكلها من الذهب الخالص وكان بعضها مملؤا بماء الورد أو الشراب أو الورود الملونة .

وبعد أن شاهدنا كل هذه الثروة أخذونا الى غرفة أخرى أكثر ارتفاعا يعكس سقفها صورة للنجوم والكواكب وكانت النجوم من الذهب تتلألأ على أرضية من اللازورد الغامق وكانت الاوانى الذهبية فى هذه القاعة تصل قيمتها الى نحو عشرين مليون جنيه انجليزى كما قدرناها وكان يرى فى هذه القاعة حوض آخر للماء (فسقية) حافته من الذهب وعلى جوانبه أكواب وكئوس وغيرها من الاوانى من الذهب الخالص المرصع بالجواهر ولم يكن بينها اناء لم يكن مغطى بالماس والياقوت واللؤلؤ والزمرد والفيروز والجواهر الاخرى وكانت القاعة قد حولت الى ما يشبه قاعة القصر الرئيسية وكانت حافة الحوائط مزينة باشعار وأقوال بألوان مختلفة أو مكتوبة بالذهب أو الجبس وكانت زينة هذه الحجرة قد قام بها رجل المانى عاش فى البلاط الايرانى مدة من الزمن سحر خلالها الايرانيين بفنه وذوقه ومهارته .

وكان يجلس حول هذه القاعة جماعة من الامراء والرؤساء وكبار البكوات على ركبهم وهم كالتماثيل يتطلعون الى ناحية معينة ولا أحد يتكلم منهم أو حتى يعطس أو يكح لان مثل هذه الامور لاتجوز فى مجلس الملك بل وتعد من الذنوب الكبيرة .

كان الشاه عباس يجلس فى صدر هذا المجلس متربعا فوق وسادتين أو ثلاث من الاطلس الابيضى وكان الايرانيون يحبون هذا الملك كثيرا كما يحترمه الاجانب ويخشاه الاعداء ، وهذا الملك الذى جعلنا نشاهد كل هذا الغنى وتلك الثروة كان يرتدى ملابس قطنية حمراء بسيطة كأنه أراد أن يوعز الينا أن عظمته وجلاله ترجع الى صفات الحسنة وسياسته لا الى لبسه الحريرية ولآلئه ... وكان يضع على رأسه عمامة من قماش أبيض وكان يربط وسط سرواله بحزام جلدى وكان غمد سيفه من الجلد الاحمر ، من الذهب وحده مقوس كالهلال وكان بقية رجال القصر بسيطة مثل الشاه .

قال السفير للشاه بواسطة المترجم الذى يسميه الايرانيون الكلمجى « أنه قطع هذا الطريق الطويل لكى يهنىء الشاه بانتصاراته فى الحرب ضد العدو المشترك لايران وانجلترا ويتحدث معه عن تجارة الحرير وكـــل المصنوعات الايرانية ويحصل على معلومات عن سفارة السير روبرت شيرلى والتهم التى وجهها اليه نقد على بك سفير الشاه ويبلغه رسالة ودية من ملك الانجليز ... » .

نهض للشاه من مكانه والقى خطبة فصيحة باللغة التركية وقال « أن الاتراك العثمانيين أناس منحطون ولايقارنون بالايرانيين فى الذكاء أو القيام بالواجب ، ولقد أطلعت الاتراك وسائر الامم التى تعاديهم على شجاعة الايرانيين فى خمس عشرة موقعة خضتها ضدهم وامل أن يتحد المسيحيون فى القريب العاجل لان الامبراطورية العثمانية . ستفقد هذه العظمة وتلك القوة حينما يزول هذا الخلاف وذلك التباعد ، ولو لم يكن المسيحيون فى خلاف عداء كانت هذه الامبراطورية الدنيئة قد أصبحت شيئا لايذكر .

أما فيما يتعلق بتجارة الحرير فقال أنه مستعد لكى يسلم للانجليز فى جزيرة هرمز فى يناير من كل عام عشرة آلاف عدل من الحرير اذا أراد ملك انجلترا ويحصل فى مقابلها على جوخ انجليزى ليبيعه للعرب والتتار والارمن والروس والجورجيين بشرط أن يتعهد التجار الانجليز بعدم التعامل مع الاتراك لان السلطان العثمانى يحصل على أرباح وفيرة من رســـوم التجارة الخارجية ، والتجارة مع الاتراك مثلها مثل شوكة يصنعونها بأيديهم لكي توجه الى أعينهم أو كانهم يشحذون سيوف عدوهم لكى تقطع بها رقابهم .

أما فيما يتعلق بروبرت شيرلى فقال أنه هو سفيره الحقيقى وأنه ســوف يسترضيه عن الاهانة التى لحقت به من نقد على بك الذى انتحر حين وجد نفسه منحطا مذنبا لانه يعلم ماذا كان ينتظره من عقاب ثم أقسم لو أنه جاء حيــا لقطعه قطعا بسدد أيام السنة ولاحرقه مع فضلات الكلاب .

وعن علاقات الصداقة بين ايران وانجلترا قال أنه يقبل مثل هــذه الصداقة بكل رغبة وشوق ويأمل أن تبقى وتدوم .

ثم تلطف مع السفير ورحب به ثم عاد وجلس فى مكانه وفى هذه الاثناء وضع جميع رجال البلاط رؤسهم عند أقدامهم(١) ثم أشار الشاه للسفير بالجلوس ثم تناول يده وأجلسه بجواره على الارض ولما لم يستطع السفير الجلوس متربعا على الارض كالايرانيين فقد ضحك الشاه فرفع السفير قبعته احتراما للملك وتحية فأمر الشـاه أن يصبوا له خمرا مذ شرب معه نخب ملك انجلترا وبعد ذلك خلع عمامته عن رأسه لكى يعرب للسفير عن القيام بكامل الترحيب وبعد ساعة من المحادثات مع الشاه خرج السفير من المجلس ٠

ولكن مع كل هذا الترحيب فلا أعلم سبب تغير سلوك الشاه فجـأة تجاهنا اذ لم يحظ السفير بمقابلة الشاه ولم يطلبه لمقابلته حتى عودتنا الى قزوين ولم ير الشاه بعد هذا الى أن توفى ، كما لم يأت أى من رجال البـلاط لزيارة السفير ، وقد عرف فيما بعد أن مندوبى شركة الهند الشرقية غالبـا قد استمالوا محمد على بك بالهدايا والرشاوى وجعلوه عدوا لنا ، وكان هذا الرجل وضيع الاصل ولكنه ظل يترقى حتى أصبح الشخص الوحيد الذى يعتمد عليه الشاه ويرعاه ، وكان يجعل الشاه يقابل كل من يريد هو ويرحب به ويقتل كل شخص يشاء ٠ ولهذا كانت ترسل اليه الهدايا من كل جانب لجلب رضاه حتى أن دخله السنوى بلغ مايقرب من ١٤٠ ألف جنيه استرلينى وهذا لايدعو للعجب ، اذ أن ناظر الخاصة الملكية كان دخله يبلغ أكثر من مائة ألف جنيه استرلينى أيضا ٠

بعد هذا سافر السفير دورمر قطن من أشرف الى قزوين بناء على أمر الشاه ولم يره بعد هذا ، كما أن رجال البلاط والمقربين من الشاه نأوا عنه بل أن المراسم والآداب التى تجرى عادة للسفراء الاجانب لم تجر له ٠ وفى قزوين وصله أمر من الشاه أن يبحث مع محمد على بك الناظر والخازندار مايتصل بمهمته أو يتعلق بها ٠ ولكن محمد على بك لم يرد على أى من طلباته ردا صريحا ففيما يتعلق بالسير روبرت شيرلى قال أن الشاه لم تعد له به رابطة أو علاقة وأن مهمته فى أوربا لم يكن لها أساس صحيح وبعد أن

---

(١) أى أنهم سجدوا للشاه الذى لاندرى كيف سمح لنفسه بهذا وهو الذى كان يدعى أنه من أعقاب الإمام موسى الكاظم وكانت بيده السلطة الدينية الى جانب السلطة الدنيوية (المترجم) ٠

قرأ أوراق اعتماد روبرت شيرلى شكك فيها واخذها من السفير الانجليزى ليعرضها على الشاه ولم يكد الشاه يراها حتى عدها مزورة وألقاها فى النار وهو فى شدة الغضب وأمر أن يخرج روبرت شيرلى من ايران •

وكتب السير توماس هربرت فى كتاب رحلته ان محمد على بك كان يكره روبرت شيرلى منذ مدة ولهذا سعى ضده لدى الشاه وجعل الشاه يغضب عليه بل أنه تسبب فى أن يهمل السفير الانجليزى ولايستقبله بعد ذلك •

حين علم روبرت شيرلى بسلوك الشاه نحوه ورسالته اليه تضايق جدا حتى مرض مرضا شديدا وتوفى فى مدينة قزوين فى ١٣ يوليو ١٦٢٨ (ذى القعدة ١٠٣٧ هـ) وقد احتفظت زوجته « تريزيا » بجثمانه كأمانة حتى تنقله الى أوربا وتدفنه هناك ويقال أنهم دفنوه عند عتبة منزله(١)•

وقد توفى السير دورمر قطن بعد تسعة أيام من وفاة شيرلى فى نفس المدينة ودفن جثته حسب التقاليد المسيحية فى مقابر الارمن هناك •

---

(١) ان المصائب والمتاعب التى تحملتها تريزيا زوجة روبرت شيرلى الحسناء فى حياتها بسبب رحلاته وأسفاره الطويلة والكثيرة لم تنتهى بموت زوجها بل ان جمالها وثروتها الضخمة التى خلفها لها زوجها جرا عليها الكثير من المصائب الاخرى • فقد أثار رجال الدين المسلمون سابقة اسلام تريزيا ثم ارتدادها عن الاسلام عند زواجها من روبرت شيرلى ، وأوغروا صدر الشاه عباس عليها ثم أشاعوا أن الشاه يريد احراقها حية ، بل أن بعض المؤرخين ذكروا أن هذا الامر كان سبب وفاة روبرت شيرلى اذ حين بلغه النبأ اعترته حمى شديدة توفى على أثرها •

وقد طلب الشاه عباس مقابلة تريزيا والمدعين بردتها وسألها عن سبب عداوة هذه الجماعة لها ولكنها لم تقل شيئا حتى لاتغضب الشاه عباس عليهم فكانت شجاعتها وصلابتها دافعا للشاه عباس على طمأنتها ومواساتها وقال لها « أنه من الاسهل على ملك ايران أن يقتل مائة رجل على أن يقتل امرأة واحدة »

مع كل هذا فان بعض رجال البلاط المسئولين استولوا علـى كـل مجوهراتها وأثاثها القيم بحجة أنها مرتدة مما أدى الى مرضها مرضا شديدا فى قزوين التى غادرتها الى اصفهان والتجأت للقسس الكرمليين حتى تحسنت صحتها وفكرت فى ترك ايران مع جثة زوجها التى كانت قد نقلتها معها من قزوين الى اصفهان والاقامة فى احدى الدول المسيحية ، وقد طلب القسس الكرمليون من أمام قلى خان والى فارس الذى كانت تربطهم به صداقة

وعلاقات طيبة أن يمنح تريزيا جواز سفر • وقد وافق الوالى ولكن أحد رجاله طمع فى الزواج من تريزيا ولهذا أخذ فى تدبير المؤامرات واثارة المشاكل لها وكان منها أن طلب من شيخ الاسلام فى اصفهان أن يتحفظ على تريزيا ويحصرها للمسجد لتقر باسلامها وقد اضطرب القسس الكرمليون من هذا الخبر ولجأوا الى أمام قلى خان حتى تقرر فى النهاية أن يعقد اجتماع فى منزل مدير أعمال الوالى الذى كان أيضا من أصدقاء القسس الكرمليين • وقد أنكرت تريزيا فى هذا الاجتماع سابقة اسلامها وأصرت على بقائها على مسيحيتها• ومع وجود اتجاه للتحفظ على تريزيا فى هذا المنزل الا أنه سمح لها فى النهاية بالذهاب مع القسس الى ديرهم •

لم ييأس ذلك الرجل من الزواج من تريزيا ولجأ الى استخدام القوة فقاد جماعة من رجاله وذهب الى دير الآباء الكرمليين ولكن تريزيا كانت قد علمت بمقدمهم فهربت الى دير الأرمن واختبأت هناك ، فلما أنكر الآباء الكرمليون علمهم بمكان تريزيا قامت هذه الجماعة باهانة بعضهم وايذائهم ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة ، وقد حدث هذا دون علم أمام قلى خان والى فارس وبالتالى الشاه عباس الذى لم يكن موجودا فى اصفهان • وقد تمكنت هذه الجماعة من الايقاع باحدى خادمات تريزيا واجبارها على افشاء مكان اختباء تريزيا حيث عثروا عليها وحملوها مقيدة الى منزل قائد الشرطة فى اصفهان وهناك طلبوا منها أن تعلن اسلامها والا القوها فى النار أو من على أحد أبراج المدينة • ولكن تريزيا تمسكت بموقفها ثم صاحت فيهم غاضبة « هل هذا السلوك المذموم جزاء خدمات زوجى العظيمة لشاه ايران، أن ماتفعلونه بعيد عن الرجولة والشهامه ••• » •

وقد شعرت هذه الجماعة بالخجل واضطروا الى نقلها الى منزل الوالى الذى طردهم وسمح لتريزيا بالعودة الى مسكنها • وفى النهاية سمح الوالى فى اوائل سبتمبر سنة ١٦٢٩ (١٠٣٩ هـ) لهذه الزوجة البائسة بالخروج من ايران فسافرت فى ١٨ سبتمبر حاملة جثمان زوجها متوجهة الى أوربا عن طريق حلب واستانبول وكان الشاه عباس قد توفى قبل هذا بثمانية أشهر أثناء وجوده بمصيف أشرف على بحر قزوين •

بقيت تريزيا ٣ سنوات فى العاصمة العثمانية استانبول ، وفى أواخر ديسمبرسنة ١٦٣٤م (رجب ١٠٤٤ هـ) غادرتها متوجهة الى روماوقداستقبلها البابا أوربن الثامن بكثير من الاحترام ومنحها مركزا مرموقا فى جماعة النساء الكرمليين وأسكنها على مقربة من كنيسة ماريا دلا اسكالا على نهر التيبر وقاموا بدفن جثمان زوجها فى الكنيسة وحين توفيت تريزيا سنة ١٦٦٨ م (١٠٧٩ هـ) بعد عمر طويل دفنت الى جوار زوجها •

ومن المعروف أنه عندما كان السير روبرت شيرلى وزوجته تريزيا فى روما سنة ١٦٢٣م (١٠٣٢ هـ) قام فان ديك الرسام الهولندى المشهور الذى كان فى ايطاليا آنذاك برسم صورتين لهما تعدان من روائع أعماله

العلاقات الايرانية الانجليزية
بعد وفـاة الشــاه عبــاس

العلاقات فى عصر الشاه صفى :

لم تكن التجارة بين الانجليز والايرانيين مزدهرة فى أواخر عصر الشاه عباس بسبب منافسة الهولنديين · وفى سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) انخفضت تجارة الشركة الانجليزية فى ايران الى الحد الذى دفع توماس كريدج(١) رئيس المركز التجارى فى اصفهان الى اغلاق فرع الشركة فى تلك المدينة ·



وبعد وفاة الشاه عباس حصلت شركة الشرقية الانجليزية فى عــام ١٠٣٨ هـ على قرار جديد من خليفته الشاه صفى فيما يتعلق بتجارة الحرير ولم يكن يتضمن كل الحقوق والإمتيازات السابقة للشركة · وبناء على هذا القرار الجديد أصبح من حق التجار الانجليز أن يكون لهم مندوب مقيم فى اصفهان كما أصبح لهم الحق فى الاتجــار فى مختلف أنحاء ايران ، وحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وإقامة مراكز تجارية وفروع لهم فى مختلف انحاء ايران ، والفصل فى قضاياهم عن طريق مندوبهم ·

(١) Thomas Kerridge (٢) Conte William Denbigh

ونتيجة لهذا القرار أرسل تشارلز الاول ملك انجلترا ابن عمه الكونت ويليـام دينبيج(٢) وهو من عظماء انجلترا الى بلاط الشاه صفى وذلك فى شعبان ١٠٤٩ هـ (مارس ١٦٣٨ م) ، وكان هذا السفير يحمل رسالة يعرب فيها ملك انجلترا عن سعادته لاستمرار الصداقة بين الدولتين ، كما قـدم الشكر لرعاية الشاه صفى للتجار والرعايا الانجليز فى ايران • وقد استقبل الشاه صفى السفير الانجليزى بكثير من الترحاب وكتب ردا على رسالة تشارلز ننقله فيما يلى :

نظاما للسطنة والشوكة والايالة والحشمة والعظمة والعز والامتنان

تشارلز مـلك الانجلـــيز

(بعد مقـدمة المجاملات) وصل كتابكم المرسل الينا فى أحسن وقت وأدى ماتضمنه من مظاهر الصداقة واتحاد القلوب الى زيادة عناصر المودة وارتفاع درجات الصداقة والوداد • أما التوصية على صاحب العزة زبدة الاعيان الكابتن وليم فان الشفقة الملكية تشمله دائما • وقد قررنا أن ينجز أى عمل أوحاجه تكون له عندنا بمجرد أن يعرضه على وكلاء الديوان العالى والا يقع تقصير تجاه التابعين لسلطانكم وعظمتكم خصوصا الكابتين وليم ورفاقه ورجالهم الذين يترددن على هذه الديار • ومن دواعى الصداقة والالفة أن يتبع نفس هذا السلوك الحميد وتتجدد رياض الالفة والمعرفة بارسال الرسل والرسائل وإذا كان لكم أى عمل أو مهمة فى ناحيتنا فاظهروه وأعلنوه من قبل الاتحاد والتوافق بلا تأخير أو مواربة حتى نقوم بانجازه بدوافع الاتفاق والصـداقة الملـكية •

ثانيا فانى أنهى اليكم أن الحضرة الملكية الخاصة تستوجب أن يكون بها جمع من أرباب الصناعة والاساتذة المهرة فى كل فن ، وفى هذا الوقت فان بعض الاساتذة الحاذقين أحدهم فى صناعة المينا وواحد فى الساعات وآخر قاطع ماس وواحد صائغ ماهر وآخر صانع بنادق وواحد نقاش حاذق وآخر مدفعى تحتاجهم الحضرة ويوجدون الآن لديكم ومن سبل المحبـــة والوحدة أن تأمروا مندوبكم أن يرسلوا هؤلاء الاشخاص ومعهم تلاميذهم وأدواتهم مع ثقات من عندكم حتى يقوموا فى حضرتنا الشريفة بصناعاتهم

وخدماتهم وحتى لايتوقفوا عند شروعهم فى عملهم على العمال والادوات والمهمات • وهذا مما يؤدى الى زيادة دوافع الصداقة ولما كان الغرض هو تشييد مبانى المحبة والوداد وتمهيد قواعد الالفة والاتحاد فلا أطنب عليكم •

جعل الله أيام دولتكم وتوفيقكم مقرونة مع رضا البارى عز اسمه وجعل عاقبة أمركم الى خير مال بتوفيقه اللامتناهى بالخير والسعادة(١)•

يتضح من الرسالة السابقة أن الشاه صفى طلب من ملك انجلترا أن يرسل اليه فى ايران بعض الصناع المهرة فى الميناء والساعات والبنادق وغيرها ويجب أن نشير هنا الى أن الصناع الاجانب زادوا فى ايران زيادة كبيرة منذ عصر الشاه عباس ، وكما ذكر أحد السياح الفرنسيين(٢) فى مذكراته أنهم كانوا أيضا يتقاضون أجور باهظة من الحكومة الايرانية حتى أن مرتبات بعضهم كانت ألفين وخمسمائة جنيه فرنسى غير السكن والمأكل وذكر هذا السائح أيضا أن العمال الاجانب كانوا يعملون للشاه فقط وذكر تافرنيه فى كتابه شخصا اسمه رودلف كان الساعاتى الخاص للشاه صفى لكن فى النهاية أمر الشاه بقتله بسبب قتله لشاب ايرانى •

ومع أن العلاقات الايرانية الانجليزية كانت ودية فى عصر الشاه صفى كما سنذكر فى الفصل الخاص بعلاقات ايران وهولندا • ولكن الجزء الاكبر من تجارة ايران سواء الصادرات أو الواردات تحول الى أيدى التجار الهولنديين فى عصر هذا الملك • وأعفى الهولنديون من أداء الرسوم الجمركية • ولما كان هذا الامر مبعث قلق لمندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية فقد طلبت الشركة من تشارلز الاول أن يرسل رسالة الى شاه ايران يوصى فيها برعاية مصالح الشركة • وقد كتب تشارلز الاول فى الرسالة التى بعث بها الى الشاه صفى فى شوال ١٠٤٤ هـ (٢٧ مارس ١٦٣٥ م) يشكو من أن التجار الانجليز لايتسلمون الحرير فى المواعيد المحددة أو بالكميات اللازمة بالرغم من الاتفاقيات ووعود شاه ايران ولهذا

---

(١) من كتاب علاقات ايران وأوربا للدكتور خانبا بابيانى ويلاحظ ركاكة الاسلوب •

(٢) مذكرات القس سانسون المبشر المسيحى الذى ذهب الى ايران سنة ١٦٨٣ م (١٠٩٤ هـ) •

تلحقهم خسائر جسيمة • وهم يطلبون من شاه ايران أن يرعى مصالحهم وتنفيذ الاوامر التى سبق أن أصدرها فيما يتعلق بتجارة مندوبى شركة الهند الشرقية ويسلموهم مايلزمهم من حرير طبقا للاتفاقيات والمعاهدات السابقة وبالقيمة التى سبق تحديدها من قبل •

وقد ذكر الشاه صفي في رده على هـذه الرسالة أن التجار الانجليز يتاجرون فى ايران بحرية تامة ولا يعوق أحد عملهم ويأمل أن تحسن معاملة التجار الايرانيين فى انجلترا ولايعوق أحد تجارتهم أو بيعهم وشراءهم لما يحتاجون من بضـــــائع •

ومع هذا أخذت دائرة تجارة الهولنديين تتسع فى ايران يوما بعـد يوم وتشتعل نار منافستهم مع الانجليز وتلتهب وسنة ١٠٤٩ هـ (١٦٣٩ م) حصل التجار الانجليز من حاكم بغداد على اذن بتخلية بضائعهم فى ميناء البصرة وذلك حتى يوسعوا مجال تجارتهم فى الخليج وينافسوا الهولنديين فى العراق • ولكن هذا الامر أيضا لم يؤدى الى نتيجة مؤثرة وثبت لهـم أنهم ان أرادوا النجاح فى مساعيهم فعليهم اقامة مركز تجارى ثابت فى البصرة وهذا ما حدث فعلا فى سنة ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣ م) •

عـلاقات أيـران والانجليز فى عصر الشـاه عباس الثانى والشاه سليمان

فى ذلك الوقت جمع الانجليز بعض السفن الحربية فى الخليج منتهزين الخلاف الذى كان قد حدث بين الحكومة الايرانية والهولنديين وهجموا على قلعة قشـم وسواحل الخليج الايرانية وحصلوا على امتيازات جديدة من الشـاه عباس الثانى . وعلى العكس فقد اختل الوضع التجارى لشركة الهنـد الشرقية الانجليزية فى بندر عباس وعندما اضطربت الامو بـين الهولنديين والحكومة الايرانية وخوفا من اندلاع الحرب قام مندوبو شركة الهند الشرقية بنقل أموال مركزهم التجارى من بندر عباس الى البصرة .

ولكن هذه الرسالة لم تؤد الى أية نتيجة . وكما كتب شـاردان فى ايـران أرسلوا بعض السفن الى البصرة وهدموا المركز التجارى الانجليزى هناك ، كما استولوا على مسقط من أيدى البرتغاليين . ولما كانت الحرب قد اندلعت بين الانجليز والهولنديين فى أوربا سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٤ م) بسبب تصويب قانون الملاحة فى البرلمـان الانجليزى ، فقد انقلبت المنافسة التجارية بينهما فى الهند وايران الى نزاع وحرب وهو ماسنفصله فى فصل آخر .

فى هذه الاثناء اغتمت الحكومة الايرانيـة الخـلافات الانجليـزية الهولندية فالغت بعض امتيازاتهم . منها أنها امتنعت عن دفع جزء من دخل جمارك بندر عباس كانت تدفعه للانجليز سنويا . ولهذا اشتكت شركة الهند الشرقية الى ملك انجلترا الذى كان آنذاك تشارلز الثانى . فكتب رسالة الى الشاه سليمان الصفوى فى هذا الشأن مضمون جزء منها هو :

« كتبت الينا شركة الهند الشرقية فى غاية الخضوع أنها منذ خمسين سنة وتقديرا للخدمات الهامة التى قدمتها لصاحب الجلالة الشاه عباس الكبير خاصة مساعدته فى الاستيلاء على قلعة قشم وجزيرة هرمز وبناء على



الشـاه عباس الثانى

عن صورة لاحـد الرسامين المعاصرين له

المـادة الثالثة من الاتفاقية الخاصة فقد تقرر أن يدفع للشركة نصف الرسوم الجمركية على البضائع التى ترد أو تصدر من هرمز الى جانب امتيازات أخرى وتشكو الشركة الآن من أن بعض مسئولى جلالتكم قد حرموهم من بعض حقوقهم منذ بضع سنوات كما أنهم قللوا الرسوم الجمركية التى تدفع للشركة الى حد أنها لم تعد تصل الى ألف تومان » ٠

ثم طلب من الشـاه سليمان أن يأمر مسئوليه لدفع نصيب الشركة من الرسوم الجمركية وتأدية مالم يدفعوه من قبل وأن يحترموا الاتفاقية فى المستقبل أيضا ٠

ولكن هذه الرسالة لم تؤد الى أية نتيجة ٠ وكما كتب شاردان فى مذكراته فان الشيخ على خان زنجنه الوزير الاعظم الذى كان قد تأثر من مجىء السفير الانجليزى الى اصفهان ومن محتويات رسالة تشارنر الثانى قال يوما لمندوب شركة الهند الشرقية الذى يبدو وأنه كان فى ذلك الوقت هو « اتين فلير» يبدو أنك الذى تحرض الانجليز كل يوم على المطالبة بمطالب لامعنى لها وترسل لنـا كل يوم شخصا يضع على كتفه ذراعين من قماش أحمر كسفير جديد ٠ أن الحكومة الايرانية قد دفعت للان أجر الخدمات التى قدمها الانجليز ألف مرة ، ولسنا أول من خالف الاتفاقيات بل أنتم ولهذا فلنا الحق فى أن نعد هذا الاتفاق ملغيـا ٠

كانت قوة الهولنديين ونفوذهم فى الخليج أكثر كثيرا من الانجليز حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، ولكن حدثت فى أوربا أحداث أدت الى ضعف قوتهم فى أواخر هـذا القـرن ٠

فى سنة ١٠٨٣ هـ (١٦٧٢ م) أعلن لويس الرابع عشر ملك فرنسا الحرب على هولندا بسبب تدخلها فى النزاع بين أسبانيا وفرنسا وبعد ٤ سنوات الحق « دوكن(١)» قائد البحرية الفرنسية المشهور هزيمة منكرة بالقوات البحرية الهولندية فى البحر الابيض المتوسط التى كان يقودها رويتر(٢) القائد البحرى الهولندى المعروف ٠ وبعد هـذا تصالحت الحكومة الانجليزية مع هولندا بعد أن كانت تؤيد فرنسا وذلك تحت ضغط الشعب الانجليزى الذى كان يعارض فرنسا ٠ بل وقامت بتأييد هولندا مثل بقية

---

(١) Duqueone (٢) Ruyter

الدول الاوربيه • ومن سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٨ م) حينما ارتقى ويليـــام دى أورانج (١) رئيس حكومة هولند عرش انجلترا اشتركت انجلترا فى اتحاد أكسبورج (٢) ضد فرنسا مثل هولندا أو من ذلك الوقت أصبحت السياسة الهولندية تحت تاثير سياسة انجلترا • وانتهى الخلاف بين هاتين الدولتين•

فى تلك الاوقات تدهور مقام الهولنديين ومركزهم فى آسـيا بسبب الظلم والتعسف الذى أرتكبوه فى الهند وبحر المشرق وعادت التجـــارة الانجليزية الى الازدهار فى القرن الثانى عشر • وفى سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٨م) تركت الحكومة الانجليزيه جزيرة بمباى التى كان البرتغاليون قد غادروها الى شركة الهند الشرقية فى مقابل ايجار زهيد كما سمحت للشركة بتكوين جيش لتنفيذ أهدافها وتولى مسئولية ادارة بمباى بنفسها ولهذا انتقل مركز شركة الهند الشرقية من سورت الى بمباى •

بعد هذا أخذت الشركة رويدا رويدا فى الحصول على ممتلكات لهـــا والاستيلاء على الاراضى وأخذت فى انتهاج سياسة استعمارية فى الهند• وأدى نجاح الشركة الى كراهية شديدة لها ومنافسة من التجار فى انجلترا حتى أن بعضهم كون شركة فى سنة ١١١٠ هـ باسم الشركة العامة لتجارة الهند الشرقية واستطاعوا الحصول على قانون من البرلمان الانجليزى والغـاء امتياز احتكار تجارة المشرق الذى كان قد منح من قبل لشركة الهند الشرقية وأخذت المنافسة تزداد بين هاتين الشركتين والشركات الاخرى التى أخذت تظهر بعد ذلك ، واتضح بعد وقت قصير أن هذه المنافسة كانت ضد أصول التجارة والسياسة الانجليزية • لهذا اتحدت كل الشركات القديمــة وكونت شركة كبيرة باسم « شركة التجار الانجليز لتجارة الهند الشرقية»• ومنذ ذلك الوقت أصبحت شركة الهند الشرقية مؤسسة وطنية عامة • وقام ملك انجلترا بتعيين مديرى الشركة فى مناصب رسمية كسفراء لدى مـــلوك الهند أو كقناصل أو ماشابه هذا وعن هذا الطريق زاد نفوذهم وسلطانهم•

---

(١) William d,orange (٢) Le Ligue d,auxbourg

العلاقات الايرانية الانجليزية فى نهاية العصر الصفوى

بعد وفاة الشاه سليمان خلفه الشاه السلطان حسين وكان يميل الى الانجليز أكثر من ميله للهولنديين حتى أنه ذهب ذات يوم مع مجموعة من نساء حرمه فى اصمهان الى المركز التجارى الانجليزى وخلع على المستر بروس(١) مدير المركز بخلعة من الملابس وسيف مرصع وأمر بدفع نصيب الشركة عن عام من رسوم جمرك بندر عباس ٠ وقد استقبله الانجليز استقبالا حافلا ووضعوا جميع مخازن الشركة تحت تصرفه حتى يعطى منها مايشاء لمرافقيه ٠



٦

فى سنة ١١١٧ هـ أصبح الخليج مسرحا لنشاط القراصنة ، ولما لم يستطع الانجليز القضاء عليهم قلت هيبتهم ونفوذهم فى الخليج ٠

وفى سنة ١١٣١ هـ هجم عرب مسقط على البحرين واستولوا عليها ثم استولوا على بعض الجزر الساحلية الايرانية ومنها جزيرة قشم بتحريض من الدولة العثمانية التى كانت تريد أن تستفيد من اضطراب

---

(١) Brace

الاوضاع الداخلية فى ابران ، وهجوم الافغان عليها • وقد أراد لطف على خـان القائد الايرانى الشجاع وأخو فتح على خان اعتماد الدولة الوزير الاعظم للشاه سلطان حسين التصدى لهم ولكن محمود الافغانى كان قـد هاجم كرمان قادما من قندها رفاضطر لترك العربوأسرع لصد الافغان وبقيت هذه الجزر تحت سيطرة العرب •

وفى سنة ١١٣٤ هـ هجم جماعة من البلوتش على كرمان وفارس وارسلوا فرقة قوامها أربعة آلاف من الفرسان للاستيلاء على بنـدر عباس فتصدت لهم القوات الانجليزية والهولندية وحافظت على مراكزها التجارية هناك من السلب والنهب •

والى هنا ينتهى تاريخ العلاقات الايرانية الانجليزية فى العصر الصفوى وتتلخص علاقاتهم بعد ذلك حتى اوئل العصر القاجارى كما يلى :

أغلقت المراكز التجارية الانجليزية وغيرها فى اصفهان فترة استيلاء الافاغنة على ايران وكان بندر عباس وجزر الجنوب غالبا عرضة لهجوم الافغان وشيوخ العرب • وكان نادر شاه أفشار فى بداية حكمه لايحب الانجليز وكان ينظراليهم بعينالشك والريبة لانه حينأراد مساعدة أمام عمان سيف بن سلطان ثانى والقضاء على ثورة أتباعه بارسال أربعة آلاف من من المشاه وألف وخمسمائة من الفرسان الى عمان امتنع الانجليز عن تقديم سفنهم له لنقل هؤلاء الجند بينما قدم له الهولنديون سفينه واحدة ، ولكنه بعد أن جلس على العرش غير سلوكه تجاههم وأصبح صديقا لهم ولـكنه امتنع عن اعطاء امتيازت جديدة لشركة الهند الشرقية أثناء حكمه واكتفى بتحديد الامتيازات السابقة ودفع الف تومان سنويا من دخل الرسـوم الجمركية لبندر عباس •

بعد مقتل نادر شـاه اضطربت أوضاع ايران مرة أخرى ، واستمر هذا الوضع حتى ظهور كريم خان زند وفى سنة ١١٦٥ هـ أغلق المركز التجارى الانجليزى فى اصفهان ولم يفتح بعد ذلك • وفى سنة ١١٧٣ هـ / ١٧٦٠ م حينما كانت نار الحرب مشتعلة بين انجلترا وفرنسا فى أوربا وصلت الى بندر عباس أربع سفن فرنسية وقصفت المركز التجارى الانجليزى بالمدافع وأضرمت فيه النيران ونهبوا ما كان به ، ولهذا اضطرت شركة الهند الشرقية

الى نقل مركزها التجارى مؤقتا من بندر عباس الى البصرة وذلك حتى عـام ١١٧٧هـ / ١٧٦٤ م وفى ذلك الوقت وافق كريم خان زند على أن تقوم الشركة باقامة مركز لها فى ميناء بوشهر تزاول تجارتها منه · ولكن حوالى سنة ١١٨٣ هـ – ١٧٧٠م اضطربت الاووضاع بين كريم خان والانجليز فأغلقوا مركزهم التجارى فى بوشهر وصار ميناء البصرة هو مركز تجارة شركة الهند الشرقية · وبعد أربع سنوات انتقل المركز الى بوسهر بسبب انتشار وباء الطاعون فى بغداد والبصرة واستقلت مجموعة من موظفى الشركة سفينتين الى ميناء بمباى ولكن كريم خان – الذى كان غاضبا عليهم – أرسل بعض السفن فى طريقهم استطاعت أن تأسر أحدى السفينتين وحملت اثنين من مسئولى الشركة الى شيراز حيث سجنهما لمدة عام ·

بموت كريم خان انتهى عصر سيطرة واستيلاء ايران على الخليج وأخذت قدرة انجلترا تزداد فى البحر ولما كان هذا يخرج عن موضوع الكتاب فاننا لن نتعرض له ·

مصـــادر هــذا الفصـــــل

أهم المصادر التى تناولت تاريخ العلاقات الايرانية الانـجليزية والتى وردت فى هذا الفصل هى :

١ ـ كتاب دون جوان الايرانى ترجمة المستشرق الانـجليزى لسترانـج لنـدن ١٩٢٦ ٠

٢ ـ شرح رحلة الاخوين شيرلى لندن سنة ١٨٢٥ وترجمتها الفارسية ٠
٣ ـ الشـــاه عباس الاول تاليف لوسيان لوى بلان باريس ١٩٣٢ ٠
٤ ـ رحلة كرنليوس دى بروين الفارس والرسام الهولندى فى جزئين٠
٥ ـ رحلة شاردان الفرنسى فى عشر مجلدات طبع روين سنة ١٧٢٣ ٠
٦ ـ ايران والمسألة الايرانية تأليف لورد كيرزن لندن ١٨٩٢ فىجزئين٠
٧ ـ رحلة بيتردلا فاليه الايطالى ٨ أجزاء طبع روين ١٧٣٥ ٠
٨ ـ الخليج الفارسىتأليف سيرآرنولدويلسون اكسفورد سنة ١٩٢٨٠

٩ ـ رحلة بابتيست تافرنيه الفرنسى جزئين باريس سنة ١٦٩٢ وترجمتهالفارسية ٠

١٠ ـ أول رحلة الى روسيا وايران لانتونى جينكس تاليف دلمـار مؤرجان وكوث لندن ١٨٨٥ ٠

١١ ـ تتويج الشاه سليمان تأليف شاردان ـ الترجمة الفارسية ٠
١٢ رحلة دون جارسيا سيلفا فيجورا باريس ١٦٦٩ ٠
١٣ ـ رحلة سير توماس هيدبرت لندن ١٦٧٧
١٤ ـ عالم آراى عباسى تأليف اسكندر بك منشى تركمان ٠

١٥ ـ تاريخ سير جون مالكون السفير الانجليزى لدى بلاط فتح على شـــاه قاجار ٠

١٦ ـ رحلة ماندلسلو الترجمة الفرنسية بواسطة آدم دى ديكفور باريس ١٦٧٩ ٠

١٧ ـ رحلة أوليياروس سفير فردريك دون هلشقاين والذى جاء الى ايران سنة ١٠٤٦هـ (١٦٣٧ م) ٠

١٨ ـ مذكرات بارى عن رحلة أنطونى شيرلى لندن سنة ١٦٠١ م ٠

١٩ ـ تاريخ الرحلات البحرية والبرية تاليف بورشاس جـلاسجو ١٩٠٥ م مجلدات ٠

٢٠ – حالة ايران فى سنة ١٦٦٠ م تاليف « الاب » رافائيل دومانس طبعة شيفر سنة ١٨٩٠ ومقدمته ٠

٢١ ـ قصة السير انطونىشيرلىتأليف السيردينس روسSir D. Roos لنـــــدن ١٩٣٣ م ٠

٢٢ ـ أحسن التواريخ تأليف حسن بك ردملو ٠

٢٣ ـ تاريخ ايران تاليف سايكسSir P.M. Sykes لندن ١٩١٧م٠

٢٤ ـ دائرة المعـارف الفرنسية ٠

٢٥ ـ منتظم ناصرى ج٢ تاليف محمد حسن خان صنيع الدولة ٠

٢٦ ـ « مناظر ايران وما يلفت النظر فيها » تأليف انحريه دوليه ـ دلاند باريس سنة ١٩٧٣ م ٠

٢٧ ـ اقدم العلاقات بين ايران وروسيا تاليف سيد محمد على جمال زاده ملحق مجله كاوة المجموعة الثانية ٠

الفصل الثالث

علاقات ايـران وهولنـدا

علاقات ايران وهولندا

بداية تجارة الهولنديين مع دول المشرق :

قبل أن نتحدث عن تاريخ العلاقات الايرانية الهولندية يحسن أن نذكر نبذة عن تاريخ تجارة الهولنديين مع دول المشرق والهند ٠

كان الهولنديون يتاجرون مع الهند ودول المشرق عن طريق ليشبؤنه عاصمة البرتغال وذلك من منتصف القرن السادس عشر الميلادى لان هولندا فى ذلك الوقت كانت من بين مستعمرات الامبراطورية الاسبانية ٠ ولما كان فيليب الثانى يريد أن يحتكر تجارة المشرق لاسبانيا والبرتغال لهذا كان يحتجز السفن الهولندية فى الغالب ويمنعها من الاتجار مع المستعمرات البرتغالية فى المشرق ولكن الهولنديين الذين يحبون التجارة كثيرا ويريدون مشاركة البرتغاليين فى أرباح التجارة مع الشرق لم يتراجعوا واستطاعوا الاتجار مع الدول الاسيوية عن غير طريق أسبانيا ٠

وفى سنة ٩٩١ هـ (١٥٨٣ م) قام أحد أهالى مدينة هارلم الهولندية اسمه جان هويجن فان لينشوتين(١) بالسفر برفقة أسقف جوا الى الهند وظل بها حتى سنة ١٠٠١هـ (١٥٩٢م) وحصل على معلومات هامة عن المنتجات التجارية وطرق السفن الى الهند ووسائل المنافسة مع التجار البرتغاليين وغير ذلك ، وحينما عاد الى هولندا نشر معلوماته هذه كما كتب كتابا لارشاد البحارة الهولنديين الذين يذهبون للمشرق بين فيه الطريق البحرى بين أوربا والشرق مع الجزر والموانى التى تقع على الطريق وهبوب الرياح الموسمية والتيارات البحرية فى المحيطين الاطلسى والهندى وغير هذا من المعلومات المفيدة كما أضاف للكتاب ببعض الخرائط والجداول ٠

وبعد عودة لينشوتين بقليل قام تجار أمستردام بارسل كورنليس هوتمان(٢) ــ الذى كان قد سافر قبل ذلك عدة مرات على السفن البرتغالية الى الهند ــ الى لبشبونة ليجمع لهم معلومات كافية وكاملة عن تجارة الهند

---

(١) Jan Huyghem Van Iinschoten
(٢) Cornelis Houtman

الشرقية وعاد هوتمان سنة ١٠٠٣ هـ (١٥٩٤ م)من البرتغال الى هولندا وابدى استعداده لقيادة مجموعة من السفن الهولندية يحمل عليها مجموعة من التجار الهولنديين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وقد وافقه تجار أمستردام على هذا وأرسلوا أربع سفن تحت قيادته الى « الناحية الاخرى من رأس الرجاء الصالح » سنة ١٠٠٧ (١٥٩٨ - ١٥٩٩ م) وعاد هوتمان فى العام التالى الى هولندا وكان ثلثا مرافقيه قد هلكوا أثناء الرحلة واحترقت احدى سفنه ولم يقم بعمل كبير فى التجارة سوى عقده لاتفاقية مع ملك بونتام Bontam فى جزيرة جاوة حصل بمقتضاها على حرية السفن الهولندية فى التجارة مع مجموعة جزر الهند الشرقية ٠

بعد هذا أرسل التجار الهولنديون سفنا متتابعة الى الهند وجزر جنوب شرق اسيا من بينها خمس عشرة سفينة عبرت رأس الرجاء الصالح فيما بين ١٠٠٧ ، ١٠١٠ هـ ٠

فى تلك الاثناء تكونت عدة شركات تجارية هولندية واتحدت هذه الشركات سنة ١٥٩٧ م (١٠٠٥ هـ) فى شركة كبيرة واحدة باسم « شركة التجارة مع الدول النائية » وفى سنة ١٦٠٢ (١٠١٠ هـ) وحدت الحكومة الهولندية الشركات المختلفة التى كانت تتاجر مع الهند الشرقية - وكانت تتنافس فيما بينها غالبا - فى شركة كبيرة باسم « شركة الهند الشرقية الهولندية » واعطتها مطلق الحرية فى التجارة لمدة ٢٠ عاما ٠

وقد أخذ الهولنديون منذ عام ١٥٩٩ م (١٠٠٨ هـ) فى منافسة التجاره الانجليزفى العطارة والتوابل وتسببوا لهم فى خسائر فادحة وكان هذا الامر - كما ذكرنا فى الفصول السابقة - سببا فى تاسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية ٠

فى سنة ١٠١١ هـ حطم الهولنديون مجموعة من السفن البرتغالية بالقرب من بونتام وشقوا طريقهم الى جزر ملوك او جزر التوابل وفى العام التالى هددوا ميناء جواء مركز تجارة البرتغاليين فى الهند وفى سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) استولوا على جزيرة جاوة أيضا وجعلوا مدينة باتافيا Batavia (جاكرتا حاليا) عاصمة ومركزا تجاريا لهم ٠ ومنذ سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧ م) أخذوا فى اخراج البرتغاليين من جزيرة سرنديب

(سيلان) وبعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٦٤١ م استولوا منهم علـى شبه جزيرة ملاكا Malaca · وفى سنة (١٠٦٣هـ)(١٦٥٣) سقطت راس الرجاء الصالح التى كانت أهم محطة فى الطريق بين أوربا والهند فى أيديهم · كما سقطت فى نفس هذا العام تقريبا كل المستعمرات البرتغالية فى المشرق فى قبضة الهولنديين ·

بداية تجـارة الهولنديين مع ايـــران :

بعد أن استولت ايران على جزيرة هرمز من أيدى البرتغاليين وجعلت بنـدر عباس مركزا لتجارة الخليج وجـد الهولنديون طريقهم الى بندر تاز وأسسوا هناك مركزا لتجارتهم فى سـنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) وكانت ذريعتهم للقدوم للخليج والاشتراك فى تجارة ايران أنهم أثناء القتـال بين السفن الانجليزية والبرتغالية عاونوا الانجليز ·

ولمـا كان الشاه عباس آنذاك مشغولا فى حرب العثمانيين للاستيلاء على جزء من بلاد بين النهرين والعراق (بغداد) وكان يقاتل حافظ أحمـد باشا القـائد التركى حول هذه المدينة فانه لم يعترض على الهولنديين ·

بعد هذا بقليل قامت شركة الهند الشرقية الهولندية بارسال شخص اسمه هوبرت فيسنيك(١) كسفير الى بلاط أصفهان وطلبت من الشـــاه عباس الذى كان قد عـــاد منتصرا من حرب بغداد أن يشترك التجاره الهولنديون فى تجارة الحرير · وقد استقبل الشـاه عباس هذا السـفير بالترحاب وعقد بين الطرفين اتفاق فى ٢١ نوفمبر ١٦٢٣ م ، (٢٦ محـــرم ١٠٣٣ هـ) فيما يلى بعض أهم مواده :

١ ـ يسمح الشاه الايرانى لكل رعايا هولندا بالسفر فى كل أنحـاء ايران بحرية تامة ولهم حرية شراء أو بيع أى بضاعة ·

٢ ـ يعفى التجار الهولنديون من دفع أية رسوم نقدا فيما عدا رسـوم الطرق ولكن ليس لهم الحق فى استيراد أو تصدير بضاعة تزيد عن الحد·

٣ ـ أموال الهولنديين سواء البضائع أو النقد تخضع لحريتهم فى

---

(١) Hubert Visnich

الدخول والخروج الا البضائع المنوعة ويستطيون السفر مع بضائعهم فى ايـــــران ٠

٤ ـ يسمح للهولنديين باستخدام الاوراق والاوزان المستعملة فى بلادهم فى معاملاتهم التجارية ٠

٥ ـ اذا توفى أحد الرعايا الهولنديين فى أى مكان بايران فان الحكومة الايرانية تتعهد بتسليم أمواله الى أحد مواطنيه فى ذلك المكان أو الى مندوب شركة الهند الشرقية الهولندية ٠

٦ ـ على المسئولين الايرانيين مساعدة التجار الهولنديين فى تهيئـة المسكن والمأكل ووسائل الحمل والنقل وما شابه ذلك ، وتوصيلهم من مدينة الى أخرى اذا اقتضت الضرورة ٠

٧ ـ يعد مركز تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية آمنا من الهجوم أو التعرض له ولا يحق لاى مسئول قضائى الدخول فيه دون اذن وللهولنديين الحق فى الدفاع ومقاومة أى هجوم ٠

٨ ـ يسمح للهولنديين باقامة كنيسة لهم فى ايران ٠

٩ ـ اذا دخل أحـد الرعايا الهولنديين فى الاسلام فان مندوب الشركة يستطيع أن يلقى القبض عليه فى أول فرصة ويستولى على أمواله ٠

١٠ ـ يستطيع التجار الهولنديون تصدير أى سلعة من ايران سـوى الخيل والبضائع التى تمنع الدولة تصديرها ٠

بعد عقد هذا الاتفاق أرسلت الحكومة الهولندية خطاب شكر الى الشاه عباس ، وقام الشاه عباس ـ الذى كان ينظر بعين الحب والرضـــا الى الهولنديين ـ بارسال أحد رجال بلاطه واسمه موسى بك كسفير الى هولندا للعمل على اقامة علاقات الود والصداقة معها ضد حكومتى أسبانيا والبرتغال وحملة برسالة ننقلها فيما يلى :ـ

رب العالمين عــز شــانه

نظام السلطنة والشوكة والنصفة والابهة والاقبال ملك الندبس ٠

الى المجلس العالى والمحفل المتعالى حضرة رفيع المرتبة عالى المنزلة عز السلطنة والشوكة ٠ عظيم الجلالة والانتساب حمى المملكة موطن العـدل الرفيع الجاه والمحبة ، من له المودة شعارا ، حسن الاطوار ، سليل السلاطين العظام ، خلاصة الملوك رفيعى الجاه ، أعظم الولاة شوكة فى الديانة المسيحية أعدل الملوك المتمكنين فى بلاد الفرنجة الملك ذو الجاه عظيم الاداة صاحب الامر فى الممالك فسيحة المسالك ٠٠٠٠

بعد هذا فانه نتيجة لدواعى المحبة وما يقتضيه ما بيننا وبين حضرات السلاطين العظام المسيحيين والملوك رفعى الجاه الفرنجية من روابط الصداقة والوداد وضوابط المصادقة والاتحاد المرعية وبعد أن فتحت أبواب المجىء والذهاب والرسل والرسائل فقد كنا ننتظر أن تراعى هذه الظاهرة من ناحيتكم وتظهر آثار الوحدة والاتحاد ولكن لم يحدث هذا خلال هذه المـدة حسب التقدير الالهى لم يجىء أحد من قبلكم الى ديارنا وفى هذه الاثناء وصل حامل الرسالة المتضمنة أسلوب المحبة واطلعنا على حقيقة حالكم مما أدى الى سرورنا وانبساطنا وغبطتنا ، وقد اطلع مبعوثكم على أطوار بـلادنا وأوضاعها ثم عاد ، ومن واجبات المحبة والصداقة أن ترعى هذا المسلك المرضى على عكس مامضى وأن نفتح أبواب الالفة والمعرفة وأن نقوى قواعـد الصداقة والمحبة عن طريق الرسائل المستمرة المشتملة على المودة والالفـة وألا نسمح بالتنافر والتغير وأن نسمح لمرافقينا ورجال مملكتنا بالقدوم الى هذه المملكة فى غـاية الاطمئنان والامان ٠ ومزاولة الشراء والبيع حسبما يريدن وأن يتصرفوا وفقا لما يشاءون فلن يستطيع أحد فى دولتنا من منعهم ويمكنهم شراء أو بيع متاع أو بضاعة فى هذه البلاد أو شرائها والعودة الى بـلادهم موفقين ٠

ونأمل أن تأمروا لكى تزداد قواعد المحبـة والصداقة ، ولمـا كـان الغرض هو اظهار المحبة والصداقة فاننا لم نطنب ، جعل الله عواقب الامور مقرونة حسب رضـاه بالخير وجعل التوفيق والسداد ـ بتقديره الالهى ـ ممهدا لـكم وسديدا ٠

وقد وصل موسى بك الى مدينة لاهاى فى جمادى الاولى ١٠٣٥ هـ (فبراير ١٦٢٦ م) وقدم رسالة الشـاه عباس وهداياه الى ملك هولنـدا وقدم السفير الايرانى مقترحاته الى الحكومة الهولندية بناء على توجيهات الشـاه عباس وأهمها :

١ ـ تستدعى الحكومة الهولندية كل سفرائها ومندوبيها من الاراضى العثمانية وتفتح أبواب تجارتها مع ايران لان التجار الهولنديين لايتمتعون فى الاراضى العثمانية بالامتيازات والحرية التى يتمتعون بها فى الاراضى الايرانيـة ٠

٢ ـ يعطى شـاه ايران الحرية الكاملة للتجار الهولنديين فى شراء أو بيـع أية بضائع فى ايران ويوصى مأمورية أن يحسنوا معاملة الهولنديين وألا يحصلوا منهم على أية رسوم أو أموال ٠

٣ ـ يتعهد السفير الايرانى بأن ايران حين تسترد جزر هرمز وقشـم وميناء جمبرون من ملك أسبانيا فانها سوف تغلق الطريق التجارى البحرى فى الخليج فى وجه السفن الاسبانية والبرتغالية لصالح الهولنديين أصدقاء ايران وحتى يستطيع التجار الهولنديون مزاولة التجارة فى الخليج بحرية تامـة ٠

٤ ـ لمـا كانت بعض قلاع مسقط ولارك ماتزال فى أيدى البرتغاليين فـان شـاه ايران على استعداد لارسال قواته البرية والبحرية للاستيلاء على هـذه القلاع بمساعدة القوات البحرية الهولندية بشرط أن تقبل الحكومة الهولندية نفس الشروط والقواعد التى قبلتها شركة الهند الشرقية الانجليزية فى مساعدتها للحكومة الايرانية لاسترداد جزيرة هرمز ٠

ولكن الحكومة الهولندية كانت قد حصلت قبل هذا من الشاه عباس على ماتريد من امتيازات طبقا للاتفاقية التى أشرنا اليها وكانت ترى أن حربها مع الحكومة الاسبانية فى الخليج « الفارسى » لن تستفيد منها ، ولهذا لم تعط للسفير الايرانى ردا صريحا أو ايجابيا وعاد الى آسـيا فى جمادى الثانى سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧ م) برفقة جان فيبيرز كوين (١) حاكم مدينة باتافيا حاملا رسالة مجاملة للشـاه عباس ٠

---

(١) Jan Fieberz Coen

وقد وصل موسى بك فى رمضان ١٠٣٨ هـ الى أصفهان برفقة سفير اسمه جان شميث(١) أرسله معه حاكم باتافيا وذلك بعد أربعة أشهر من وفاة الشاه عباس وقدم الرسائل والهدايا التى أرسلها معه حاكم هولندا الى خليفته الشاه صفى ٠

بعد وفاة الشاه عباس انتهز الهولنديون الفرصة وأخذوا فى مقاومة مندوبى شركة الهند الانجليزية عن طريق استمالة المسئولين فى الحكومة الايرانية ورفع أسعار البضائع الايرانية وكان هدفهم هو اخراج الانجليز بأية وسيلة من المراكز التجارية والموانى فى الخليج ٠ ولكن الشاه صفى خليفة الشاه عباس جدد الامتياز الذى كان لشركة الهند الشرقية الانجليزية لتجارة الحرير فى ايران بشروط جديدة تحفظ مصالح ايران بشكل أحسن ٠

تحول جزء هام من تجارة ايران الى أيدى الهولنديين فى زمن الشاه صفى وأعفتهم الحكومة الايرانية من دفع الرسوم والجمارك على الواردات وكانت أهم الحاصلات من الهند وجزر جاوه وسومطرا مثل الفلفل والزعفران ومختلف أنواع العطارة ترد عن طريقهم الى ايران وكانت السفن الهولندية تبحر باستمرار بين ايران والهند بل انهم فى سنة ١٠٥١ هـ (١٦٤١ م) كانوا يبيعون البضائع الاوربية فى ايران بأقل من قيمتها الاصلية وذلك لكى يحتكروا تجارة البضائع الاجنبية فى ايران ٠

هجوم الهولنديين على قلعة قشم :

فى أواخر سنة ١٠٤٦ هـ (أبريل ١٦٣٧ م) وصل الى ايران مندوبون من قبل فردريك دوق هلشتاين(٢) لبدء التجارة مع ايران والحصول على امتياز تصدير الحرير منها وقابلوا الشاه صفى فى اصفهان واستقبلهم ملك ايران بكثير من الترحاب ٠

وقام الهولنديون بمساع لمنع هؤلاء المندوبين من تحقيق هدفهم حتى أن نيكولاس جاكوبس أوفرشل (٣) مندوب الشركة الهولندية ذهب لزيارة الوفد فى نفس يوم وصوله وقال لهم صراحة أن مهمتهم ضد مصالح

---

(١) Jan Smidt

(٢) Frederic duc de Hole Stien

(٣) Nicolas Jacobs Over Schle

ومنافع شركة التجارة الهولندية وأنه سوف يعارضهم بناء على أوامر الشركة. ثم قام برفع قيمة كل حمل من الحرير من ٤٢ تومانا الى ٥٠ تومانا على الفور وبهذا منعوا الشاه من عقد اتفاق مع مندوبى دوق هلشتاين لتجارة الحرير ولكن بعد ان غادر هؤلاء المندوبين ايران خفضوا قيمة الحرير الى ٤٤ تومانا • وقد غضب شاه ايران من هذا التصرف وأصدر أمرا فى سنة ١٠٥١ هـ بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع الهولندية التى كانت معفاة منها حتى ذلك الوقت • وعارض الهولنديون بدورهم وجمعوا قواتهم البحرية فى الخليج •

وفى خريف سنة ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) أى فى السنة الرابعة لجلوس الشـــاه عباس الثانى على العرش ، هاجموا قلعة قشـم • وفى نفس الوقت أرسلوا بعض السفن الى جزيرة هرمز وسواحل الجنوب ليمنعوا التجـــار الهنود وشركة الهند الشرقية الانجليزية من الاتجار مع ايران ولـكن الحرارة الشديدة قضت على بعض ملاحيهم ولم يصلوا الى نتيجة من هذه العمليـــة فاضطروا لمصالحة الشاه وقدموا اليه والى المسئولين الايرانيين بعض التحف والهدايا فاعفيت بضائعهم مرة أخرى من الجمارك على اذن بشراء الحرير بسعر ٤٦ تومانا لكل حمل(١) •

فى الوقت الذى حدث فيه خلاف بين الهولنديين والحكومة الايرانيـــة على سعر الحرير كما ذكرنا ، جاء أحد الامراء العرب ـ وكان قد استرد مسقط من أيدى البرتغاليين ـ الى هرمز واقترح على كارل جونستانت(٢) مندوب

---

(١) يذكر السير أرنولد ويلسون فى كتابة « الخليج الفارسى » هذه الاحداث بصورة أخرى نقلا عن مذكرات «ج • بروس فيقول فى ١٦٤٥ - ١٦٤٦» لجـأ التجار الهولنديون الى القوة لكى يرعبوا الايرانيين ويحصلوا على حق احتكار تجارة ايران وهو ماسبق أن اقترحه مندوبو شركة الهند الشرقية على رؤسائهم مرارا ولم يقبل • فجمعوا سفنا عديدة فى الخليج وهاجموا قلعة قشم فى خريف سنة ١٦٤٥ فارتعد شاه شـــاه ايران من هذا الهجوم وطلب الصـــلح من الـكمودور بلوك Commodore Blook قـــائد السفن الهولندية على أن يمنح الهولنديين امتيازات تجـارية خاصـــة وتوجه بلوك لاصفهان وقابل الشاه وعقد اتفاقية بمقتضاها يشترى الهولنديون أيـــة كمية من الحرير من أى مكان فى ايران ويصدرونها دون دفـع رسوم جمركية، وقد تسبب هذا فى خسارة كبيرة لتجارة الانجليزية وضعف الروابط التجارية التى كانوا قد اقاموها بين ايران والسواحل العربية •

(٢) Karel Gonstant

الشركة الهولندية أن يستعمل سواحل الجزيرة العربية للتجارة مع القطيف والبصرة بدلا من الموانى الايرانية ووعده بتهيئة الجمال اللازمة لحمل البضائع الى مسقط ومن هناك سوف يتعهد لهم أمير مسقط باعداد وسائل النقل . ولكن الهولنديين لم يتقبلوا هذا العرض خوفا من أن يغضب شاه ايران منهم . وتصادف أن الشاه أرسل الى الهولنديين فى نفس ذلك الوقت رسالة ذكر فيها أن رعاياه يمكنهم بسهولة الاستغناء عن التوابل الهندية التى كانت أهم سلعة للهولنديين لان فى ايران بعض الاعشاب افضل من الفلفل والقرنفل الهندى وأشد منها . وقد أدت هذه الرسالة الى قلق الهولنديين واضطرابهم نظرا لأنهم كانوا يبيعون فى ايران أكثر من ثمانمائة طن من التوابل كل عام . وكانوا يستخدمون ثمنها فى شراء الحرير ، ولهذا لم يقبلوا عرض الامير العربى الذى ربما كان سيتسبب فى غضب شاه ايران عليهم .

منافسة التجار الهولنديين والانجليز :

بعد أن تصالح الهولنديون مع الشاه عباس الثانى وأعفيت بضائعهم مرة أخرى من الرسوم الجمركية صمموا على ابعاد سيطرة الانجليز عن سواحل الخليج ، لهذا سارعوا بارسال ثمان سفن حربية الى البصرة وهدموا المركز التجارى الانجليزى فى هذه المدينة . بعد ذلك أيضا قام العرب بتحريض من شركة الهند الشرقية الهولندية ومساعدتها بطرد البرتغاليين من مسقط سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) فاتسعت دائرة نفوذ الهولنديين فى الهند والخليج . وفى نفس العام وصلت الى بندر عباس أحدى عشرة سفينة هولندية حاملة كثيرا من البضائع . وبعد عامين أحضر الهولنديون بضائع الى ايران تصل قيمتها الى حوالى ٢٢٠ ألف جنيه استرلينى فالحقوا خسارة كبيره بالتجارة الانجليزية ومع كل هذا ولانهم كانوا قد طلبوا من الشاه عباس الثانى أن يمنحهم امتيازات الانجليز ولم يقبل فان التجارة الانجليزية نفسها مع ايران قد انخفضت الى حد كبير ولكنها لم تتوقف .

وفى سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) اشتعلت الحرب فى أوربا بين انجلترا وهولندا وكان سببها القانون الذى أصدره كروموبل(١) والمعروف باسم

(١) Cromwell

قانون الملاحة (١) فى ٩ أكتوبر ١٦٥١ م (١٠٦١) وبموجبه لايجوز للسفن الاوربية أن تحمل) الى انجلترا سوى البضائع التى تنتجها الدول التابعة لها تلك السفن وأعطى حمل ونقل البضائع الامريكية والاسيوية الى السفن الانجليزية ٠

وقد رأى الهولنديون أن هذا القانون يضر بمصالحهم التجارية فدخلوا فى حرب مع انجلترا اعتمادا على قوتهم البحرية وبتشجيع من قائديهم البحريين المشهورين ترومب (٢) ورويتر (٣) واستمرت هذه الحرب عامين٠

بعد اعلان هذه الحرب بقليل وصلت بعض السفن الهولندية الى ميناء سورت الهندى ومنه الى الخليج وعرضوا على البرتغاليين أن يتعاونوا معهم ضد شركة الهند الشرقية الانجليزية ٠ ليكفوا يد الانجليز عن بحار آسيا ٠ ولكن لم يقبلوا هذا العرض ٠ واستولى الهولنديون وحدهم على ثلاث سفن انجليزية على مقربة من ميناء جاسك ٠ وفى العام التالى أغرقت خمس سفن هولندية سفينتين انجليزيتين كبيرتين قرب بندر عباس وأسروا ثلاثين انجيزيا ٠

وفى سنة ١٠٦٤ هـ (١٦٥٤م) الحق بليك(٤) القائد الانجليزى هزيمة بالقوات البحرية الهولندية فى أوربا مما اضطر هولندا لطلب الصلح٠ وطبقا للمعاهدة التى عقدت بين الدولتين تحسنت أحوال الانجليز المضطربة فى بحار آسيا الى حد ما ودفعت الحكومة الهولندية ٨٥٠٠٠ جنيه انجليزى غرامة لشركة الهند الشرقية الانجليزية ٠

وفى عصر الملك تشارلز الثانى اشتعلت الحرب مرة ثانية بين الدولتين سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) واستمرت حتى بداية سنة ١٠٧٨ هـ (يونيو ١٦٦٧ م) وانتهت بهزيمة انجلترا ولكن هذه الحرب لم تؤثر بشكل كبير على الاوضاع فى الخليج ٠

فى ذلك الوقت ـ أى سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) ـ أسست شركة فرنسية باسم شركة الهند الشرقية أيضا ، فظهر منافس جديد للهولنديين والانجليز فى تجارة الشرق ٠

---

(١) Acte de ma Navigation

(٢) Tromp (٣) Blake (٤) Rugter

وكان نفوذ هولندا وقدرتها فى الخليج أكبر كثيرا من انجلترا حتى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، ولكن هذا النفوذ والقدرة أخذتا فى الضعف منذ أواخر ذلك القرن بالتدريج للاسباب التى سنذكرها ٠

بعد أن بدا لويس الرابع عشر حكمه الاستبدادى فى فرنسا ، أعلن الحرب على أسبانيا وهولندا لكى يعيد حدود فرنسا الى طبيعتها كما كان يقول ٠ وفى سنة ١٠٨٧ هـ (١٦٧٦ م) الحقت القوات البحرية الفرنسية هزيمة بالقوات الاسبانية والهولندية فى البحر المتوسط وقتل رويتر القائد البحرى الهولندى المشهور ٠ وقد ساعدت انجلترا فرنسا فى بداية هـــذه الحرب وكانت تحارب الهولنديين ، ولكن بعد أن اعتلى ويليام دى اورانج(١) عرش انجلترا اتحدث انجلترا وهولندا وأصبحت حكومة هولندا تابعـــة لحكومة انجلترا ٠ ولما كان الهولنديون قد فقدوا حيثيتهم واعتبارهم فى ايران فى ذلك الوقت بسبب ظلمهم وتعسفهم فقد أخذ نفوذهم يقل رويدا رويدا فى الخليج وسواحل ايران وازدهرت تجارة شركة الهنـد الشرقيـة الانجليزية ٠

سبب نجاح الهولنديين فى تجـارة الشرق :

يرجع السبب فى نجاح تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية فى الهند وايران الى أن للحكومة الهولندية كانت تتدخل فى شئون تلك الشركة ولم تكن تتوانى عن أية مساعدة أوعون ، كما أن الهولنديين عندما دخلوا ميدان تجارة الشرق أخذوا فى جمع المعلومات الدقيقة عن تجارة الدول الشرقيـة ودفع الوطنيون الهولنديون فى جميع أنحاء البلاد مبالغ كبيرة لانجاح اهداف الشركة ٠ واعتزمت شركة الهند الشرقية الهولندية الاستيلاء على للجـــزر المنتجة للتوابل وابعاد أى اناس أخرين عنها ، بينما لم يكن للتجـــار الانجليز أو البرتغاليين الذين يعملون فى تجارة الشرق أمل كبير فى حماية دولهم لهم وكانت مؤسساتهم التجارية فى الشرق دون حـــام أو حافظ ، كما أن الانجليز خصصوا مبالغ قليلة لتجارة الشرق ، وكانوا يستخدمونها فى مختلف الاغراض ، كما أن الدولة لم تكن تساعدهم وكانت شركة الهنـد الشرقية الانجليزية شركة خاصة أو شخصية بعكس الشركة الهولندية

(١) William d' Orange

التى كنت شركة وطنية ، ولهذا كان النصر حليف الشركة الهولندية فى المنازعات أو المنافسة التى كانت تحدث بين الشركتين فى آسيا ، ولكن عندما غيرت الشركة الانجليزية سياستها فى الشرق ـ كما سبق أن ذكرنا فى مصل العلاقات الايرانية الانجلزية ـ وقامت الحكومة الانجليزية بحمايتها وتقويتها فان دائرة نفوذ الشركة فى الشرق أخـــذت فى الاتساع وأخذت تقضى على منافسيها بالتدريج ٠

ازدهرت التجارة الهولندية كثيرا فى عهد الشاه عباس الثانى ، وكان حجم تعاملهم التجارى أضعاف حجم التعامل الانجليـزى أو الاســـبانى والبرتغالى . وكانت البضائع التى يجلبها الهولنديون الى ايران أغلبهـــا من المصنوعات الاوربية المختلفة وأكثرها من الحاصلات الهندية وكانت أهم المصنوعات الاوربية هى الجوخ الهولندى بألوانه المختلفة والحاصـــلات الهندية مثل التوابل المختلفة والسكر والنيلة والاخشاب الثمينة والعطور والفضة والرصاص والنحاس والمنسوجات الصوفية وماشابه هــــذا ٠ ولم تكن الشركة الهولندية تدفع أية رسوم جمركية على واردتها فى ايران ، ولكنها كانت مضطرة لشراء ستمائة حمل حرير على الاقل كل عام بالثمن الذى تحدده الحكومة الايرانية ولهذا لم يكن الهولنديون يربحون كثيرا من الصادرات الايرانية وكانت أكثر أرباحهم من وارداتهم الى ايران ، وبالاضافة الى الحرير كانوا يشترون (القطيفة) المخمل والاقمشة الصوفية والسجاد وخاصة الفاكهة والخمور أيضا ، وأحيانا كانوا يصدرون الى أوربا الخزف الايرانى الذى يصنع فى مشهد وكرمان وكان فى حسنه يشبه الخزف اليابانى والصينى ، وكانوا يستعيضون به عن الخزف الصينى واليابانى ، وكان تعاملهم يتم بالريال الايرانى غالبا بالقرش الاسبانى ٠

وقد استمر الهولنديون مدة يحملون المرمر والاحجار الممتازة الاخرى من هرمز وبندر عباس الى الهند وجاوه ويستخدمونها فى بناء مراكزهم التجارية هناك وذلك بدلا من عودة سفنهم خالية ٠ ولكن حين اعترضت الحكومة الايرانية على هذا لجأوا الى تجارة الملح وحملوه على سفنهم حتى الصين واليابان ٠

وكان الهولنديون فى تجارتهم يلجاون للحيلة والمكر كثيرا ولم يتورعوا عن الكذب والخداع للقضاء على منافسيهم أو تحقيق مصالحهم وكان التجار

الايرانيون يشتكون من حيلهم التجارية ومن كان منهم يتعامل مع الهولنديين غالبا ما كان أمره ينتهى الى الافلاس وكان معروفا بين التجار الايرانيين أنه يمكن التعامل مع كل الفرنج الا الهولنديين الذين يخدعون كل الناس ومن المحال خداعهم ٠

وقد استمر احتكار الهولنديين لواردات ايران من أوربا والهند مدة طويلة وكانوا يضيقون على منافسيهم ببيعهم لبضائعهم بأسعار رخيصة ٠ ولم يكن للتجار الايرانيين قدرة على مخالفتهم لانهم اذا لم يقبلوا شراء البضائع الهولندية فى بندر عباس بالثمن الذى يطلبونه فان مندوب الشركة كان يحمل هذه البضائع الى داخل ايران ومدنها الرئيسية ويبيعها بأسعار أقل من السوق كثيرا ٠ ولما كان التجار يحتفظون فى مخازنهم بكميات كبيرة من هذه البضائع فانهم كانوا يصابون بخسائر فادحة ٠ ولهذا كانوا يضطرون للخضوع لمندوبى الشركة الهولندية ٠

ولما كان الهولنديون يبذلون جهدهم لاسترضاء الشاه للحفاظ على مصالحهم التجارية والسياسية ، وكانوا يتقربون اليه باستمرار عن طريق تقديم الهدايا والتحف(١) والقيام بالمهام المختلفة وحتى خديعة رجال البلاط والمقربين من الشاه من هذا أنه كان يحب الرسم كثيرا فاختار مندوب الشركة الهولندية فى اصفهان اثنين من الرسامين الهولنديين أحدهما اسمه انجيل والآخر لوكار لكى يعلماه الرسم وعلى أيديهما مهر فى الرسم حتى أنه توجد اليوم بعض لوحات جميلة لهذا الشاه ٠

كذلك كانوا يظهرون من العواطف والتعلق بالشاه مايجعله يرضى عليهم ويميل اليهم مثال هذا أنه حينما كان يصل الى العاصمة كانوا يسبقون الآخرين لكى يكونوا فى استقباله ويزينوا مركزهم التجارى بالانوار، ويستمرون بضع ليالى يطلقون الالعاب النارية(٢)٠

---

(١) جرت العادة منذ أيام الشاه عباس على أن يقدم التجار الانجليز والهولنديون كل سنة بعد انتهائهم من تجارتهم فى هرمز وعودتهم الى اصفهان هدايا الى الشاه ٠ وكانت غالبا من الاشياء النفيسة كالساعات الثمينة والمنسوجات الموشاة وبعض تحف الهند والنقود الذهبية وما شابه ذلك ٠

(٢) جلس الشاه عباس الثانى بن صفى على العرش فى قزوين فى أواخر سنة ١٦٤٢ م (١٠٥٢ هـ) وذهب الى اصفهان فى العام التالى ٠ وفى يوم

مراكز شركة الهند الهولندية فى ايـــران :

كان لشركة الهند الشرقية الهولندية مندوبون خاصون فى بندر عباس ولار واصفهان وكان مركز مندوبهم فى اصفهان يقع قرب ميدان الشاه وفى عمارة كبيرة جميلة له حديقة واسعة بها أشجار فاكهة وقنوات وأحواض جميلة. وكان باب هذه العمارة كبيرا جدا وعاليا ، ويشاهد فوقه اللوحة الخاصة بشركة الهند الشرقية الهولندية . وكانت هذه العمارة ملكا لاحد أعيـــان اصفهان فى عهد الشاه عباس الاول كان اسمه على ميرزا بك ولكن الشاه غضب عليه لسبب ما فقتله بيده واستولى على كل ممتلكاته وأعطى عمارته هذه لوكالة شركة الهند الشرقية الهولندية التى كانت قد أرسلت آنذاك شخصا اسمه فيسنيك كأول مندوب لها للحصول على اذن من الشاه لبدء التجارة مع ايران . وكان المندوب الهولندى يريد شراء هذا المنزل له شخصيا ولكن الشاه عباس لم يقبل لانه كان يعد المندوبين الاجانب ضيوفه الاعزاء ويجب عليهم أن يقيموا فى منازل حكومية . وبعد موت الشاه عباس أغرى ويسنيك المندوب الهولندى أحد أغوات قصر الشاه صفى واسمه يوسف لكى يطلب اذن بيع هذه العمارة من الشاه . وقام أغا يوسف بالمهمة ووفق فى الحصول على اذن بيع المنزل لمندوب شركة الهند الشرقية الهولندية الـذى اشتراه لنفسه وظل مدة طويلة يحصل على ايجاره من الشركة .

بعد مدة أرسلت الشركة شخصا فى مهمة سرية لكى يفتش على ويسنيك نظرا لتبذيره واسرافه واضاعته لكثير من أموال الشركة ويقبض عليه ويرسله للهند . ولكن ويسنيك علم بأمر هذا الشخص وقبل أن يصل الى اصفهان

وصوله ابلغ اعتماد الدولة الصدر الاعظم الايرانى كل المسئولين الاجانب وخاصة التجار الانجليز والاجانب لكى يشتركوا فى الاستقبال فلما ابتعدوا عن المدينة نحو ٣ فراسخ (١٨ كم) كان الشاه مشغولا بصيد البط البحرى وحين راهم جانى خان قائد فرسان الشاه أشار اليهم كى يتبعوه ليقدمهم للشاه . وكان الشاه على حافة بركة يصطاد البط فاقترب منه جانى خان وقال له أن الفرنجة الهولنديين جاءوا للتهنئة بسلامة الوصول فنزلنا عن خيلنا على الفور وتقدم نيكولاس أوبرخيت N.O brechit رئيس الشركة الهولندية وقبل قدم الشاه التى كان قد أخرجها من ركاب فرسه مخصوصا لهذا الغرض. وفى اليوم التالى لوصوله زين رئيس الشركة الهولندية أحد خانات المدينة بالسجاد الثمين وأقام حفلا فى العصر وأطلق بعض طلقات المدافع احتفاء بالشاه وأنفق فى هذا السبيل ما يقرب من ثمانمائة أو تسعمائة تومان ، وقد شرف الشاه حفلة بحضوره شخصيا .

غادرها ويسنيك وهرب للاراضى العثمانية وعثروا بين أوراقه على سند ملكية هذه العمارة التى انتقلت ملكيتها الى شركة الهند الشرقية الهولندية ·

وبعد هذا قام خلفاء ويسنيك ببيع نحو نصف هذه العمارة الى شيخ الاسـلام شقيق محمد مهدى الوزير الاعظم للشاه عباس الثانى ، ولكنهم ندموا بعد هذا على البيع ·

وقد اضطر الهولنديون الى انشاء مركز تجارى لهم فى لار أيضا لانه أثناء حمل الحرير من اصفهان الى بندر عباس وهرمز كان لابد من تغيير الجمال الحاملة للحرير ، وبناء على قوانين ايران آنذاك فان الجمال المتوجهة من اصفهان الى الجنوب كان لايجب أن تتعدى مدينة لار بالاضافة الى هذا فان جمال ودواب اصفهان والمناطق الوسطى من ايران التى اعتادت على الجو المعتدل لاتتحمل هواء الجنوب الحار وتموت · وكان المركز التجارى الهولندى فى لار يقع على اطراف المدينة وعلى طريق هرمز ·

وكان المركز التجارى الهولندى فى جمبرون أو بندر عباس يقع غربى الميناء وبجوار المركز التجارى لشركة الهند الشرقية الانجليزية وعلى مقربة من المركز التجارى الفرنسى · وفى سنة ١٦٩٨ م (١١٠٩ ـ ١١١٠ هـ) قـام أحد مندوبى الشركة واسمه هوجكامر(١) ببناء عمارة جديدة ومخازن كبير للشركة تقع على شاطىء البحر عند نهاية شرق الميناء ·

---

(١) Hoogkamer

ختم الشـــــاه سـليمان الصفوى

وضع هذا الختم على ظهر رسالة منه الى يوبولد أمبرطور النمسا فى وسطة عبد الولاية الشاه سليمان وحولها اللهم صلى على محمد المصطفى وعلى فاطمة الزهراء وعلى المرتضى وعلى الحسن والحسين وعلى زين العباد وعلى محمد الباقر وعلى جعفر الصادق وعلى موسى الكاظم وعلى على الرضا وعلى محمد النقى وعلى حسن العسكرى وعلى الحجة المهدى صاحب الزمان ٠



علاقات ايران وشركة الهند الشرقية الهولنديه
فى زمن الشـــاه سـليمان الصفوى

فى أواخر عصر الشاه عباس الثانى قامت شركة الهنـــد الشرقيـــة الهولندية بارسال سفير ومندوب فوق العادة اسمه هوبر دى لورس الى الشاه عباس مع بعض الهدايا لتقوية العلاقات التجارية وحصل على الامتيازات التى كان يريدها منه ٠

وماكاد الشاه عباس الثانى يتوفى فى خسرو اباد من توابع دامغان ويصل خبر وفاته الى اصفهان التى كان بها هذا السفير والذى كان قد عين لرئاسة المركز التجارى الهولندى فى بندر عباس حتى أراد أن يصل بأسرع مايمكن الى هذا الميـنـــــاء ٠

ولكن وفاة الشاه عباس وتغيير الاوضاع فى ايران حالت دون سفره لأن العـــادة فى ايران كانت اذا مات الشـــاه تلغى جميع الامتيازات والاتفاقيات مؤقتا حتى يعـــاد توقيعها من الشاه الجديد ولهذا خشى السفير الهولندى ألا يصدق الشاه الجديد على الاحكام والامتيازات التى تعب فى الحصـــول عليها من سلفه ، ولكن لانه كان ذكيا وذا تجربة استطاع أن يسترضى أحد رجال البلاط المقربين من الشاه الجديد عن طريق تقديم هدية له حتى يأخذ له اذنا بالتشرف بمقابلته ٠ ولهذا استطاع بسهولة أن يرى الشاه الجديد الذى كان يلقب آنذاك بالشاه صفى الثانى وأن يحصل على توقيعه على أحكام وامتيازات الشاه المتوفى واستأذنه فى السفر الى بندر عباس ٠

وفى عصر الشاه سليمان أخذت تجارة الهولنديين فى ايران تقل بالتدريج حتى أنهم كانوا يشترون ثلثمائة بالة من الحرير فى العام فقط ٠ أى نصف ماكانوا يشترونه فى أيام الشاه عباس الثانى ٠ ولما كان ميزان وارداتهم قد انخفض أيضا بسبب الحروب التى كانوا يخوضونها فى أوربا ، كما أن رونق تجارة منافسيهم الانجليز والفرنسيين كانت قد ازدهرت ، لهذا فان الارباح التى كانوا يجنونها من تجارتهم مع ايران أصبحت لاتذكر ٠

وكان التجار الهولنديون يشتكون دائما من أن أتباع الشاه يعطونهم

مافى مخازنه من الحرير السىء الذى لايباع ولكن المسئولين الايرانيين لم يهتموا بهذه الشكوى ولهذا حاولوا سنة ١٠٩٧ هـ (١٦٨٦م) اللجوء الى القوة مرة أخرى وتخويف الحكومة الايرانية فأرسلوا بعض السفن الى الخليج وضربوا ميناء بندر عباس بالمدفعية واستولوا على جزيرة قشم ، ولما كانت ايران لاتستطيع مجاراتهم فى قوتهم البحرية لذا لجأت الى السياسة فاعطتهم وعودا طيبة · ولكى تظهر حسن نيتها اقترحت ارسال مندوب خاص الى اصفهان وخدع الهولنديون وسارعوا بارسال شخص اسمه فان هيفل(١) مع كثير من المرافقين الى اصفهان وقد بقى هذا الشخص ثلاث سنوات فى أصفهان لم يسأله خلالها أحد لماذا جئت فاضطر فى النهاية الى اعادة جزيرة قشم الى ايران لان الحفاظ عليها كان يكلف الشركة نفقات كبيرة كما أنفق مبلغا كبيرا حتى حصل على اذن بالعوده ويوم منحه الشاه اذن العودة قال « لم يكن من اللائق لقوم من التجار أن يطلبوا من ملك تحت هدير المدافع» ·

وبعد عام أيضا أى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) أرسل الهولنديون مندوبا فوق العادة اسمه لينين(٢) مع كثير من التحف والهدايا الى بلاط الشاه سليمان جدد شكواهم ومطالبهم كما طلبوا من الشاه أن يمنحهم تخفيضا فى ثمن التحرير · وعندما استقبل الشاه السفير الهولندى وعده بتخفيض قدره ٣٠ أكو فى كل بالة حرير ، ولكنه لم يعطه أى سند فى يده ، ولهذا فعندما عاد السفير الى مدينة لارهدد بأنه سوف يقلب بسفنه موانى الجنوب رأسا على عقب ، ولكنهم فى البلاط الايرانى كانوا يعرفون أن هذا التهديد لن يكون له معنى مع وجود السفن الانجليزية والفرنسية فى الخليج ·

ويبدو أن حركة تصدير الحرير الايرانى فى عهد الشاه سليمان لم تكن مزدهرة كما كانت من قبل لانه بالاضافة الى أن الهولنديين قللوا من تصديره فان الحكومة الجوركانية فى الهند أيضا منعت وروده الى الهند كما أنه لم يكن رائجا فى البلاد العثمانية · وفى ذلك الوقت كان محصول الحرير الايرانى ينسج أغلبه فى مصانع أصفهان وكاشان وتبريز ومشهد ويستهلك داخليا (٣) ·

---

(١) Van Heuvle　　(٢) Van Leenen

(٣) كان أغلب حرير ايران ينتج آنذاك فى أقاليم جرستان (جورجيا) وخراسان وكرمان وخاصة فى جيلان ومازندران وجرجان =

علاقات ايران مع شركة الهنـد الشرقية الهولندية
فى عصر الشـاه السلطان حسـين

كما ذكرنا أخذت قدرة ونفوذ الهولنديين تزول تدريجيا فى الخليج وتقل تجارتهم مع ايران • وبعد موت الشاه سليمان أظهر خليفته الشاه السلطان حسين ميله للانجليز • وذات يوم من سنتى ١١١٠ أو ١١١١ هـ ذهب مع جماعة من نساء حرمه الى المركز التجارى الانجليزى فى اصفهـان فانفق المسئولون عن الشركة نحـو ١٢ ألف جنيه لاستقباله ولهذا منح الشـاه لرئيس المركز خلعة من الملابس وحصانا وسيفا مرصعا كما أمر بدفع الرسوم الجمركية المستحقة لهم عن عام من ايراد بندر عباس والتى كان قد تأخر دفعها ، كما منح مندوبى الشركة امتيازات مهمة أخرى ، ولكنه رفض الذهاب الى المركز التجارى الهولندى عندما دعاه رئيسه لزيارته أيضا•

منذ ذلك الوقت أخزت حيثية الهولنديين واعتبارهم فى ايران فى الزوال، حتى أنهم عندما طلبوا بعد هذا بقليل بناء قلعة لهم فى بندر عباس للحفاظ على مصالحهم فان الحكومة الايرانية لم تسمح لهم ومنعتهم •

وفى سنة ١١٣٤ هـ عندما كانت ايران تتعرض لهجوم الافغان هجم جماعة من البلوتش على كرمان واقليـم فارس واستولوا على مدينة لار

=

وكان محصول هذه الولايات سنويا نحو ٢٢ الف بالة وكانت البالة تزن ٢٧٦ ليفر فرنسى (الليفر ٤٩٠ جم تقريبا) وعلى هـذا كان انتاج ايران من الحرير نحو ثلاثة الاف طن • وكان هذا الحرير ينقسم الى أربعة أنواع ، الاول الحرير الشيروانى الذى كان يأتى من شيروان ويسمى باسمها وهو أردا أنواع الحرير الايرانى وكانوا يسمونه فى اوربا « ارداش» والنوع الثانى الحرير الخروارى وهو أفضل قليلا من الاول وكان أكثره ينتج من جيلان ولاهيجان ولهذا كانوا يسمؤنه فى أؤربا حرير ليجيا Legia والثالث اسمه كدخدا بسند وهذا الاصطلاح يطلق على الاشياء المتوسطة والرابع وهو الشاه بسند وهو أحسنها •

وكانت جيلان تنتج عشرة آلاف بالة من بين الاثنتين والعشرين الفا السابق ذكرها وتنتج مازندران وجرجان الفين وتنتج من اذربيجان والمناطق الغربية ستة آلاف وقراباغ وجورجيا أربعة آلاف بالة •

وأرسلوا أربعة الاف من فرسانهم للاستيلاء على بندر عباس ، ولهـــذا اضطر الهولنديون والانجليز لتقوية دفاعات مراكزهم التجارية ونصبوا المدافع على اطراف عماراتهم ، وعندما هجم البلوتش فى ٢٥ صفر على الميناء ابعدوهم عن مراكزهم التجارية باطلاق المدافع عليهم ، ولكن أحد مخازن المركز التجارى الهولندى نهب وسقط مايقرب ثمنه من ٢٠ ألف جنيه من البضائع فى أيدى المهاجمين . كما قتل اثنى عشر هولنديا وجرح نحو ١٠ أشخاص .

الى هنا تنتهى العلاقات الهولندية مع ايران فى العصر الصفوى ، أما علاقاتهم فى العصور التالية فيمكن ايجازها فيما يلى :

فى زمن استيلاء الافغان على ايران (١١٣٥ هـ ـ ١١٤٢ هـ) أغلقت المراكز التجارية الانجليزية والهولندية والفرنسية وغيرها فى اصـــفهان واضطربت أحوال ميناء بندر عباس وما حوله . فمن ناحية استولى شيخ رأس الخيمة على ميناء باسعيدو فى جزيرة قشم وتسبب فى كساد تجارة بندر عباس الى أن قامت السفن الانجليزية بحربه سنة ١١٤٠ هـ وانتصرت عليه . ومن ناحية أخرى هجم الافغان سنة ١١٤١ هـ على أقليم فـارس مرة أخرى واستولوا على عاصمته شيراز وأرسل قائدهم المدعو ربردست خان جيشا الى بندر عباس ولكن الاوربيين قاوموهم فاكتفى الافغان بأخذ بعض المون والعودة . وفى هذا الوقت استولى الهولنديون على جزيرة هرمز ولكنهم تخلوا عنها بعد ذلك بسبب معارضة الانجليز .

أسس الهولنديون مركزا تجاريا فى ميناء بوشهر فى عهد نادر شاه أفشار ولكنهم أغلقوه بعد بضع سنين ثم أعادوا فتحه سنة ١١٦٠ هـ . وكانوا قبل هذا قد أنشأوا فرعا لهم فى البصرة وكانوا يجلبون التجارة عن طريق البر والبحر وخاصة المنسوجات الصوفية التى كانوا يجلبونها عن طريق حلب ووجدت شهرة كبيرة .

وفى سنة ١١٦٥ هـ أغلق الهولنديون مركزهم التجارى فى بوشهر مرة أخرى ، وكانوا قد أغلقوا مركزهم التجارى فى بندر عباس قبل هذا بقليل لاضطراب الامن هناك وفى سنة ١١٦٦ هـ (١٧٥٣ م) استولى البارون

نيبهاوزن(١) رئيس المركز التجارى الهولندى فى البصرة على جزيرة خرج الواقعة فى الشمال الغربى لبوشهر وصمم على تقوية استحكامات هــذه الجزيرة لتهديد البصرة ومدخل شط العرب ٠

وكان الهولنديون المقيمون فى البصرة قد اشتكوا الى رؤساء الشركة فى هولندا من سو سلوك البارون نيبهاوزن وسياسته فوصل أمر فصله ولكن البارون فى ذلك الوقت كان قد أخذ من الامير ناصر حاكم بندر بوشهر سندا بانتقال ملكية جزيرة خرج الى الشركة الهولندية ، وقام برحلة الى باتافيا عاصمة الهند الشرقية الهولندية حيث أثبت هناك عدم خطئه أو تقصيره وعاد من هناك مع سفينتين وخمسين من الجنود الى الخليج الفارسى واستولى بسهولة على جزيرة خرج وجلب اليها كثيرا من العمال من ايران والجزيرة العربية لتعميرها وأخذ فى تعمير القلعة وصيد اللؤلؤ فارتفع عدد سكان الجزيرة الذى لم يكن يتجاوز مائتين أو ثلثمائة فرد الى أكثر من اثنى عشر ألفا فى فترة وجيزة ٠

فى هذه الاوقات قام الامير مهنا حاكم ميناء ويجى الذى كان آباؤه يتوارثون حكم مناطق هذا الميناء بثورة ضد كريم خان زند وكان هو الذى نصبه هناك ، كما أنه كان قد اختلف مع الهولنديين على دفع ايجار جزيرة خرج واستمر هذا الخلاف بضع سنين ٠

وفى سنة ١١٦٦ هـ أغلق المركز التجارى الهولندى فى البصرة ، وبعــد سنوات أخرى خرج الهولنديون من بوشهر وبندر عباس وبقيت جزيرة خرج فقط فى أيديهم حتى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ٠

وقد تولى شخص أسمه فان ديرهولست الامر بعد البارون نيبهاوزن واستطاع بالسياسة وحسن التدبير أن يمنع الامير مهنا عن معارضــــة الهولنديين ، ولكن فى سنة ١١٧٩ هـ اختلف الامير مهنا معهم مرة أخرى ٠ وفى العام التالى حاصر القلعة الهولندية فى الجزيرة وبعد أن استولى عليها نهب كل مابها من الاموال ووضع الهولنديين فى بعض السفن وأرسلهم الى باتافيا (جاكرتا) ٠ وبفقد الهولنديين لجزيرة خرج انتهى عهد ســيطرة الهولنديين ونفوذهم فى الخليج ٠

---

(١) Baron Kniphausen

مراجـــع هـــذا الفصـل

١ ـ رحلة بيترو دلا فاليه الايطالى ، فى ٨ أجزاء ٠

٢ ـ الخليج الفارسى تأليف السير آرنولد وبلسون طبع اكسفورد سنة ١٩٢٨ وترجمته الفارسية لمحمد سعيدى ٠

٣ ـ رحـلة شاردان فى ١٠ أجزاء طبع سنة ١٧٢٣ م ٠

٤ ـ رحلة جان بابتيست تافارنيه فى جزئين ط باريس سنة ١٦٩٢ م

٥ ـ وضع ايران تأليف سانسون المبشر المسيحى الذى زار ايـــران سنة ١٦٨٣ ٠

٦ ـ تتويج الشاه سليمان تأليف شاردان ٠

٧ ـ رحلة كورنليوس دى بروين الرسام الهولندى الذى سافر فى بين سنتى ١٠٧٣ ـ ١٠٧٧ هـ الى ايران وآسيا ٠ مجلدين ط امستردام سنة ١٧١٨ م ٠

٨ ـ مقدمة شارل شيفر على كتاب « وضع ايـــران فى ١٦٦٠ م تأليف رفاييل دومان ٠

٩ ـ رحلة أولياريوس Aulearius سفير فردريك دوق هلشتناين الذى زار ايران سنة ١٠٤٦ هـ (١٦٣٧ م) ٠ ترجمة ابراهام دى ويكفور الفرنسى A. de Wicque Fort امستردام سنة ١٧٢٧ م ٠

١٠ ـ الشاه عباس الاول تأليف لوسيان بلان ، باريس ١٩٣٢ م ٠

١١ ـ رحلة دون جارسيا دى سيلفا فيجورا ، باريس ١٦٦٩ م٠

١٢ ـ عالم آراى عباسى ٠

١٣ ـ عـــلاقات ايران واوربا الغربية فى العصر الصفوى ، تأليف الدكتور خان بابا بيانى بالفرنسية ـ باريس ١٩٣٧ م ٠

الفصل الرابع

علاقات ايران والمانيا

العلاقات الالمانية الايرانيـة

علاقات ايـران والمانيا فى عصر الشاه اسماعيل الاول :

بعد أن جلس اسماعيل الاول على العرش وأسس دولة قوية فى شرق الاراضى العثمانية ، دخل فى حرب مع السلطان سليم خان الاول من سنة ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ ولهذا أخذ ملوك أوربا ـ الذين كانوا فى ذعر واضطراب من قوة الاتراك العثمانيين وزحفهم على أوربا ـ فى مصادقة للشاه اسماعيل والاتحاد معه · وسعى الشاه اسماعيل أيضا ـ بعد هزيمته فى موقعة تشالدران (أول رجب ٩٢٠ هـ / ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م) للاتحاد مع دول أوربا وخاصة مع المجر والمانيا وجمهورية البندقية الذين كانوا يجاورون تركيا من ناحية الغرب ويتعرضون لحملاتها وهجومها حتى يستطيع بهذا أن يهجم من الناحيتين على العدو المشترك ويقضى عليه ·

ومن بين الرسائل التى أرسلها الشاه اسماعيل الصفوى الى ملوك أوربا رسالة كتبها فى شوال ٩٢٩ هـ باللغة اللاتينية الى كارل(١) للخامس (المعروف بشارل كنت)(٢) وأرسلها مع الاخ بطرس الجبـل لبنـانى الذى(٣) كان قد جاء من قبل ملك المجر الى بلاط ايران ونص هذه الرسالة مطبوع فى مجموعة عنوانها : « رسائل كارل الخامس » وترجمتها الفارسية:

« الى كارل بن بطرس

اذا وصلت هذه الرسالة بمشيئة الله اليك فستعلم أن الاخ بطرس الذى جاء الينا برسالة من ملك المجر قرأناها بالسرور نحمله الان بهـذه الرسالة ونأمل أن يسعدك وصولها ونحن ننتظر منكم باصرار كامـل أن تدققوا فى رجائنا · اذ يجب علينا فى شهر أبريل (يقصد أوائل الربيع) أن نهجم من الجانبين على عدونا المشترك وهو السلطان العثمانى وعلينا أن نحارب من شهر أبريل حتى يتم لنا النصر · وعندما جاءنا سفير من

---

(١) Charles Quint

(٢) هذا الملك جلس على عرش اسبانيا سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وفى سنة ٩٢٥ هـ ، (١٥١٩ م) صار أمبراطور المانيا ·

(٣) Frater Petrus de moute Lebano

الملك لودفيج الثانى(١) عن طريق تبريز أرسلنا معه رسالة الى ذلك الملك ولم يحصل منه رد للآن ٠ وكما سمعت من الرعايا العثمانيين فـــان الملوك المسيحيين فى حرب فيما بينهم وهذا ما يدعو للحيرة لأن خلافهم مع بعضهم يزيد من جراة عدوهم وشجاعته ، ولهذا كتبت لملك المجر لكى يتخلص من العداء مع ملوك أوربا لاننى أعلم عن اعـداده جيشـا لمحـاربتكم وأرسـل الرسل والرسائل يدعونى للاتحاد معه فى هذا الامر ولكننى رفضت طلبه مرارا للاننى ــ كما تقولون ــ أريد أن أشاطركم فى السراء والضراء وكـل من يترك حليفه وحيدا ويخونه يستحق جزاء الله القادر القهار ، ولهـذا فمن الواجب أن تسارع باعداد الجيش وأمل الا احتاج لرســـالة اخـــرى لتحريضك وتشجيعك لان المسالة بعيدة وارسال الرسائل صعب خاصـة وان السلطان العثمانى يسيطر على البحار وارسال رسل آخرين غير هـذا السفير ليس متاحا لنا ولاشك انكم لن تثقوا فى السلطان العثمانى فهو شخص لايرتبط باتحاد ولايفى بقسم ولايتوانى عن افنائكم وهذا العدو القـديم الناقض للعهد لن يستطيع طبعا أن يخدع ملكا عظيما يحكم دولة المانيا » ٠

تحريرا فى شوال ٩٢٩ هـ

الحمد للـه رب العالمين امين آمين

صديقك الشاه اسماعيل الصفوى بن الشيخ حيـدر

كما ذكرنا فان هذه الرسالة مكتوبة باللاتينية ويبدو أن كاتبها هـو نفسه الاخ بطرس اللبنانى سفير ملك المجر ٠ وقد وصلت الرسالة بعد سنتين الامبراطور المانيا ورد عليها كارل الخامس برسالة باللغة اللاتينية وأرسلها للشاه اسماعيل بواسطة القس المذكور وكان الشاه اسماعيل قد توفى قبل ذلك بعام وترجمة رسالة امبراطور المانيا كما يلى :

الى الامير صاحب السمو القوى الشاه اسماعيل الصوفى شـاهنشاه ايران أخى وأعز أصدقائى ٠

---

(١) يبدو أنه لودفيج الثانى ابن فلاديسلاس السادس الذى ارتقى العرش سنه ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وهزم سنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٦ م) فى حربة مع السلطان سليمان القانونى وهلك فى أحد المستنقعات أثناء هربه ٠

كارل الامير صاحب السمو المؤيد بالعناية الالهية امبراطور الـــروم والعـــالم المسيحى والمانيا وملك ممالك أسبانيا وأراضى سيسيل ونافار وغرناطة وجزر البالبار والجزر السعيدة(١) والهندوبلاد الذهب الجديدة(٢) وأمير البلاد النائية فى أفريقيا والامارات التابعة فى المانيـــا وفرنسا يرسل التمنيات بالسعادة والتوفيق الى الملك الزاهد السعيد الشاه اسماعيل الصفوى ملك ايران أخينا وصديقنا العزيز ٠

أيها الملك العظيم ويا أخى المحبوب حمل الينا فى العام الماضى شخص أسمه بطرس وهو من قسس جبل لبنان المارونيين رسالة دعينا فيها منكم للاشتراك فى الحرب ضد العدو المشترك السلطان العثمانى ويجب أن ندخل هذه الحرب معا فى شهر أبريل ولكن من سوء الحظ ان الرسالة لم تكن قد وصلتنا فى الموعد الذى حددته جلالتكم حتى بمكن أن يتخذ اجراء سليم ٠ وقد تعجبنا كثيرا من أن رسالتكم لم تكن تحمل ختما ولا توقيعا كما جرت العادة بين الملوك ٠ ولهذا ترددنا فترة فى اعتماد تلك الرسالة وقبول الرسول ولكن نظرا للصداقة والود اللذين بيننا قبلنا الرسالة والرسول بشوق بالغ واذا كان قد حدث تأخير فذلك لاننا كنا ننتظر باستمرار وصول أخبــار جديدة منكم وتحديد مصير الامر الخطير المطروح بيننا ولكن لم تصل أيـــة أخبار فى هذه المدة بل سمعنا أنه أصابكم مرض وتوفيتم ونأمل أن تكون هذه الاخبار عارية عن الحقيقة والخلاصة أننا فى غم شديد لان جمع جيش لقتال السلطان العثمانى لايخلو من مصاعب بالاضافة الى هذا فقد مرضت بضعة أشهر مرضا شديدا كما أن ملك فرنسا (٣) أثارنا لحربه وقد لحقته الهزيمة فى الحرب الشديدة التى خاضها ضدنا ووقع هو أسيرا فى أيـــدى قودنا والآن وقد من الله علينا بهذا النصر ولما كنا نأمل فى السلام والأمن فى الاراضى المسيحية لهذا فنحن على ثقة أنه لم يبق أمامنا من عمل سوى أن نشرع فى الحرب ضد الاتراك العثمانيين بناء على الرغبة المشتركة لنا ٠ ولهذا فاننا نعيد نفس الرسول الى جلالتكم حتى يعرض على جـــلالتكم

---

(١) Les ilesfourtunees

(٢) يقصد أمريكا الجنوبية التى كانت آنذاك تخضع لاسبانيا ٠

(٣) يقصـد فرانســوا الاول ملك فرنســا من ١٥١٥ ـ ١٥٤٧ م (٩٢١ ـ ٩٥٤ هـ) ٠

الخطوات الخاصة برغبتنا فى الحرب وانتم بدوركم عليكم ابلاغنا بأهدافكم عن طريق اشخاص تثقون فيهم والاسراع فى هذا سيكون أكثر نفعا لاننا على استعداد تام للدخول فى حرب هذا العدو الغاشم بقواتنا وقوات جلالتكم ونأمل أن يهبكم الله تعالى الصحة والسلامة ويستجيب لكل ماتطلبون ٠

كتب فى ٢٥ أغسطس ١٥٢٥ من ميلاد منقذنا المسيح فى مدينة توليدو٠

وليس بين يدينا شىء عن مصير الاخ بطرس فى رحلتـــه الثانية الى ايران فقبل أن يتحرك هو من المـــانيا متوجها الى ايران مـــرة أخـــرى كـــان الشاه اسماعيل الصفوى قد توفى وجلس مكـــانه الشـــاه طهماسـب الأول ، ولـمـــا كان هذا الملك شديد للتعصـب ، وكـــان يعد ملوك أوربـــا كفـــرة نجساء فيمكن توقع انه لم يجب على رسالة كارل الخامس ٠

بعد أربع سنوات (أى فى جماد الآخر ٩٣٥ هـ ـ فبرايل ١٥٢٩ م) أرسل كارل الخامس سفيرا ثانيا اسمه يوحنا بالبى(١) الى ايران ولـكن الرسالة التى كان يحملها هذا السفير أيضا كانت معنونه باسم الشـــــاه اسماعيل مما يـــدل على أن خبر وفاته لم يكن قد وصل الى أوربا وكـــان مضمون رسالة أمبراطور المانيا كما يلى :

صاحب السمو الأمير القوى أخى وصدقى العزيز ، أن خبر أعمـــــال جلالتكم واخضاعكم لكل امراء المشرق بقوة شجاعتكم وحسن تدبيركـــم وحكمتكم قد وصلت الى أسماعنا ونعلم أن جلالتكم تستخدم جيشــــك وقواتك دائما ضد العدو الخارجى وهو دائما ضـــد مخالفيه الظالمـــــة والمستبدين ولـمـــا كنا نوافق جلالتكم تماما فقد أرسلنا يوحنا بالبى من المقربين لنا ومن قادة جيشنا وأعيان بلاطنا الامبراطورى والمعروفين بالصداقة والوفـــاء لنـــا حتى يعرض عليكم أهدافنا ومقاصدنا الشخصية ويذكر لـكم مطالبنا ٠ فنرجو أن تطمئنوا اليه وتعتمدوا عليه اعتمادا كاملا وتعـــدوا مايعرضه هو الواقع وكما يتضح لـكم فان هدفنا الحقيقى هو تامين السعادة والحرية لعـالم الانسانية ٠ ومن أجل تحقيق هذا الهـدف المبارك الذى هو غاية الملوك فانكم ستنهضون مع قواتكم لمساعدتنا ومن البديهى أننـــــا اذا استطعنا أن نقوم بعمل يليق بمقامكم العظيم فاننا لن نتوانى عن القيام به وانجازه ونأمل أن يطيل الله فى عمر جلالتكم ٠

---

(١) Johann Balbi

كتب فى مدينة توليدو فى ١٥ فبراير ١٥٢٩ م (١) المطابق للسنة العاشرة لملكنا على بلاد الروم وفى العام الرابع عشر لجلوسنا على العرش.

الى الملك المعظم القوى أقدر سلاطين المشرق الملك السعيد الزاهد الشاه اسماعيل الصوفى شاهنشاه ايران صديقنا وأخينا العزيز .

وكان بالبى مكلفا بصفة خاصة بشرح فتوحات كارل وحروبه مع فرانسوا الاول وأسره الى ملك ايران ويذكر له أن امبراطور المانيا أطلق سراح ملك فرنسا بشرط أن يأتى ملك فرنسا بنفسه لمعاونته عند قيام الحرب مع السلطان العثمانى، ورغم وجود ابنيه رهينتين فى بلاط الامبراطور فانه عقد اتفاقيات مع جمهورية البندقية (فينيسيا) والسلطان العثمانى وهجم السلطان على المجر بتحريض من ملك فرنسا فقتل ملكها فى هذه الحرب وهو زوج أخت الامبراطور وقد أصبح شقيق (٢) الامبراطور ملكا على المجر وقد صمم الشقيقان على الهجوم على السلطان العثمانى أحدهما من ناحية أيطاليا والاخر من ناحية المجر وهما يأملان العون والمساعدة من ملك ايران وينتظران أن يرسل الملك الصفوى قوات الحدود الشرقية لملكة السلطان العثمانى حتى يتوجه جزء من الجيش العثمانى الى هناك هذا اذا لم يكن الملك الصفوى مستعدا لخوض الحرب ضد السلطان العثمانى على الأقل .

وقد توجه يوحنا بالبى الى ايران عن طريق البحر الأبيض والشام وحينما وصل الى حلب أرسل منها رسالة الى الامبراطور يخبره فيها بوصوله الى تلك المدينة وأنه ينتظر الفرصة المناسبة للسفر منها الى ايران وذكر فى هذه الرسالة خاصة أن شاه ايران قد شرع فى الحرب مع السلطان العثمانى (٣) وهو الوقت الذى يجب أن يخوض فيه الامبراطور الحرب مع الأتراك أيضا . ولكنه لم يشر فى خطابه الى وفاة الشاه اسماعيل واعتلاء الشاه طهماسب العرش . وكتب هذا السفير رسائل أخرى الى الامبراطور

---

(١) يطابق ٦ جمادى الثانى ٩٣٥ هـ

(٢) يقصد فردناند الاول الذى أصبح ملك المجر فى سنة ١٥٢٦ (٩٣٣ هـ) وأصبح امبراطور لالمانيا بعد أخيه سنة ١٥٦٦ (٩٦٣ هـ) .

(٣) يبدو أنه يشير الى حملة الشاه طهماسب على بغداد سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩ م ، واستيلائه عليها من يد ذى الفقار الذى كان قد أعلن الاستقلال .

أثناء الطريق لم تتضمن أى منها أشياء هامة · ولانعلم نتيجة رحلته بمحصلات العلاقات الايرانية ـ الالمانية منذ ذلك الوقت حتى عصر الشـــاه عبـــاس الـكبير ·

عـــلاقات ايران والالمـــان فى عصر الشـــــــاه عبـــاس الأول

كما ذكرنا فى فصل العلاقات بين ايران وأسبانيا والبرتغال ، فـــان الشاه عباس كان قد أرسل السير أنتونى شيرلى الانجليزى وحسين على بك بيات سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٨٩ م) للعمل على الاتحاد مع حكام أوربا ضـد السلطان العثمانى وعقد اتفاقيات لبيع الحرير لايرانى · وقد توجه السفيران ـ كما قلنا ـ عن طريق روسـيا ، وبعد اقامة ستة أشهر فى موســـــكو غادراها يوم عيـد الفصح سنة ١٦٠٠ م (شوال ١٠٠٨ هـ) متوجهين الى المانيــــــــا ·

وقد سلكت البعثة طريق ميناء أرخانجلسك وشمال أوربا وسواحل النرويج الى ميناء شتود(١) فى مصب الالب(٢) ، ومن هناك ذهبوا الى ميناء ايمدن(٣) حيث استقبلهم دوق أولدنبورغ (٤) بكثير من الترحيب والحفاوة ، ثم توجهوا الى مدينة براغ عاصمة بوهيميا التى كانت آنذاك مقـــــــرا لامبراطور ألمانيـــا · وحينما علم رودلف الثانى أمبراطور المانيـــا بوصول سفيرى الشاه أرسل ثلاث عشرة عربة مع مجموعة من القواد وكبار رجـــال القصر وخمسة آلاف جندى لاستقبالهم ، وقد تلقاهم الامبراطور بكثير من الترحيب والتعظيم واختار لكل منهما منزلا جميلا بالقرب من البلاط الملكى ·

بقى حسين على بك بيات وأنتونى شيرلى ما يقرب من ستة أشهر فى براغ كانا فيها ضيفين على الامبراطور ، وقد قبل رودلف الثانى اقتراحاتهما بشأن الاتحاد مع الشاه عباس ضد الاتراك العثمانيين بشىء من الاحتياط ، كما حاول ثنى السفيرين عن عزمهما زيادة بقية ملوك أوربا واقناعهما بارسال رسائل الشاه عباس الى هؤلاء الملوك عن طريق مبعوثين مخصوصين ،

---

(١) Stode　(٢) Elbe　(٣) Emden
(٤) Olde Nburg

ولكن السفيرين لم يقبلا عدا وحصلا على اذن منه وسافرا فى ربيع ١٦٠١ م (١٠١٠ هـ) الى ايطاليا لزيارة بابا روما ٠

وعندما ودع أمبراطور المانيا بعثة السفراء الايرانية اعطى السـير أنتونى شيرلى خمسين اناء مختلفا من الفضة والفى (١) دوقة المانية لنفقات سفره ، كما أعطى لحسين على بك بعض الهدايا ، واعطى لكل واحد من المرافقين كاسا من الفضة المحلاة بالذهب ومائتى دوقة ٠

وقد توجهت البعثة من براغ الى نورمبرغ احدى مدن دوقية بايرن ، وقد استقبلوا هناك استقبالا حافلا ، وبقيت البعثة أربعة أيام فى ضيافة حاكم المدينة وعند مغادرتها أعطى لكل من انتونى شيرلى وحسين على بك كأسا ذهبية ٠ وقد ذهبت البعثة عن طريق أوجسبورغ (٢) الى ميونيخ عاصمة بايرن وقد استقبلهم ويليهيم الثانى المعروف بالراهب (٣) دوق بايرن الذى كان قد تخلى فى تلك الايام عن منصبه استقبالا عظيما ـ ثم غادرت السفارة ميونيخ ـ كما سبق أن ذكرنا فى فصل العلاقات الايرانية الالمانية ـ الى ايطاليـــا وروـمـــا ٠

سـفارة اتين كاكاش الى ايـــران :

بعد سفر البعثة الايرانية من براغ أرسل رودلف الثانى أمبراطور المانيا سفارة الى ايران لكى تقف على حقيقة أهداف الشاه عباس وتحقق اتحاد الدولتين ضد السلطانى العثمانى ٠ وكانت رئاسة هذه البعثه لاحـد اعيان ترانسلفانيا وهو اتين كاكاش دى زالونكنى (٤) : وكانت لدى هـذا السفير تعليمات بأن يعقد معاهدة مع الشاه عباس الاول ضد السلطان العثمانى ، ويأخذ منه تعهدا بألا يتصالح مع العثمانيين مالم يسترد مدينه تبريز ، كما كان مكلفا بأن يتباحث مع قيصر روسيا بشأن اتحاد ايـران والمانيـا ضـد السلطان العثمانى ويدعو القيصر للاشتراك فى هذا الاتحاد٠

غادر اتين كاكاش ومرافقوه مدينة براغ فى الثامن من ربيع الاول

---

(١) قيمة الدوقة كانت بين ربع وثلث دولار حاليا ٠

(٢) Augsburg

(٣) Wilhheln II Le Pieux

(٤) Etienne Kakash-de Zalonkemeny

١٠١١هـ (٢٧ أغسطس ١٦٠٢ م) ووصل الى موسكو يوم ٢٣ جماد الأول من نفس العام وبعد أن أنجز مهمته لدى قيصر روسيا توجه الى ايران وأبحر فى سفينة من ميناء هشتر خان وبعد واحد وثلاثين يوما وصل فى السابع والعشرين من صفر ١٠١٢ هـ الى ميناء لنجرود (١) فى جيلان ومن هناك ارسل مبعوثا الى الشاه عباس فى اصفهان ليخبره بوصوله كسفير • فكلف الشاه عباس روبرت شيرلى لاستقبال السفير ومرافقيه • وذهب روبرت من أصفهان الى لنجرود حتى يصحبه مع مرافقيه الى الشاه عباس الذى كان آنذاك يعتزم الهجوم على آذربيجان واستعادتها من الاتراك العثمانيين • ولكن كاكاش وثمانية من أعضاء السفارة مرضوا مرضا شديدا بسبب سوء الغذاء والجو ، وعندما وصلوا الى مدينة لاهيجان(٢) توفى السفيروثلاثة من مرافقيه، ولكن كاكاش قبل وفاته كان قد فوض رياسة للبعثة الى سكرتيرة الخاص جورج تكتاندر فون ديريابل(٣) •

توجه تكتاندر ومرافقوه بصحبة روبرت شيرلى من لاهيجان الى قزوين وعندما وصلها لم يكن قد بقى من مرافقيه معه غير واحد اذ تخلف الاربعة الآخرون فى الطريق بسبب الضعف أو المرض • وفى قزوين سلمه روبرت شيرلى الى أحد كبار رجال ايران كى يحمله الى الشاه عباس الذى كان آنذاك فى تبريز التى كان قد هاجمها بجيش عظيم ودخلها وأقام بها • ووصل تكتاندر الى تبريز فى ١١ رجب ١٠١٢ هـ (١٥ ديسمبر ١٦٠٣ م) وطلبه الشاه على الفور لمقابلته • وكتب تكتاندر عن هذا اللقاء يقول :

« وصلت يوم ١٥ ديسمبر الى تبريز وكان الشاه عباس قد هجم على هذه المدينة بمائة وعشرين الفا من الجند وكان قد مضت عليه سبعة أيام منذ استولى عليها(٤) ودخلت المدينة فى الثالثة بعد الظهر وكنت شديد الاعياء

---

(١) ميناء لنجرود على ساحل بحر قزوين فى شمال ايران •

(٢) مدينة لاهيجان فى اقليم جيلان جنوب بحر قزوين تشتهر حاليا بزراعة الشاى الايرانى •

(٣) Y. Tectander Von der Jabel

(٤) يبدو أن السفير الالمانى أخطأ فى تاريخ استيلائه على تبريز اذ انه غادر اصفهان فى السابع من ربيع الثانى ١٠١٢ هـ متوجها الى تبريز

من حمى الحصبة ومن تعب الطريق حتى أننى لم اكن استطيع ركوب الحصان دون مساعدة الغير · وكنا مضطرين أثناء الطريق للركوب ليلا ونهارا حتى نصل تبريز قبل أن يغادرها الشاه حيث انه تركها بعد وصولى بثلاثه ايام·

ولم أكد أترجل عن فرسى بعد وصولى للمدينه حتى طلبنى الشاه لمقابلته ولم أكن قد وجدت الوقت لتناول الغذاء وابدال ملابسى أو حتى ارسال الحصان الى الاصطبل وكنت قد بعثت مرافقى للسوق لاعداد الطعام فاضطررت لترك كل شىء وتوجهت لمقابلة الشاه فى القصر الملكى · وكان الشاه جالسا على الارض بين رجال قصره ومشاوريه ولما كانت ملابس أقدم من ملابس الآخرين كما أننى لم أكن أصطحب مترجما فاننى لم استطع التعرف عليه ووقفت حائرا وعند ذاك تقدم أحد الايرانيين المسنين وأخذ يدى وقدمنى للشاه فركعت أمامه ثم قبلت يده كما كانوا أمرونى قبل هذا فأشار الى أن انهض ثم أخذ شخص ايطالى كان قد أسلم يتحدث معى بالايطالية فسألته أن كان يعرف اللاتينية فلما أجاب بالايجاب قلت له أن أمبراطور الروم (أى امبراطور المانيا وايطاليا وغيرها) كان قد أرسل رئيسى كسفير الى صاحب الجلالة الايرانية ووصل الى مدينة لنجرود فى جيلان ولكنه توفى هناك مع مرافقيه بسبب قلة الغذاء الجيد وعدم وجود المشروب فلم يكن هناك سوى ماء عفن ولحم ضأن فاسد وتخلف أربعة فى الطريق حين أشرفوا على الموت · وقد أمرنى رئيسى حينما أدركته الوفاة أن أوصل رسائل الامبراطور الى جلالة الشاه الايرانى ·

وحين وصل الحديث الى هذا طلب الشاه الرسائل منى ولكنها كانت قد بقيت فى صندوقى وحينما أردت أن أذهب لاحضارها لم يأذنوا لى فاضطررت لاعطاء المفتاح الى أحد مستشارى الملك فذهب وأحضر الرسائل من سكنى وسلمها لى وكانت أحدى الرسائل الموجهة للشاه باللغة اللاتينية والاخرى بالايطالية كما كانت رسائل دوق موسكو الاكبر (القيصر) بهاتين

=
وقطع هذه المسافة الطويلة (نحو ١٢٠٠ كيلو متر) بجيشه فى ١٣ يوما ودخل المدينة صباح اليوم الرابع عشر · كما أن المبعوث الالمانى بالغ فى عدد جيش الشاه عباس ·

اللغتين ايضا فقدمتها الى الشاه مراعيا التشريفات الرسمية أى الركوع وتقبيل يد الشاه فأخذ الرسائل بنفسه باحترام ووضـــع يـده على رأسى وأجلسنى بالقرب منه ثم فض الرسائل بنفسه ولكن قبل أن يقرأها ادخلوا أحد الاسرى الاتراك متيدا بالسلاسل فركع أمام الشاه ثم وضعوا سيفين أمام الشـاه فعاينهما واحدا بعد الآخر وكان لاحدهما غمد مرصع أهداه لى الشاه بعد ذلك ببضعة أيام واستل السيف الآخر من غمده ثم أنهض من مكانه ودون ان يبدو عليه أى تأثر قطع رقبة ذلك الاسير الذى كان يستغيث أمامه . وقد ارتعدت كثيرا من هذا المنظر وخفت من أن يقطع الشاه رقبتى بالسيف الاخر وقلت فى نفسى من الممكن ان يكون الامبراطور قد تصالح مع الاتراك العثمانيين أو أنه كتب شيئا فى رسائله عن الصلح معهم وتضييع رقبتى بهذا . ولـكن الشـاه جلس مبتسما والتفت الى وقال « هـكذا يجب ان يفعل المسيحيون بالاتراك وهو مالن أكف عن فعله » .

بعد هذا سلمنى الشاه لاحد رجال قصره لكى أسكن فى بيته وأرسل المترجم الايطالى والرسائل الى منزله فترجمها المترجم أمامى الى اللغـة الفارسية . وفى صباح اليوم التالى أرسل الشاه حصانا عربيا كهدية ، ثم غادر الشاه تبريز بعد هذا بثلاثة أيام »(١) .

وكان الشاه عباس يعتزم فتح أرمينا والقفقاز ، وكما كتب جـورج تكتاندر فانه رافق جيشه وذكر فى كتابه معلومات مفيدة عن الاستيلاء على مدن آذربيجان وأرمينيا أو استسلامها تخرج عن موضوعنا . وبعد الاستيلاء على قلعة ايروان أذن الشاه عباس لخليفة السفير الالمانى بالعودة الى وطنه كما أمر أحد رجال بلاطه وهو مهدى قلى بك بأن يرافقه حاملا ردودا عـلى رسائل قيصر موسكو وأمبراطور المانيا ، وكتب تكتاندر عن هذا فقال :

« أحضرنى الشاه وقال لقد آن وقت عودتى الى جلالة أمبراطور المانيـا حاملا ردود الخطابات وآنذاك عين مهدى قلى بك لمرافقتى واحضـار رد الامبراطور ، ثم خلع على بخلعة من ملابسه مع حصان عربى وأعطـانى تسعمائة أكو(١) على أكثرها صور جلالة أمبراطور المانيـا وملك أسبانيا كما أهدانى سيفا مرصعا .

---

(١) رحلة جورج تكتاندر فمون ديريابل ترجمة شارل شيفر ص ٤٧ ــ ٥٠ .

تحرك خليفة السفير الالمانى مع مهدى قلى بك ومرافقيهما من مدينــة ايراوان متوجهين الى روسيا • فوصلوا موسكو بعد ثمانية أشهر تحملوا خلالها كثيرا من المشقة والتعب • وكان مهدى قلى بك مكلفا من الشاه عباس لشرح توغله وانتصاراته فى الاراضى العثمانية لروبس جود ونف قيصر روسيا ، ويشكر القيصر الروسى على المعونة التى قدمها له فى هذا الد.

وقد التقى جورج تكتاندر والسفير الايرانى فى مدينة غازان بسفير ايرانى آخر اثناء عودته مع مرافقيه كان الشاه عباس قد أرسله من قبــل الى القيصر الروسى ، وكتب تكتاندر أن هذا السفير ذكر لهم أن القيصر الروسى أرسل عدة آلاف من حملة البنادق وبعض عربات المدفعية لمساعدة الشاه عباس ولكى تحاصر قلعة دربند (باب الابواب) وقد طلب من الشاه بصفة خاصة ألا يكف يده عن حرب السلطان العثمانى •

وقد استقبل بوريس جودونف السفيرين الايرانى والالمانى بترحاب وافــر وأرسل رسالة الى رودلف الثانى أمبراطور المانيا مع تكتاندر شرح فيها علاقات الصداقة بينه وبين الشاه عباس ضد السلطان العثمانى •

غادر مهدى قلى بك ومرافقوه موسكو فى ربيع الاول ١١٠٣ هـ (أغسطس ١٦٠٤ م) وتوجهوا الى المانيا عن طريق بحر البلطيق •

وليس فى يدى شىء عن رحلة مهدى قلى بك الى المانيا أو نتيجة مهمته هناك ولكن من المعروف أنه بقى فترة فى براغ وأن أحد الرسامين المشهورين من الالمان اسمه اجيديوس سادلرس (٢) رسم له ولاحد مرافقيه من قــواد ايران اسمه زينل خان شاملو صورة حوالى سنتى ١٠١٣ و١٠١٤ هـ (١٦٠٤ ـ ١٦٠٥ م)•

بعد هذا بسنوات أى فى سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨ م) أرسل الشــاه عباس روبرت شيرلى كأخ له برسائل وهدايا كثيرة الى ملوك أوربا ومنهم رودلف الثانى أمبراطور المانيا ــ كما سبق أن ذكرنا فى شرح عــلاقات الشاه عباس مع أسبانيا والبرتغال ــ وقد التقى روبرت شيرلى مع الامبراطور

---

(١) الاكو كان يعادل نحو ثلث دولار •

(٢) Agidius Sadelers

فى ربيع الاول سنة ١٠١٨ هـ (يونيو ١٦٠٩ م) بمدينة براغ وبقى مدة فى بلاطه وحصل على لقب فارس (شفالييه) ولقب كونت بالاتن بسبب الخدمات التى أداها للعالم المسيحى عن طريق الحرب ضد السلطان العثمانى· ثم ذهب من المانيا الى ايطاليا ·

ومنذ ذلك الوقت ظل الشاه عباس ينتظر باستمرار اتحاد أمبراطور المانيـــا مع بقية حكام أوربا والدخول فى حرب ضد السلطان العثمانى ، كما ذكرنا من قبل ، ولان أمبراطور المانيا كان قد كتب اليه ووعده أنه لن يتصالح مع السلطان العثمانى أبد فان الشاه عباس كان يحترمه جدا وكان يضـع صورة له فى مدخل غرفته الخاصة وكلما دخل الغرفة حنى رأسه احتراما له ، ولكن عندما علم عن طريق جواسيسه الخصوصيين ان الامبراطور قد تصالح مع السلطان أحمد خان العثمانى تأثر جدا وكان يكرر سخطه وعدم رضـاه أمام رسل البابا وسفراء أسبانيا ·

وليس بأيدينا معلومات مفصلة عن علاقات الشاه عباس والمانيـا بعد هذا وكل مانعلمه أن سفيرا من قبل أمبراطور المانيا جاء فى سنة ١٠١٨هـ الى بلاط ايــران واقتراح الاتحاد ثانية ضد السلطان العثمانى · وكتب جلال الدين محمد اليزدى المنجم الخاص للشاه عباس ضمن وقائع ذلك العلم يقـــول :

« ··· فى الثامن من رجب ١٠١٨ هـ تشرف كتلكون(١) المبعوث الالمانى بتقبيل الاقدام الملكية وقد رسالة البابا وملك المانيا ومضمونها « استمد لنرفع شر الروم (الاتراك) عن رءوس أهل العالم » ·

---

(١) كذا فى النص الفارسى ·

علاقات ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير

لم تصل الينا معلومات كافية عن علاقة ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير ولكن يتبين من كتب الرحلات والتاريخ فى تلك الفترة أن علاقات الصداقة كانت قائمة بينهما وكان اباطرة المانيا يسعون لاثارة الصفويين ضد العثمانيين • ولكن بعد وفاة الشاه عباس الاول ـ اى من عصر الشاه صفى الى عصر الشاه سلطان حسين ـ كان السلام والصداقة قائمين بين الدولتين العثمانية والايرانية • وكان ملوك الصفويين يتجنبون اثارة الخلافات والحروب مع العثانيين ، وكتب أحد السياح الفرنسيين ـ والذى كان فى ايران فى عصر الشاه سليمان ـ عن السياسة الايرانية العثمانية يقول :

وصل سفراء المانيا وبولندا وموسكو الى ايران وطلبوا من الشاه سليمان ان يتعاون مع دولهم ضد العثمانيين ، واحضر المطران دى ابارنل (١) رسالة من امبراطوره الى شاه ايران فى هذا الصدد فرد عليه اعتماد الدولة الصدر الاعظم ان الشاه لارغبة له فى الاتفاق مع امبراطور المانيا لأنه عندما جلس على العرش اقترح على ملوك أوربا أن يتحدوا معه ضد العثمانيين لكن الامبراطور وخلفاءه لم يردوا عليه والآن فقد تصالح الشاه مع السلطان العثمانى ووعد بعدم أثارة خلافات معه • فقال المطران أن الاتراك لم يتمسكوا بوعودهم أبدا وغالبا ماينقضونها فقالوا له لايليق بشاه ايران أن يجارى سوء عهد السلطان العثمانى ويفعل مثله •

فقال سفير بولندا أن الفرصة مواتية لاسترداد البصرة وبغداد وارضروم فقالوا له أن هذه المدن ليست أكثر أهمية من مدينة كامينيتك(٢) التى كان العثمانيون قد استولوا عليها من البولنديين •

---

(١) d' abarnel

(٢) Kaminietk

وقال سفير موسكو أن السلطان العثمانى قد انشغل فى أوربا مع اعدائه المسيحيين ويمكن بسهولة القضاء على دولته فقالوا له أن ايران ترغب فى هزيمة السلطان العثمانى واضعافه ولكنها لا ترغب فى القضاء عليه كلية لان الدولة العثمانية تقوم كسد بين الدول الاوربية وايران ، وهى على اية حال تشترك مع ايران فى الدين .

وفى اليوم الاخير للقاء السفراء بالشاه كرروا نفس مطالبهم ، فذكر لهم اعتماد الدولة صراحة « اننا لن نضع عصا فى خلية النحل ، لأننا لو قمنا بمحاربة السلطان العثمانى فان التتار والاوزبك والمغول(*) ايضا سوف يهاجموننا بسبب الوحدة المذهبية بينهم وبين الاتـــراك العثمانيين (١) » .

وقد وصلت الى ايدينا رسالة من الشاه سليمان تؤيد اتجاهه للسلم وحذر حكومة ايران من الاتحاد مع ملوك أوربا ضد العثمانيين ومما جاء بها « اما ما أشرتم اليه من الحـرب مع سـلطان الـــروم (العثمانيين) فقد ذكرنا مرارا لملوك الفرنج والروس أن أسرتنا ذات التقاليد العادلة قد تصالحت مع ملوك تلك الدولة ولم يحدث منهم أى سوء خلال تلك المدة الطويلة ، ولهذا فان الاقدام على حربهم فى هذا الوقت يعد معصية لرضا الله الواحد ومخالفة لأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم » .

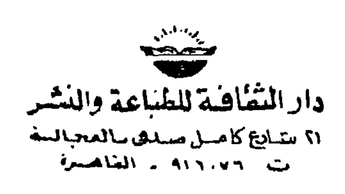
(*) يقصد بالتتار والاوزبك سكان شرق خراسان والتركستان وما وراء النهر أما المغول فهم ملوك الهند انذاك وكانوا جميعا من أهل السنة الاماندر من الشيعة .

(١) رحلة سانسون المبشر المسيحى الذى جاء الى ايران سنة ١٦٨٣ م .

الفهرست

الفصل الثانى

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٥٩٢ / ١٩٨٩م



دار الثقافة للطباعة والنشر

٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة

ت ٩١٦٠٧٦ - القاهرة